الطيّب صَالح



٦

في رحاب الجنادرية وأصيلة


RIAD EL-RAYYES BOOKS

الطيب صالح

مختارات

الطيب صالح

مختارات

٦

في رحاب الجنادرية وأصيلة



ATTENDING AL-JANADRIYYA & ASSILA

By

El Tayeb Salih

تحرير: د. حسن أبشر الطيب
محمود صالح عثمان صالح

First Published in May 2005

BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyes-books.com
. www.elrayyesbooks.com

ISBN 97 89953 21204-3

تصميم الغلاف: محمد حمادة
الطبعة الأولى: أيار/مايو ٢٠٠٥

الإهداء

إلى صديقي معالي الأستاذ محمد بن عيسى وزوجته الفاضلة ليلى لما ألقاه منهما دائماً من حفاوة ومودة.

الجنادرية

١

لا أظن أن أحداً في هذا العصر، شاعراً أو ناثراً، وقف على أطلال العالم القديم في نجد، ذلك العالم الذي تقوضت أركانه تحت وطأة التقدم والعمران، كما وقف الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري. ما من أحد بكى بكاءه، ولا أحد رثى رثاءه. ليس لأنه لا يؤمن بالتقدم والعمران، فهو في أحاديثه وكتبه، مقتنع بفوائد العلم، متحمس للتغيير مسحور بإنجازات الحضارة التكنولوجية. ولكن لأنه وعى بحسه المرهف أن كل ربح وراءه خسارة، وكل إنجاز يصحبه ضياع. وأن ذلك العالم المفقود الذي يرتفع على أنقاضه هذا العالم الجديد الأكثر رفاهية، كان على علّاته، عالماً أليفاً ودوداً.

ساقتني إلى معرفته وأنا في الدوحة منذ نحو عشر سنوات، رسالة جاءتني منه على غير معرفة سابقة. كنت قد دُعيت لزيارة المملكة

العربية السعودية عدة مرات، فلم أستطع تلبية الدعوة لسبب أو لآخر. ثم جاءتني تلك الرسالة الجميلة، والتي تضمنت، كما أدركت فيما بعد، كل خصائص أسلوب الشيخ عبد العزيز: صفاء اللغة، وحرارة التعبير، وسبَحات الخيال، وإضاءات من فكر طريف، تلمع فجأة بين السطور. قال لي الشيخ في رسالته:

إن صوتي قد وصله، وإنه يحب أن يتعرف بي. لم أكن أعرف من هو الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري، ولكنني أحسست أن ها هنا رجلاً غير عادي، يستحق أن يسعى الإنسان إليه، فأنا كما قال البحتري «أكْلف بالأشراف طرّاً من كل سِنْخ وأسِّ». الكاتب يخاطب الناس جميعاً، ولكنه يكتب بصفة خاصة لأناس «مختارين» قد يعرفهم وقد لا يعرفهم ولكنه يعلم أنهم إذا سمعوا أرهفوا السمع، وإذا نظروا دققوا النظر وإذا ناداهم صوت محب، استجابوا له بمحبة، دون قيد ولا شرط. هؤلاء هم الناس الذين إذا قرأت لهم، أو علمت أنهم يقرأون لك، أحسست بالـ «وَنَسْ» كما يقول يوسف إدريس. فهذا عالم موحش، وعالم الكتابة أكثر وحشية، وهذه الأرواح المجنَّدة، والأصوات المتآلفة المتواصلة، تخفف من وحشة العالم، وتهوِّن ولو قليلاً، من أحزان حامل القلم.

وهكذا كان. رأيت قبساً من ضوء الشيخ في تلك الرسالة فقلت أسير وراءه وأتقفّى أثره، والحكمة ضالة المؤمن، وكذلك المحبة. ولم أكن أعلم حينئذٍ أن الشيخ نفسه، كان منجذباً إلى ضوء عجيب، وصوت عبقري فريد. كان الضوء لطيفاً، وكان الصوت، صوت الشيخ، أليفاً صافياً لا يشوبه كدر. ثم إذا أنا في مجلس آهلٍ في الرياض، وإذا أنا برجل كالسيف، أقرب إلى الطول، وأقرب إلى النحول، أسمر مشرب بحمرة عليه وَسَامٌ كرذاذ المطر خلف زجاج

النافذة، لعله في الأربعين أو لعله في السبعين. يبتسم، ولكن لم يغب عني أنه مثقل بالأحزان، ولكنها أحزان نبيلة، كالتي عاناها الشعراء في هذه الديار منذ عهد نابغة بني ذبيان. ولأن فؤادي ليس خُلْواً من هذا كله، فقد سلمت عليه وكأنني أعرفه من زمن، سلمت عليه بمودة مشوبة بالعطف. ولـِمَ العطف؟ لقد مضيت بعد ذلك في علاقتي بهذا الإنسان الفريد، أعجب به وأُحبه، وأشفق عليه، فذلكم العطف، وهو يرثي لحالي، وتلك لعمري قسمة عادلة وعلاقة متكافئة.

مثل أخي فتح الرحمن البشير، أقول لنفسي، يا للعجب، كأنهما توأمان. تلك الحيوية، وتلك الأريحية. كأن قلبه يخرج من بين أضلاعه ويسابق بدنه ليلقاك مرحِّباً، يهش لك. ويسحبك من يدك سحباً، ويدنيك من مجلسه، ويقحم الطعام عليك إقحاماً، ويبذل لك من نفسه كأنك الوحيد لديه. وكل واحد عنده سيان في بذْله.

أعجبتني داره، وهي مجموعة دور حول حوض سباحة، قلت له ذلك، فقال ضاحكاً «هذا من علامات الساعة».

سألته لـِمَ ذلك؟ فقال:
«ألا تعرف الحديث الشريف أن من علامات الساعة أن يتطاول الحفاة العراة رعاة الإبل في البنيان؟».

كذلك هو يبالغ في التهوين من شأن نفسه، ويسخر من حوله وطَوْله ويؤكد لكل من يلقاه أنه جاهل لم يدخل مدرسة ولم يتعلم في جامعة. ولقد رأيته منذ عامين أثناء مهرجان الجنادرية، يهدي كتبه لأكثر من عشرين كاتباً ومفكراً. كان يملي إهداء يملأ صفحة

كاملة لكل واحد منهم، وكل إهداء مغاير لما سبقه، وفي كل إهداء فكرة طريفة أو عبارة أنيقة لم ترد من قبل. ثم رأيته أوائل هذا العام، يتحدث في داره إلى جمع غفير من أساتذة الجامعة الأمريكيين. بدأ حديثه كعادته بالتأكيد على جهله، ثم حلَّق في آفاق ساشعة، متنقلاً من السياسة إلى الأدب إلى التاريخ، خالطاً الجد بالهزل، يمسّ برفق مكامن سوء الفهم لديهم، ويصحح ما علق بأذهانهم من تصورات خاطئة عن العرب والمسلمين، بمهارة تثير الإعجاب. وبعد أن فرغ من حديثه وأجاب عن تساؤلاتهم، شكره أكبر الأساتذة سناً وقال له في ختام كلمته:

«قلت لنا إنك جاهل وإننا علماء. ولكن صدقني أنك أنت الأستاذ ونحن الجهلاء. لقد شعرنا أثناء حديثك أننا تلاميذ نجلس بين يدي أستاذ».

إنما الشيخ عبد العزيز، قد جلس من المتنبي كما يجلس التلميذ بين يدي أستاذه. وأنزل نفسه منه بمنزلة التابع، يقتفي أثره بين اليمامة والدهناء يحل إذا حلَّ ويرحل إذا رحل. يلازمه كظله، يحاوره ويداوره يوافقه ويخالفه، يحبه ويحاول أن يجد فكاكاً من حبه. ولكن هيهات فكل من وقع في أسر المتنبي، أصبح أسيراً ليس له فكاك. وهذه العلاقة التي ابتدعها الشيخ عبد العزيز، هي في حد ذاتها نمط جديد، ليس له نظير في الأدب العربي. قلت للشيخ:

«هذه العلاقة التي رسمتها لنفسك إزاء المتنبي علاقة عجيبة. لقد كان المتنبي يأمل طوال حياته أن يحصل على مثل ما حصلت أنت عليه. ألم يكن يسعى، لا يمل من السعي، وراء الرفعة والسلطان؟ ثم ها أنتذا وكأنك تتمنى لو كان لك ما كان للمتنبي. وكأنك تريد

أن تكون المتنبي وسيف الدولة في آن واحد».

لكنني أيقنت بعد ذلك، حين عرفت الشيخ أكثر، أنه لا يطمح مثل هذا الطموح، وأن تقفّيه أثر المتنبي بين اليمامة والدهناء، كان بمثابة جري وراء أطياف العالم الذي ألفه وأحبه في طفولته وصباه ثم ضاع منه إلى غير رجعة. لذلك فهو يقيناً امتداد لكل أولئك الشعراء الذين مروا بهذه الديار، ووقفوا على أطلالها، وناجوا أطياف محبوباتهم على كثبانها وأوديتها وجبالها. أليس صوت الشيخ عبد العزيز يذكر بصوت غيلان، ذي الرّمة، وهو يقف على رمال الدهناء ذاتها التي وقف عليها الشيخ؟

تحن إلى ميٍّ كما حن نازع
دعاه الهوى فارتاد من قيده قصْرا
فقلت أربعاً يا صاحبيَّ بدِمنةٍ
بذي الرِّمث قد أقْوتْ منازلُها عصرا

بلى. ولكن حيث جرى امرؤ القيس وراء طيف صاحبته «هِرْ»، ولاحق عنترة أطياف عبلة بين لمعان الأسنّة، وبكى إمامُ الباكين غيلان، طويلاً على أطلال مَيٍّ، فإن الشيخ عبد العزيز قد ابتدع رمزاً جديداً طريفاً، هو في الوقت نفسه امتداد لتلك الرموز، فلاحق خيال الشاعر العبقري الذي ابتلع في جوفه كل أولئك الشعراء. وتلك، وأيْم الحق، جرأة من الشيخ ليس مثلها جرأة.

هل ثمة سلمى أو ليلى أو هند أو مَيْ؟ لا بد. إذاً لماذا لم يبح الشيخ بكل أسراره، ولماذا اختار هذا الرمز العسير، والرموز الغريبة المنال بين يديه؟

في تلك الزيارة، سمعت لأول مرة قراءات لرسائل الشيخ للمتنبي. أعجبني الصوت، واتضح لي الضوء أكثر، فكنت واحداً من كثيرين أهابوا به أن ينشر كتاباته على الملأ. تردد كثيراً يُقْدِم ويُحْجِم، وبعد لأي أصدر كتابه الأول «في أثر المتنبي بين اليمامة والدهناء» بعد أن أطال فيه النظر، وحذف منه أجزاء كثيرة جميلة، ليته أبقاها. استُقبل الكتاب، كما توقعت، باستحسان كبير. ثم أخرج الشيخ كتابه «رسائل إلى ولدي» في جزءين، أعقبه كتابه «حاطب ليل ضجر». وما يزال عنده الكثير، لم يشأ أن ينشره بعد.

ولكن الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري، أكثر من هذا كله، على أن هذا ليس قليلاً. إنه إنسان متميز، من أميز الناس الذين عرفتهم. وهو حيث هو في الرياض، يشعّ ضوءاً يضيء مساحات واسعة حوله، لقد أثنى عليه وعلى كتاباته أناس كثيرون، بينهم علماء أجلّاء، أمثال الدكتور زكي نجيب محمود والدكتور حسن ظاظا والدكتور مصطفى هدارة. ومنهم نقاد كبار مثل رجاء النقاش. وكانوا صادقين في ما ذهبوا إليه. وكنت قد آليت على نفسي أن أرجىء الحديث عنه إلى حين. يقول لي الشيخ:

«أنت يا الطيب صالح ألقيتني على قارعة الطريق ثم تركتني».

وأقول له:

«أخشى أن تظن أنني أجاملك. فقلت أترك غيري يكتبون عنك. وها أنت ترى أساتذة كباراً هم خير مني، يعبّرون عن إعجابهم بكتاباتك».

وبعد، فليس هذا ما أردت أن أقوله عن هذا الشيخ الجليل والإنسان الفريد، فإن الحديث عنه يطول، وسوف يأتي وقته إن شاء الله. إنما هذا الآن، فقط احتفاء بإبْلال الشيخ من علَّته، وعودته سالماً إلى حماه ليواصل بإذن الله، الدور الذي ارتضاه لنفسه، دليلاً للحائرين، ومنارة للسارين والمقوين.

٢

ذات ليلة، خلال مهرجان الجنادرية الأخير، حلمت أنني بأرض خلاء بالمدينة المنورة. لم تكن المدينة كما أعرفها. وإذا شجرة ضخمة كأنها شجرة زيتون، عظيمة الجذع، ممتدة الفروع متدلية الأغصان. وإذا عِرقٌ من عروقها، ظاهر على الأرض، منتفخ في شكل بيضاوي، عليه بياض كأنه الجير - وإذا صوت يهتف بي:
«هذا قبر الرسول صلى الله عليه وسلم».

عجبت أن الرسول مدفون في أصل شجرة. ثم إذا أنا في الحرم النبوي، في الروضة الشريفة كما أعرفها، إلّا أن الضريح كان في موضع المنبر.

ثم إذا أنا في لندن، في حفل من تلك الحفلات التي كنت أرتادها زمان الجهالة، منذ نحو ثلاثين عاماً. أخلاط من الناس رجالاً ونساء.

ووجدتني أجلس بجوار فتاة لبنانية، لم تخبرني أنها لبنانية، ولم أسألها، ولكنني كنت موقناً في حلمي أنها لبنانية.

أذكر وجهها المستطيل، والنظارات على عينيها العشوائين، وشعرها المسدل على كتفيها. كانت غير راضية عن أي شيء. كل شيء يسئمها. قالت إن كل الروايات التي تنشر لا تعجبها. فجأة خطر لي أن أعبث بها، كما كنت أفعل في تلك الأحوال منذ ثلاثين عاماً. قلت لها إنني فرغت لتوي من قراءة رواية رائعة لكاتب أمريكي جديد، سوف تعجبها لا شك.

قالت باهتمام بلغة عربية لبنانية:
«صحيح؟ شو اسمها؟».
«أذكر أنني فكّرت في عنوان للرواية الموهومة:
«عنوانها .. نيويورك أطول من حياتي».

قالت بلغة عربية فصيحة:
«الله. ما أجمل هذا العنوان. ما اسم الكاتب؟».

أخذت أفكر في اسم كاتب أمريكي موهوم، وقبل أن أجد الاسم، إذا بالشاعر أدونيس يدخل، وإذا أنا وإياه واقفين وحولنا أشخاص، وغير بعيد منا رجلان يتابعان حديثنا ويبتسمان، أحدهما كأنه يوسف الخال. قلت لأدونيس باللغة الفرنسية، وكنت أفكّر في الكلمات شأن لا يُتقن اللغة:

«شعْرك جيد جداً. ولكن يلزمك مزيد من الشجن والحنين إلى الماضي». وأذكر أنني دُسْتُ مؤكداً على الكلمة الفرنسية (نُشْتالجي - Nostalgie).

ثم إذا أنا في ميدان صغير في حي الدقّي، مثل ميدان مطعم (المغربل) حيث نطلب الفول المدمّس أواخر الليل مع محمود سالم وأخوان الصفاء في القاهرة المحروسة. وإذا رجلٌ زبّال، كالثور يجر الساقية، يجر عربة مملوءة بالزبالة، اختلط بعضها ببعض، فأصبحت عجينة ينزّ منها الماء على ثيابه.

وبينما أنا أغالب الحزن لحالة الرجل، إذا به ينادي فجأة بصوت واضح، ولغة عربية فصيحة:
«الحمد لله. هذه نعمة كبيرة».

أذكر أنني أحسست بالخجل، وقارنت بين حالي وحال الرجل، وهتفت بصوت كأنه يأتي من غور بئر، صوت غريق بكل تلك الأحوال. «الله». ووجدت في يدي ورقة بخمسة جنيهات مصرية أعطيتها إياها.

صحوت من منامي في غرفتي في هوتيل (قصر الرّياض) فإذا أنا بعد الفجر بقليل.

في المساء، في دار الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري، لاحظت أن الأخضر الإبراهيمي يستخدم كلمات لبنانية في ثنايا حديثه، لا شك لطول ما سعى للصلح بين اللبنانيين كي تضع الحرب أوزارها. متى تضع حروب العرب أوزارها؟ كان في المجلس أيضاً السفير الجزائري، والسفير التونسي القاسم بوسنينة.

هذا إنسان كريم حقاً. كنت قد تعرّفت به في الصباح، حين زرت السفارة التونسية للحصول على فيزا. كنت أعلم أن الجواز السوداني

الذي أحمله مثل طائر البطريق حول عنق الملاّح في قصيدة (كولردج) لن يجديني نفعاً، توسلت بالسفير الأديب الهمام، الشاذلي دوكار الذي كان معنا في المهرجان، أن يوصي بي خيراً.

لكنني وجدت التونسيين الكرام فوق ما ظننت. ما إن وطئت قدماي أرض سفارتهم، حتى وسَّعوا في استقبالي وأمعنوا في الترحاب بي، بدءاً من الحارس على الباب. وجاء بعض الموظفين وسلّموا عليَّ وقالوا إنهم يقرأون ما أكتب.

أعطاني القنصل الفيزا دون إبطاء وأخبرني أن السفير يُحبُّ أن يستقبلني في مكتبه. وجدت ثمة هذا الرجل السَّمح الذي أسعدني حديثه، وسرّى عني دفء ترحابه. ثم ها هو ذا الآن في دار الشيخ عبد العزيز، يقول لي إمعاناً منه في اللطف «إنها فرصة طيبة أن نلتقي للمرة الثانية في اليوم نفسه».

أسعد اللبنانيين الحضور، وكانوا نفراً منهم حسن صبرا صاحب مجلة «الشراع»، أن الشيخ طلب مني أن أقرأ لهم رسالة المؤرخ اللبناني أمين الريحاني الذي بعث بها إلى الملك عبد العزيز آل سعود عام كذا وعشرين. هكذا أنت دائماً في مجلس هذا الإنسان الفذ، الثاقب النظر، العميق الإدراك، لمدّ التاريخ وجزْره. ما يفتأ يقول للناس إنه لا يعرف شيئاً ولم يتعلّم في مدرسة، والناس لا يخفى عليهم أنه يطوي أهابه على علم غزير وحكمة بعيدة الغور.

قال أمين الريحاني في رسالته إلى الملك عبد العزيز، أنه أول قائد عربي منذ عمر بن الخطاب يوحّد جزيرة العرب. قلت للشيخ ضاحكاً «هذه دعوى عريضه. إذاً أين يذهب عبد الملك بن مروان؟

وأين يذهب هارون الرشيد؟» فأجابني الشيخ بجاذبيته المعهودة «ما عليك يا طيب صالح. اسكت واقرأ».

لكن لا جدال في أن الملك عبد العزيز كان من هؤلاء الزعماء الأبطال، ذوي الهمم العالية الذين أمسكوا بأعنّة التاريخ، كما يمسك الملّاح الماهر بأعنّة الرياح في عرض البحر.

أنشد الدكتور أحمد التويجري من شعره الجميل. هذا شاب نابه يعمل أستاذاً في الجامعة. يتغنى في شعره ببطولات العرب وأمجاد المسلمين، ويتحسر على ما آل إليه أمرهم. ذكّرني بالشاعر الفلسطيني الذي أنشد في الأمسية الشعرية في المهرجان قصيدة مريرة غاضبة. قال لي بعض الحضور «ما هذا الشاعر؟ يجيء ليسب الناس ويلعنهم؟» قلت له «ماذا تطلب من شاعر فلسطيني؟ يقول للناس بارك الله فيكم وأحسنتم أنكم فرّطتم في فلسطين؟»

في تلك الليلة أيضاً أنشد الشاعر الكبير فاروق شوشة من ديوانه الأخير «هِئْتُ لك» حيث بلغت شاعريته قمة نضجها. صوته الجميل له مذاق فاكهة الرمان، يمسك بتلابيب السامعين، مثل ساحر، يعلو بهم ويهبط، ويحركهم ذات اليمين وذات الشمال. ديوانه هذا كنز من الأشجان الفادحة، يقول في إحدى قصائده:

قيل: انصرفوا،
قلنا: لن نبرح هذي الساحةَ،
حتّى يندحر الإفكُ،
وحتّى ينبلج الفجرُ،
وحتّى ينتصب الشعرُ،
ويعتدل الميزان.

أن يعتدل الميزان! يا له من حلُم عسير. ولكن لا بُد. في تلك الأمسية الجميلة في دار الشيخ، أنشد أحمد التويجري أيضاً، أبياتاً يداعبني فيها، يذكر مجلساً لنا، الله أعلم، منذ سبع سنوات. هو وأنا وآخرون. كنا في مؤتمر في أبو ظبي. جلسنا ذات مساء في صالة الهوتيل نتناشد الأشعار. وكانت في المجلس سيدة لبنانية، زادها جمالاً أنها تحبُّ الشعر وتطرب له. وقد زعم الشاعر في القصيدة، أن جمال تلك السيدة، فعل بي كما جرى لأبي الخطّاب، فطربتُ «وكنت قد أقصرت حيناً».

بلى، ومثلي يصبو إذا تنسّم الريح، من أعالي بعلبك! هذا، وقد سألت الدكتور محمد أبو ليلة، الأستاذ في جامعة الأزهر إن كان يعرف تأويل الأحلام. قال «نعم، فأنا متخصص في تأويل الأحلام». قصصت عليه من رؤياي الجزء المتعلق بضريح المصطفى صلى الله عليه وسلم. فقال:

«الشجرة هي الشجرة المباركة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء. لعلك تنهض بأمر عظيم. لعلّة يُفتح لك فتكتب كلاماً مبيناً لم يُكتب من قبل».

سبحان الله! أنا؟ أنا الضعيف المسكين المُثقل بالأغلال؟

حسبي على أي حال، أنني نفرٌ هضيم في وفود المحبين، الواقفين بباب سيّد المرسلين، ينتظرون الإذن للمثول.

٣

احتفت مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، في مؤتمرها هذا العام، بالشاعر الخالد أبي القاسم الشابي. نظمت ندوات لدراسة شعره، حشدت لها عدداً كبيراً من الأكاديميين والأدباء والشعراء. كذلك أعادت طباعة دواوينه في صورة جذابة.

هذا الإنسان الخير، عبد العزيز البابطين، رجل أعمال كويتي معروف. وهو أيضاً شاعر. وحين يجتمع المال، مع الحساسية الشعرية، وحب الثقافة والاحتفاء بها، فإن ذلك يكون من حسن التوفيق.

اختار هذا الرجل الكريم، أن ينفق جزءاً من ثروته في خدمة الشعر، فأخذ منذ سنوات يمنح جوائز للشعراء الأحياء، ويحتفي بتراث الراحلين منهم. ومنذ عامين، أعادت مؤسسته طباعة دواوين الشاعر

الرائد المرحوم محمود سامي البارودي. كذلك تضطلع مؤسسة البابطين بعمل جليل حقاً، وهو إعداد ونشر معجم للشعر العربي بأكمله.

افتُتح المؤتمر باحتفال كبير في قاعة (نزل جنّات فاس) في مدينة فاس العريقة. ذلك أيضاً كان اختياراً موفقاً، لأن مدينة فاس ظلت طوال القرون معقلاً من معاقل العروبة والإسلام، وجامعتها العتيدة، جامعة القرويين، لم يخبُ ضوءها في أحلك الظروف.

جرى الاحتفال تحت رعاية الملك الحسن الثاني ملك المغرب، وبحضور ولي العهد وكذلك الأستاذ عبد الهادي بوطالب مستشار الملك. وبعد الكلمات الافتتاحية، قدم وليّ العهد جائزة الشعر لهذا العام للشاعر المصري أحمد غراب، وقدّم جائزة تقديرية للشاعرة الفلسطينية المرموقة فدوى طوقان. في مساء اليوم التالي ألقت قصيدة من شعرها بصوتها الدافىء العذب، الذي لم يؤثر عليه مرور الأيام، ولا طول معاناة الشاعرة في نابلس الصامدة.

بعد ذلك عكف المؤتمر على امتداد يومين متتاليين على تقديم بحوث عن شاعرية أبي القاسم الشابي.

كانت ندوات رحبة خصبة، ولم يكن الجدل الذي يثور عقب كل بحث، أقل أهمية من البحث نفسه. لا عجب، إذ إن القاعة غصّت بعلماء وشعراء وكتّاب ونقّاد، كل منهم يشار إليه بالبنان.

اتضحت لي منذ اليوم الأول، عدة تيارات متباينة في اتجاهات النقد العربي المعاصر، وخاصة النقد الأكاديمي. تيار متأثر بالمذاهب

الفرنسية الحديثة، مثل البنيوية والتفكيكية والسيميائية وغيرها. وكان ذلك غالباً على الأكاديميين من بلاد المغرب أمثال الدكتور محمد مفتاح أستاذ اللغة العربية في جامعة محمد الخامس بالرباط، والدكتور عبد السلام المسدي من الجامعة التونسية. ولكن كان منهم أيضاً بعض المشارقة أمثال الدكتور سعيد السريحي من جامعة أم القرى، والدكتور صلاح فضل من جامعة عين شمس.

التيار الثاني متأثر بالفكر الأنجلوسكسوني، وقد عددت من أتباعه، الدكتور عبد القادر القط من جامعة القاهرة، والدكتور نديم نعيمة من الجامعة الأمريكية ببيروت، والدكتور محسن الموسوي الذي يدرّس الآن في جامعة صنعاء.

والتيار الثالث، يمكن أن يوصف بأنه يرمي إلى أن يكون (Indigenous)، متأصلاً في الموروث العربي الضخم ونابعاً منه، ومشرئباً إلى آفاق أرحب، ولا بد من القول، أن أنصار هذا التيار ليسوا غافلين عن التيارات الأخرى، ومنهم من درس في جامعات أوروبية، مثل الدكتور منصور الحازمي الذي أخذ الدكتوراه من جامعة لندن. ومن أنصار هذا التيار أيضاً، العالم المرموق الدكتور ماهر حسن فهمي الذي ظلَّ يذكّر الناس طوال فترة المؤتمر، أن ما يحسبونه جديداً، موجود في التراث العربي، في شعر المتنبي وأبي العلاء المعري وأبي نواس وغيرهم.

كذلك أنوّه، أن هذه المذاهب والتيارات لم تكن تحدها حدود قاطعة، كما في بعض المذاهب السياسية، بل كانت تلتقي وتفترق، وتتقاطع وتلتئم. وأذكر بهذا الصدد، أن بحث الدكتور نديم نعيمة، وهو متخرج من جامعة أوكسفورد، كان في رأيي، من أكثر البحوث

وضوحاً، وقد فرّق بين القصيدة العربية، والقصيدة المكتوبة باللغة العربية، وما هي بعربية في روحها، ودعا إلى أن يكون التجديد سياق المزاج العربي بنظرته المميزة للكون. وكان العالِم الكبير الدكتور عز الدين إسماعيل، أمْيَلَ إلى هذه النظرة، فيما بدا لي.

حمدت الله أنني لم أقدم بحثاً، وما كان ينبغي لي في ذلك الحشد الحاشد من الأكاديميين. كنت جندياً في كتيبة غير ملتزمة، فيها الدكتور محيي الدين صبحي والدكتور محيي الدين اللاذقاني، والدكتور خلدون الشمعة ـ وهؤلاء ثلاثتهم من سورية ـ والمفكر المصري المرموق الأستاذ أحمد عباس صالح. وكنا في أغلب الأحيان نجد الدعم من منصور الحازمي وماهر حسن فهمي.

كنا نحاول أن ننفذ خلال الضباب اللفظي الكثيف أحياناً، إلى مقاصد بعض إخواننا من (الحداثويين). نحاول أن نعيدهم من التخوم الغربية، التي أغراهم سرابها، إلى أودية الخيال العربي، وهي مترامية تتجاوب أصداؤها.

والحق أن بعض إخواننا ساروا بنا في دروب غاية في الغرابة. وقد أحصيت من عباراتهم مثل قول أحدهم (الظاهراتية)، وما أظن أنه ترجم Phenomonology من Phenomena، أي ظاهرة، وقول أحدهم (الثوابت الأنثروبولوجية الهرمسية الابستمولوجية)، وهذا كما يقال في السودان (كلام الطير في الباقير). وقول أحدهم (نصاً موضوعاً أي أنه نص من حيث الموضوع). وقال أحدهم (نتخذ من النص شاهداً على النص الموضوع شاهداً). وقال آخر (مرآوية التناص) ـ كذلك (النص المشروع والنص الإنجاز) ـ وأيضاً (التناظر الداخلي كآلية للمكاشفة. أي مكاشفة النصّ بالنص).

هذا وقد تحدث بعض هؤلاء العلماء الأجلّاء ـ وهم أجلاء لا شك ـ عن القصيدة الحديثة. لم يقصدوا بالحداثة شعر بلند الحيدري والسيّاب والبيّاتي وحجازي وعبد الصبور والفيتوري والقصيبي ونزار قباني ومحمود درويش وأمثالهم. يا ليت، فتلك حداثة نفهمها ونستسيغها. ولم يقصدوا شعر أدونيس. يا ليت، فهو على الرأس والعين، يحب الشعر العربي ويحفظه ويرويه، وينطلق منه إلى عالمه الجديد.

يعنون حداثة بعد الحداثة، وفسَّر أحدهم أن القصيدة بهذا المعنى، كسّرت قواعد النحو والصرف، ونبذت الأخيلة القديمة واللغة القديمة. هدّمت كل شيء وأخذت تبني شيئاً جديداً كلية. وقال «القصيدة الحديثة هي بذاتها وفي حدّ ذاتها».

وقال آخر «لا بد من إعادة تأهيل المتلقّي».

هذه العبارة حرّكت روح الفكاهة لدى منصور الحازمي، فقال بأسلوبه الحلو المرير: «إقامة معسكرات لإعادة تأهيل المتلقي كي يستطيع أن يتذوق القصيدة الحديثة، سوف تكلّف الحكومات العربية أموالاً طائلة يمكن الاستفادة منها في مشاريع التنمية».

وبعد، ما علاقة أبي القاسم الشابي بكل هذا البحث والتمحيص رغم أنه خصب وطريف؟

كان طفلاً سماوياً. نظر إلى الحياة بدهشة فرأى كوناً بكراً كأنه ولد لساعته، فصاغ تلك الدهشة وتلك البكارة في أغانٍ ألهبت خيال أجيال من الناس من المحيط إلى الخليج. كان صوتاً من تلك

الأصوات العبقرية، التي يجود بها الزمان على الأمة العربية ، بين حين وآخر. تسمعه فتعلم أنها أمة واحدة، وأنها أمة حيّة.

■ ■ ■

أخذ بعض الأكاديميين والنقاد يقولون في الآونة الأخيرة أن الرواية أصبحت هي ديوان العرب في هذا العصر، أي أنها حلّت محل الشعر.

لا ينكر أن الرواية العربية، أصبحت في زمن قصير نسبياً، فرعاً كبيراً من فروع الأدب. قدمت تجارب إنسانية بالغة الاتساع والتنوع بأساليب وتقنيات ليست في متناول الشعر، وطرقت مواضيع تنفر منها طبيعة الشعر.

كل ذلك حق. أما أنها حلّت محل الشعر، وصارت (ديوان العرب)، فذلك في ظني أبعد ما يكون عن الحقيقة.

سوف يظل الشعر هو الوسيلة الأولى عند العرب، للتعبير عن روحهم وتصورهم للكون. وذلك التعبير الذي يتمثل في إبداع شعري قل نظيره في تراث الإنسانية، هو الذي يعلن بصدق عن عبقريتهم، ويعطيهم سمتهم المميز بين الأمم.

يقول الشاعر الإنجليزي الأمريكي المرموق (تي. اس. أليوت T.S.Eliot)، وهو ناقد كبير أيضاً:

«إنني أعتقد أن من الضروري لكل أمة أن يكون لها شعرها الخاص

بها، ليس فقط لمتعة محبي الشعر، ولكن لأن الشعر يؤثر على المجتمع ككل، حتى على الذين لا يتذوقون الشعر، بل والذين لا يعرفون حتى أسماء شعرائهم».

ويمضي فيقول:
«أول ما أحست الشعوب بالحاجة لتعبر عن نفسها تعبيراً أدبياً، فعلت ذلك بواسطة الشعر. لا نجد غرابة في ذلك، حين نذكر أن الشعر يهتم في المقام الأول بالتعبير عن الإحساس والعاطفة، وهما أمران يختلفان من شعب إلى آخر. الفكر شيء عام ومشترك.

سهل على المرء أن يفكر بلغة غير لغته، ولكن صعب عليه أن يحس إلّا بلغته. لذلك لا يوجد فرع من فروع الفن أكثر خصوصية من الشعر. تستطيع أن تسلب أمة ما لغتها، وتفرض عليها لغة أجنبية. لكنك ما لم تنجح في أن تجعل تلك الأمة (تحس) باللغة الأجنبية المفروضة عليها، فإنك لا تكون قد نجحت في اقتلاع اللغة الأصلية. سوف تظهر اللغة الأصلية في الشعر (...) مستحيل القضاء على لغة متقدمة حية، إلّا بإبادة الشعب الذي يتحدث بها».

عبّر (تي. أس. أليوت) عن هذا الرأي أول مرة، عام ١٩٤٣. وقد أثبتت الأيام صدق قوله. وحين يقول (اللغة) فهو إنما يعني (الشعر) في المقام الأول، ذلك لأن الشعر حسب وصفه، هو الذي يعطي الأمة سمتها الذي يميزها عن بقية الأمم.

بهذا المعنى نرى أن الطموح لابتداع شعر عربي جديد تماماً، منقطع عن التراث العربي، يكون (قائماً بذاته وفي حد ذاته)، كما يروّج بعض دعاته ـ أقول، إن ذلك طموح عسير، بل طموح مستحيل.

أغلب الناس يرون ـ وهم ليسوا رجعيين بالضرورة ـ أن ينطلق الجديد من تراث الأمة، وخلاصة وجدانها، ونظرتها المميزة للحياة والكون.

عبّر عن ذلك أحسن تعبير، الدكتور نديم نعيمة الأستاذ في الجامعة الأمريكية ببيروت، في بحثه العميق الذي قدمه في ندوة جائزة البابطين في فاس، حين قال:

«الشاعر هو ابن تراثه من غير شك، وفي هذا تكمن هويته، إلّا أنه بحكم هويته تلك، لم يعد فرداً، لم يعد طائراً مغرداً كما يحلو له التغريد، بل أضحى في حقيقة أمره تراث لغة وشعب بأكمله على مرّ العصور، وقد تجمّع وانصهر في ذات راهنة وحية وراثياً، فكأنه بكلام آخر، النقطة المعاصرة في الهرم الذي بلغه التراث عضوياً خلال التاريخ والزمن، من القاعدة البدئية حتى القمة (...). ذلك أن كل معاصرة شعرية لا تنبثق عضوياً من التراث، فهي معاصرة بلا هوية، وبالتالي أقل ما للنقد أن يقوله فيها، هو أنها زائفة...».

هذا الكلام، لا ريب، لن يطرب ناقداً سيميولوجياً مثل (رولان بارت)، وهو أحد كهنة الحداثة. سوف يدمغه بأنه محض (توتولوجي) ـ أياً كان معنى ذلك. والطريف أنه في دفاعه عن استعمال كلمة (سيميولوجي) التي كانت في الأصل تعبيراً طبياً، واستعارها (سوسور) ـ وهو كاهن آخر، إلى اللسانيات يقول:

«اقتراح بعضهم استعمال كلمة (Semiotics) للسانيات، للتفرقة بينها وبين (سيميولوجي) التي تستعمل في الطب، أعتقد أن ذلك الحرص لا مبرر له، لأن كلمة (سيميولوجي) دخلت معجم

المصطلحات (ما بعد اللسانية!)، وأصبح لها جذور في مفرداتنا العقلية. وإنه لأمر خطر، بل أمر لا جدوى منه، أن تغير استعمال الكلمات، بعد أن تكون قد دخلت اللغة وضربت بجذورها فيها».

إذاً حتى الكلمات، تكون لها جذور، فما بالك بتراث الأمم؟

بلى، إنني أجد في حديث الدكتور نديم نعيمة ـ رغم اختلافي معه في بعض الجزئيات ـ كثيراً من الصواب. وفي هذا المعنى، أو قريباً منه، يقول (تي. أس. أليوت):

«يجوز لنا أن نقول، أن التزام الشاعر في المقام الأول، أكبر من التزامه لأمته. إنه التزامه تجاه لغة أمته. للحفاظ عليها أولاً، وتوسيعها وإثرائها، ثانياً. إنه حين يعبّر عما يحسّ به غيره من الناس، فهو في الوقت ذاته يخلق إحساساً جديداً لا يستعصي على الإدراك (...). لكنه ليس محض إنسان أكثر حساسية من الآخرين. إنه كذلك إنسان آخر، متفرد، مختلف عن بقية الناس، ومختلف عن بقية الشعراء.

هذا هو الفارق بين الشاعر الشاذ أو المجنون، وبين الشاعر الحق. الأول يعبر عن أحاسيس تخصه وحده، ولا يمكن لأي أحد أن يشاركه فيها. لذلك فهي أحاسيس لا قيمة لها في سياق الشعر. أما الثاني فهو يكتشف ألواناً وأنماطاً جديدة من الأحاسيس، ورغم ذلك يستطيع آخرون أن يشاركوه فيها. وهو في الوقت نفسه يطور لغة قومه ويضيف إليها».

في البحث القيم الذي قدمه الدكتور نديم نعيمة في ندوة جائزة عبد العزيز البابطين للإبداع الشعري، يقول في تفسير بيت عنترة:

وحسامٍ إذا ضربتُ به الدهر
تخلّتْ عنه القرونُ الخوالي

يقول: «لا يكتفي الناقد بالعيني في هذا البيت، فهو عيني بفارسه وحسامه الضارب، وبقرون دهره الخالية والمتخلية،، وجاهلي معنى ومبنى، كما هو في مفرداته وتركيبه وصوره وأشيائه. وجوّه العام أليف بالنسبة إلى الأذن الجاهلية وذوق عربها وطبيعة حياتهم وتصنيفهم لشعرهم بين فخر وهجاء ومديح ووصف وغزل وغير ذلك من الأغراض. أما الذي ليس عينياً ولا جاهلياً فيه، والذي هو محك الناقد وبصيرته ونفاذها، فتلك الرؤيا الخالقة التي ترتفع بالبيت بمعناه وبمبناه من محليته وتاريخيته وجاهليته، لتجعل منه رمزاً لحقيقة بدئية مطلقة. فالدهر الجاهلي، بموجب تلك الرؤية، لم يعد دهراً جاهلياً. لم يعد زمناً أو تاريخاً يُضرب ويُقتطع بسيف. ولا عاد السيف سيفاً، بل تحول الدهر إلى ذلك الحيوان أو الوحش أو الدجال البدئي القائم أبداً في جبلة الوجود منذ كان الوجود. إنه التنين الذي أبداً يبتلع (المدينة)، تنين الموت يبتلع الحياة، والباطل يقضي على الحق، والعدم يستبيح البقاء، وذلة الهرم تنيخ فروسية الشباب، وقبر الماضي الفاغر أبداً لابتلاع جثة الحاضر (...) وهكذا يستحيل الفارس البطل المتقمص ذلك التوق البدئي جرجيساً أو خضراً يضرب بسيفه التنين أو يهوي عليه برمحه فيلقي الماضي وقرونه الخوالي ويصنع الحاضر ويقهر الموت ويخلص (المدينة)».

بلى، إنني أقبل كل هذا، فبيت عنترة يحتمل كل هذا. بل هكذا

يجب أن ننظر إلى تراثنا العظيم ـ نحمّله من هموم حاضرنا وأحلامنا وآمالنا وخيباتنا، أقصى ما يمكن أن يحتمل، بل فوق ما يحتمل.

حين ننظر بهذه السعة في التخيّل والإدراك، إلى بيتي النابغة الذبياني مثلاً:

كـلـيني لـهـم يـا أمـيـمـة نـاصـب
ولـيـل أقـاسـيـه بـطـيء الـكـواكـب
تـطـاول حـتـى قـلـت لـيـس بمـنـجـلٍ
ولـيـس الـذي يـرعـى الـنـجـوم بـآيـب

نحس أن الهمّ والليل والمقاساة أسرار عظيمة، أكبر بكثير مما أحس به الشاعر في تلك اللحظة، استودعها الشاعر ضمير الكون، فدارت مع الأفلاك حتى تناهت إلينا في هذا العصر.

أي (بلوى) أحسها أبو نواس حين قال:

أديـرا عـلـيَّ الـكـأس تـنـكـشـف الـبـلْـوى
وتـلـتـذّ روحـي طـيـب رائـحـة الـدنـيـا

وحين نقرأ أبيات قيس:

كـأن فـؤادي فـي مـخـالـب طـائـر
إذا ذكـرت لـيـلـى تـشـد بـه قـبـضـا
كـأنَّ فـجـاج الأرض حـلـقـة خـاتـم
عـلـيَّ فـمـا تـزداد طـولاً ولا عـرضـا

ألا نستحضر بيتيْ النابغة والحسن ابن هانيء وأبعد؟ كأن الأبيات جميعاً ألحان في سمفونية واحدة تتلو نشيداً مأساوياً للحياة والوجود؟

الشعر العربي شعر عظيم حقاً يجب على الناقد أن يطلق لخياله العنان، حين يقرؤه إلى أقصى حد ممكن، وليفعل كما فعل أبو الطيب:

شـقـقـت بـه الـظـلـمـاء أُدنـي عـنـانـه
فـيـطـغـى وأرخـيـه مـراراً فـيـلـعـب

وما العنان إلّا عنان الشعر

هذا ما رمى إليه الدكتور نديم نعيمة حين قال:

«جلاء الرؤيا في الشعر يبقى أبداً من عمل الناقد الذي لا ينظر إلى الشاعر فقط كمجرد فرد ينظم شعراً في عصر من العصور، وبموجب أنماط النظم وقواعده ومراميه المألوفة في ذلك العصر، بل كراءٍ كوني، تتخذ الرؤيا الكونية البدئية على يديه وعلى قدر صفاء الرؤية عنده، أجساداً شعرية ترتدي حلة العصر، وتنطق بلغته ولسانه. من هنا كان الشاعر الحقيقي بفضل رؤياه الكونية أبداً معاصراً، أياً كان التاريخ الذي كانت فيه ولادته».

كي يستيقظ التراث من سباته، ويصبح طاقة متجددة تؤثر في الحاضر، لا بد من وجود شعراء لا يكفّون عن قول الشعر. وفي هذا المعنى يقول (تي. أس. إليوت):

«إذا توقفت أمة ما عن إنتاج الأدب وخاصة الشعر، فإن ثقافتها سوف تتدهور بلا ريب، ولغتها سوف تتحجر، وربما تطغى عليها لغة أخرى أقوى منها (...) الأمة التي ليس لديها أدب معاصر حي متجدد، سوف تكون غريبة على أدبها الموروث. ما لم تصل حاضرها بماضيها، فسوف تبتعد عن أدبها القديم حتى يصير كأنه أدب أمة أخرى (...).

ما لم تنجب الأمة هؤلاء الأشخاص المتميزين الذين يملكون تلك الموهبة الخارقة على ابتداع الكلمات، فإن قدرتها ليس فقط على التعبير، ولكن قدرتها على الإحساس ـ إلّا الأحاسيس المبتذلة ـ سوف تضعف. الأدباء الأموات يحيون من جديد، لأنه يوجد أدباء جدد».

نعم، كذلك يحيا بيننا اليوم أبو الطيب المتنبي كأنه شاعر من عصرنا. وهو نفسه خبرنا بذلك في مثل قوله:

ولكنه طال الطريق ولم أزل
أفتّش عن هذا الكلام ويُنهبُ
فشرَّق حتى ليس للشرق مشرق
وغرَّب حتّى ليس للغرب مغرب
إذا قلته لم يمتنع من وصوله
جدار معلَّى أو خباء مُطنّبُ

٤

من الأشياء الجذّابة في الثقافة الفرنسية، أنها مولعةٌ باللعب الفكري ـ بشرط أن ندرك أنه لعب ولا نأخذه مأخذ الجدّ.

إنها ثقافة تكونت من أصول متعددة، ككل الثقافات الكبيرة، ولكن التباين في هذه الأصول، والتناقض، أكثر وضوحاً في الثقافة الفرنسية.

وربما يصح القول، إن فرنسا من بين سائر أقطار أوروبا، هي وريثة الحضارة الهّلينية، بأساطيرها وتجلياتها الفلسفية. وهي وريثة الحضارة الرومانية، بإبداعاتها الإدارية، وعبقريتها القانونية.

والكنيسة الكاثوليكية في فرنسا، بحسب تاريخها، وكثرة أتباعها، لعلّها تضاهي روما في أنها معقل من أكبر معاقل التراث المسيحي.

ثم هي دولة ملكية، أكثر تاريخها كان في ظل الملوك، ولكنها صنعت أهم ثورة سياسية في العصور الحديثة. إلّا أنها لم تتخلّ عن تراثها الملكي، فصارت جمهورية كأنها ملكيّة.

وفرنسا دولة قدماها في الجنوب في عالم البحر المتوسط المضيء، ورأسها في الشمال في العالم الجرماني الداكن.

وقد هضمت فرنسا نظريات (هيجل) و(ماركس)، ولكنها لم تطبقها عملياً، فلم تحدُث ثورة ماركسية في فرنسا، رغم أن فيها حزباً شيوعياً قوياً، وتياراً يسارياً واسعاً.

وكل ذلك يقوم على أسس مادية صلبة، ودولة راسخة الجذور.

لذلك ابتدع الفكر الفرنسي مرونة هائلة للتوفيق بين هذه المتناقضات، وقدرة ليس لها نظير، على اللعب بالأفكار، دون التأثير على الأسس المتينة، التي يقوم عليها المجتمع.

وأوضح ما تجد هذا اللّعب، عند العالم السيميولوجي (رولان بارت)، أحد أحبار الحداثة. اتّسع نفوذه حتى وصل إلى عدد من الأكاديميين العرب، والنّقاد والمبدعين، الذين وجدوا في فكره وأسلوبه، إغراء لم يستطيعوا مقاومته.

لأجل ذلك، أحببت أن أعطي القارئ ـ الذي لعله لم يتعرّف إلى (رولان بارت) ـ نماذج من كتابته. ولا أشك أنه سوف يجد فيها ما يدعو إلى الدهشة والغيظ، ومن يدري، ربما المتعة أيضاً.

فيما يلي، فقرات من كتابه «لذة النّص»، الذي صدر عام ١٩٧٣:

«يُعرض عليَّ نصٌّ ما. إنه يملؤني بالملل. تستطيع أن تقول إنه يثرثر. ثرثرة النص هي رغوة اللغة التي تتكوّن من محض الحاجة إلى الكتابة. نحن هنا لا نتحدث عن الشذوذ ولكن عن الرغبة.

«كاتب هذا النص يستعمل لغة لم تُفْطَم عن الرّضاع. لغة ملحاحة، جافة خالية من العطف. كارثة صغيرة من الجمود.. فيها شهوة الرّضاع الذي لا يرتوي.. شفاهة لا حدود لها... إنك تخاطبني كي أقرأك. لكنني لا أعني لك شيئاً أكثر من هذا الخطاب.. أنا في نظرك البديل عن لا شيء. أنا، عندك، لستُ جسداً، ولا حتى جماداً.. يمكن القول أنك كتبت هذا النص بلا شهوة.. هذا نص فاقد الشهوة، لأن كل رغبة هي رغبة ميّتة حتى تشتعل فيها الشهوة».

* * *

«النص الذي تكتبه يجب أن يقنعني أنه يشتهيني. الدليل على ذلك موجود. إنه الكتابة. الكتابة هي فنُّ مزج شهوات اللغة. (كاماسُتْرا اللغة)».

* * *

«ها هنا وسيلة نقيّم بها أعمال حداثتنا. قيمتها تكمن في مراوغتها. يجب أن يُفهم من هذا أن لها دائماً حدّين. الحد المخرّب قد يبدو محظوظاً لأنه الحد الذي يأتي منه العنف إنما ليس العنف هو الذي يؤثر على اللذة. ولا التدمير هو الذي يقطع اللذة. الذي تشتهيه اللذة هو موطن الفقد. الموضع الممزّق، المقطوع، المنكمش، المرخيّ

الذي يقبض على الفحوى في منتصف النشوة. هكذا تتكرّر الثقافة بوصفها حداً. ليس في أي شكل من أشكال المادة».

* * *

«النص لا يصبح مكوَّناً من جُمَل. إنه في الغالب انفجار عنيف للكلمات. من لغة فوق اللغة.. تقويض أسس اللغة، يتقاطع مع تأكيدات سياسية. له حدٌّ سكين من الثقافة القديمة، ثقافة المغزى».

* * *

«أليس أكثر مواضع الجسد إغراءً هو موضع انحسار الثوب؟ في غير المألوف، الذي هو مجال لذة النص، لا توجد مواضع مثيرة للشهوة.. الذي يغري هو اللمحات الخاطفة للجلد بين ثنايا الثوب.. بين حدّين. هذا الإيماض هو الذي يغري. أو بالأحرى تقديم مشهد، هو في الوقت نفسه لا مشهد».

* *

«الذي يجلب لي المتعة في النص، ليس محتواه، ولا حتى بناؤه، ولكن الجروح التي أُوقعها بسطحه الأملس».

* * *

«حين أقول إنني مستعد أن أحكم على النص بقدر ما يعطيني من لذة، فهذا لا يعني أنني سوف أقول (هذا نص جيد) أو (هذا نص رديء). لا أعطي جوائز. لا أنقد. النص ينتزع مني حكماً بلا وصف. أقول (هذا هو). أو أقول (هذا هو عندي). حين أقول (عندي) لا أقول ذلك بصفة شخصية أو وجودية، بل بصفة نيتْشاويّة».

* * *

«الموضوع الذي يُمسك النصّين في مجاله، ويقبض على أعنّة اللذة والنشوة هو موضوع شاذ. إنه متناقض، يعشق اللذة الموجودة في الثقافة بأسرها، وفي الوقت ذاته يعمل على هدْم الثقافة. إنه راضٍ عن انسجام ذاته، التي هي لذّتُه، وفي الوقت نفسه يطلب تدمير ذلك الانسجام. تلك هي نشوته. إنه منشق على ذاته مرتين، وشاذ مرتين».

* * *

«لذّة النص تكون حين يلاحق جسدي أفكاره الخاصة، لأن أفكار جسدي ليست هي أفكاري».

* *

«النصُ سِحْر، وهو يريد إغوائي. النص ينْصب حباله لي بوسائل عدة. وسائل من الحجُب الغامضة والمفاجآت المحيّرة.. وفي قلب النص ـ ليس وراءه ـ دائماً يوجد الآخر. الكاتب ـ الكاتب مات كمؤسسة. مركزه الاجتماعي اختفى. ترجمة حياته زالت. أصبح عاجزاً عن ادعاء الأبوة لعمله.. لكنني في النص، بطريقة ما، أشتهي المؤلف. أحتاج إلى صورته، وهي ليست تجسيداً له، أو امتداداً منه».

* * *

«النصُّ، وهو مكوّن من لغة، كيف يكون خارج اللغة؟ كيف تستغني عن لغات العالم، دون أن تلجأ إلى لغة قصوى تختزل اللغات خبراً وحساًَ؟ أول ما أُسمِّي، أصبح أنا أيضاً مُسَمَّىً. أتورّط بين تضارب الأسماء..

«أولاً، يمحو النص اللغة كلها التي فوق اللغة. لا يوجد وراء ما

يقوله النص صوت. ثانياً، النص يقضي كلية إلى حد التناقض، على المقومات التي تجعله نصاً. يقضي على مرجعيته اللغوية السوسيولوجية. يقضي على تصنيفه. إنه الضحك الذي لا يضحكنا، والسخرية التي لا تجرحنا. إنه الفرح الذي لا روح فيه، ولا حيْرة.. هذه الحالة العجيبة، تصير حينئذٍ هي اللغة، وليس أية لغة».

* * *

هذا، وأود أن أنوّه، أنني ترجمت هذه الفقرات عن ترجمة إنجليزية دقيقة، بطريقة تكاد تكون حرفية، حتى لا يتّهمني حواريّو هذا العلاّمة الحبر، أنني أتحامل على أستاذهم. ولا بد أنه كان حبراً، فقد كان حتى وفاته، أستاذاً في المعهد العتيد (الكوليج دي فرانس).

ماذا يريد أن يقول؟ وماذا تصنع مع كاتب لا يطلب منك أن تفهمه، فهو يخبرك أنه ضد (ثقافة المغزى)؟

لعل الأمر لا يعدو أن يكون لعباً في لعب، أو كما وصف (ضحكاً لا يُضحك، وسخرية لا تجرح، وفرحاً لا روح فيه ولا حيرة).

٥

هذا العام، ثبتت الجنادرية في المكان، كما ثبتت من قبل في الزمان، في السنوات العشر الماضية، كان الافتتاح يجري في فضاء رحب. توجد منصة يشهد منها المدعوون سباق الهجن وعروض الفرق الشعبية التي تمثل تنوع الحياة في هذا القطر الشاسع.

لعل ذلك الأفق المفتوح كان أشبه بأسواق الشعر والأدب في جزيرة العرب في سالف الأيام، كما كان في عكاظ والمربد. لكن الطبيعة في هذا الفصل، لم تكن تتفق دائماً مع رغبات منظمي المهرجان، فتعصف الريح، ويهطل المطر، فلا يكاد المرء يسمع خُطب الخطباء، وشعر الشعراء، وغناء المغنّين.

لذلك، كان من حسن التوفيق، أننا وجدنا هذا العام، أنهم شادوا بناء حديثاً واسعاً، فيه شيء من طابع المسرح، ويوحي أيضاً بجو

الـ Forum ـ السوق الروماني القديم. وقد كانت أسواق الرومان وكذلك العرب، أشبه بالمسارح.

يوجد مدرج في الوسط لرجال الدولة والمدعوين، وعلى يمينه ويساره، مدرّجان للجمهور. وفي الوسط تحت أنظار الجمهور، باحة مستديرة، Arena ـ كما كان الرومان يسمونها. ووراء هذه الباحة شيّد بناء على هيئة قلعة، نُصبت أعلاها شاشة عريضة. الشاشة والقلعة، سوف تؤديان دوراً مهماً في العرض المسرحي، الذي قُدّم فيما بعد.

تمّت مراسم الاحتفال في حضور الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولي العهد، بالإنابة عن الملك فهد خادم الحرمين الشريفين. حين دخلنا، كان المطر يهطل بغزارة، وظل كذلك طيلة يومين متتاليين، وفاحت أرض نجد بذلك المطر العجيب، الذي تتنفسه الأرض مع هطول المطر.

خطب الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري النائب المساعد للحرس الوطني ببلاغته التي عُرفت عنه، فأشاد بدور الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله في توحيد جزيرة العرب، ولمّ شمل قبائلها، وتأسيس دولة قوية. وقد أهاب بالعرب أجمعين نبذ الخلاف والفرقة، وجمع كلمتهم لمواجهة الأخطار والتحديات في الحاضر والمستقبل. ومما جاء في كلمته قوله:

«خير ما نفتتح به هذه الكلمة الشكر للّه ثم لخادم الحرمين الشريفين ولسموّكم ولي العهد الأمين، على الرعاية الكريمة لهذه المؤسسة التي تهتم بالتراث في عصر منصرف تماماً عن كل ما هو ماض وتراث.

نفعل ذلك ونحن مخلصون للّه ولدينه ثم لأمن هذا البلد واستقراره في ظل قائدنا الأعلى. نعيش في قلب الأحداث يقظين غير غافلين، ألزمنا أنفسنا بذلك إيماناً منا بتراثنا الإنساني، الأصيل، رافضين كل فكر معادٍ لديننا وتراثنا. فمكاننا الوسط من هذا العالم، أرضاً وسماءً وبحاراً، أكرمه الله سبحانه بآخر الرسالات، فأمنت كل الديانات في ظل سماحة هذه الرسالة.. كان ذلك لمّا كنا أمة واحدة، لم تبددها الخلافات ولم تظهر عليها أعراض الإعياء، ويحاول الدخلاء والأشرار الإجهاز عليها في التاريخ..».

في مساء اليوم الثاني، افتتح الأمير فيصل بن فهد بن عبد العزيز، الرئيس العام لرعاية الشباب، ونائب الرئيس الأعلى للمهرجان، الأمير بدر بن عبد العزيز ـ افتتح النشاط الثقافي في قاعة الملك فيصل. كانت كلمته التي ألقاها في تلك المناسبة عميقة الدلالات، بليغة العبارات أكدت وعي الدولة السعودية لدورها الحضاري في محيط الأسرة العربية والعالمية، وأنها عقدت العزم على أن تمضي قدماً في النهوض بهذا الدور. وقد ألقى الأستاذ بلال الحسن كلمته باسم الكُتّاب والمفكّرين والشعراء والمدعويين. وكان واسطة عقدهم بلا شك هذا العام، الشاعر الضخم، محمد مهدي الجواهري.

هذا، وقد شدّ انتباهي منذ البداية قول الأمير فيصل في مطلع خطابه، أن التطوير يكون مع الشهامة، والحضارة تمتزج بالنّخوة. وكلمة (شهامة)، وكلمة (نخوة)، كلمتان نبعتا في عمق وجدان اللغة العربية، ولا يكاد يوجد لهما مرادف في اللغات الأخرى. قال الأمير:

«.. ومنذ ذلك العهد المضيء المشرق، وأبناء عبد العزيز يرحمه الله،

ينطلقون صوب المجد.. عظيماً إثر عظيم.. دون أن تسقط عن كاهل الأمة عباءة الدين، ودون أن ينزلق عن الهامات رداء الخلق العربي الأصيل.. لتمتزج الشهامة بالتطوير.. فتمازجت الحضارة بالنخوة، ودانت أدق تفاصيل التقنية الحديثة للأصالة دون نفور أو قصور».

في الكلمة التي افتتح بها النشاط الثقافي لمهرجان الجنادرية العاشر، قال الأمير فيصل بن فهد، أن التطور في المملكة العربية السعودية يقوم على الشهامة، والحضارة تعتمد على النخوة، وأن الدولة السعودية في مسيرتها لم تخلع عنها رداء الخُلُق العربي الأصيل، وأضاف:

«فهذه الرياض اليوم عاصمة عصرية، ولكنها عربية.. ومدينة عالمية، ولكنها إسلامية. لم تستطع كل موجات التطور أن تحيد بها عن طريق الأصالة، ولم تتمكن كل إبهارات العصر أن تخطف أبصار ساكنيها عن أنوار الحق والهدى، فظلّت وستبقى بحول الله مثل كل شقيقاتها السعوديات، معقلاً لأصالة العرب، وقلعة صامدة تحمي بعون الله مُثُل ومبادىء الإسلام العظيم».

هذه الأفكار، كانت محور خطاب الأمير فيصل اللافت للنظر، أمام

جموع المفكرين والعلماء والكتّاب والشعراء، من السعوديين والمدعوين من خارج المملكة. ولم تَفد الندوات التي جاءت فيما بعد، أنها توسعت في هذه الأفكار التي تضمنها خطاب الأمير، وقلّبتها على وجوه عدة.

كيف تدخُل الشهامة في نسيج التقدُّم؟ وكيف تُبنى الحضارة على النخوة؟ وكيف يأخذ الإنسان العربي والإنسان المسلم بأسباب العلوم والتقنيات المستحدثة في هذا العصر، دون أن يُضيِّع أصالته ومقوّمات ذاتيته؟

واضح أنها مُعضلات كبرى، وخيارات صعبة، وخصوصاً أن تيارات قوية مضادة، تموج حول هذه القيم، لا يهمُّها إن هي قضت عليها.

وليس من المبالغة القول، أن الأمير فيصل أعرب في خطابه، عن فلسفة في الحكم وفي السياسة على ضوء التجربة السعودية، إنْ لم تكن جديدة كل الجدة، فقد اكتسبت معنى الطّرافة والجدّة، من ملابسات الأحوال والظروف، التي تعْتور الإنسان العربي والإنسان المسلم في هذا الزمان.

النخوة والشهامة والأصالة، هذه كلمات لن تجدها في أسفار القانون الدولي والعلوم السياسية، التي تُدرس في جامعات أوروبا وأمريكا، بل في أغلب الظن في الجامعات العربية أيضاً.

منذ أن كتب المؤرخ اليوناني (ثيوسايديدس) في القرن الخامس قبل الميلاد، قصة الحروب الـ (بلوبونيسية)، وظهور أثينا كدولة مسيطرة

على العالم الهليني، ومنذ أن كتب المؤرخ الروماني (تاستس) في القرن الأول بعد الميلاد، تاريخ روما الأمبراطوري، ظل فن السياسة والحكم في أوروبا، يستند إلى مبدأين: القوة الصُّراح، والمصلحة الذاتية المحض.

في صراع البقاء ـ وهو صراع لا يقلُّ شراسة عن صراع النّاب والمخلب ـ يتبع الحاكم في الداخل، الطرق كلها التي تمكنه من الاستمرار مهما كانت ملتوية. وفي علاقات الدولة مع الدول الأخرى، يجوز للدولة أن تستغل الأسلحة كلها، التي تتيح لها الغلبة. لا توجد أخلاق، ولا شهامة، ولا نخوة. وقد عبّر المؤرخ اليوناني (ثيوسايديدس) أوضح تعبير عن ذلك، على لسان الزعيم الأثيني (كليون):

«ليكن واضحاً لأهل (ماتيلينْيا) أنه لا أمل لهم على الإطلاق في أن نغض الطرف عنهم، بحجة أن ارتكاب الخطأ شيء طبيعي في البشر... إذا أحسسنا بالشفقة تجاههم... إذا سحرتنا توسلاتهم... إذا أطلقنا العنان لنوازع الرحمة والعطف... هذه أمور تتعارض تعارضاً كلياً مع المصالح الذاتية لدولة إمبريالية».

الحضارة العربية الإسلامية قامت على قيم مغايرة تماماً ـ حتى وإنْ لم يتمسك بها المسلمون دائماً. ومعلوم أن العرب حتى في الجاهلية كانوا يقدّسون صفات الكرم والشرف ومكارم الأخلاق. تجد ذلك واضحاً في شعر الفحول من شعرائهم، وسلوك سراتهم وأشرافهم، وحسبك قول الشاعر الأزدي:

لا أدفع إبن العمّ يمشي على شفا
وإنْ بلغتني من أذاه الجنادع

ولكن أُواسيه وأَنسى ذنوبَه
لتُرجعَه يوماً إليَّ الرواجعُ

وقد صرّح الفنْد الزمانيُّ الحنفيّ، عن عواطف مغايرة تماماً لعواطف الزعيم الأثيني، في قوله:

صفحنا عن بني ذُهْل
وقلنا القومُ إخوانُ
عسى الأيام أن يُرجعن
قوماً كالذي كانوا
فلما صرّح الشر
فأمسى وهو عُريانُ
ولم يبْقَ سوى العُدوان
دنّاهم كما دانوا

ثم جاء الإسلام الحنيف بحجته البيضاء، وشريعته السمحاء، فكرّس تلك القيم، وارتفع بمكارم الأخلاق إلى أقصى غايات السمو.

بتلك الأخلاق الرفيعة، تحلّى المسلمون حتى في سلوكهم مع أعدائهم، فلم يحدث في التاريخ إلى اليوم، أنّ أمّة غالبةً، ضربت المغلوبين عهداً. كالذي ضربه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، لأهل بيت المقدس.

بلى، يمكن أن تُبنى الحضارة كما قال الأمير فيصل بن فهد، على قيم الشهامة والنخوة ومكارم الأخلاق. حينئذٍ فقط تكون حضارة بحق. ويمكن أن تقوم العلاقات مع الدول، ليس على محض المصلحة الذاتية، ولكن على أساس صلة الرحم مع الأقربين،

والسّماحة والفضل، حتى مع الأبعدين، وليس ذلك من الضعف في شيء.

بهذا يكون العرب والمسلمون قد أضافوا بوحي من عقيدتهم السمحاء معنى جديداً حقيقة إلى مفاهيم السياسة الدولية، وهي مفاهيم كئيبة بائسة.

هذا وقد قال الأمير فيصل في خطابه أيضاً:

«إن السياج الحقيقي الذي يمنع اختراق وغزو الشخصية العربية المسلمة، هو البناء الروحي والخلقي القوي لأنسجة الفكر وأوعية الضمير، وتسليح جدران القلب في توازن مثالي بين العقيدة ومتطلبات حياتنا اليوم، لتشكل جميعها بناء صلباً تتحطم أمام متانته كل محاولات الغزو وحملات التأثير السلبي...».

■ ■ ■

كلمة المفكر الفلسطيني البارز الأستاذ بلال الحسن، كانت امتداداً لكلمة الأمير فيصل بن فهد، وبعض فقراتها كانت كأنها أصداء مباشرة للأفكار التي عبّر عنها الأمير فيصل. ذلك أن الهم الذي انطلقت منه الكلمتان، همٌّ واحد. وهو همٌّ أخذت الأمة العربية تحسّ به إحساساً يزداد إلحاحاً، كما يبدو على ألسنة بعض قادتها وبعض مفكّريها.

ما هي الأمة العربية؟ وما هو وزنها؟ وما هو دورها؟ وكأنما العرب ـ والمسلمون بطبيعة الحال ـ بدأوا يدركون، أنهم لم يدخلوا بثقلهم

الهائل، في خضم الصراع الحضاري الذي يمور بهم وحولهم. وأنهم لم يعرضوا أفكارهم كما ينبغي في سوق الأفكار الواسعة المفتوحة في العالم.

ظلوا - إلى حد كبير - في موقف المتلقّي، الذي يأخذ ولا يعطي، ويشتري ولا يبيع. هذا، مع العلم أنهم ليسوا فقراء، إن هم حملوا بضاعتهم إلى السوق.

بعد خطبة قصيرة من الدكتور عبد الرحمن السبيت الوكيل المساعد في الحرس الوطني، والمشرف على تنظيم المهرجان، رحب فيها بالمشاركين، تحدث الأستاذ بلال الحسن نيابة عن المدعوين، فنوّه بأهمية مهرجان الجنادرية كونه إنجازاً ثقافياً سعودياً يتميّز بصفة الاستمرار، ثم قال:

«إن للسعودية دوراً قيادياً في العالم العربي، يظهر بارزاً في كثير من المجالات. وهي تمارسه في كثير من الأحيان بتكتم وتواضع، أصبح سمة من سمات أدائها (...) وهذا خلق جميل لا نستطيع إلّا أن نعجب به. ولكننا سنطالبكم بالخروج ولو قليلاً عن هذه القاعدة، آملين أن نتوجه بكم ومعكم نحو مرحلة أخرى من المواجهة الثقافية، وهي مواجهة تتطلبها التغيرات الكبيرة التي تحصل من حولنا (...) بحيث نحتاج أكثر ما نحتاج إلى ذهن متحفّز، يستقبل ويرحّب، ويكون في الوقت نفسه جاهزاً للعراك».

لم يذكر الأمير فيصل بن فهد في خطابه كلمة (المواجهة) أو (العراك)، فهما كلمتان لا تنسجمان مع الرصانة المعهودة في العمل السعودي، ومع ذلك، فإن روح (التحصُّن) و(المرابطة) و(الاستعداد)

لم تكن غائبة عن ذهن الأمير، كما يتضح في هذه الفقرة من خطابه:

«... إن عقيدتنا التي تفرض علينا التسامح والتفاعل مع العالم بقلوب مفتوحة ونفوس مطمئنة، لا تحب لنا ولا ترضى أن نكون لقمة سائغة أو كتلة هادئة أو حزباً خاملاً تسبى أمام عينيه مواريثه وتسلب معتقداته وتنهب».

نسمع صدى هذه الكلمات القوية في هذه الفقرة من كلمة الأستاذ بلال الحسن:

«... ولهذا فإن تقبل ما هو إيجابي في النظام العالمي الجديد، يجب أن يترافق مع هذا الاستعداد لعراك ثقافي يدافع عن تراثنا الثقافي ويحميه، ويحاول أن يهزم هذا النوع من النزعات التي تريد تحويل التفاعل الثقافي بين الحضارات إلى معارك تتردد في جنباتها كلمات الانتصار والهزيمة والتدمير، بدلاً من كلمات الإبداع والتفاعل والتطوير».

هذا وبينما نوّه الأمير فيصل بن فهد في كلمته بالتنوع الثقافي العربي وحبّذ وجود استراتيجية عربية موحدة في قوله:

«وعقْد المهرجان الوطني للتراث والثقافة ينتظم من جديد في لقائنا هذا ليزيده بحول الله توهجاً لينعكس تفاعلاً فاعلاً ومؤثراً بين المدارس الفكرية المتنوعة على صعيد العرب أجمعين، ولينسج للأجيال العربية ثقافة عربية واستراتيجية عربية واحدة بألوان طيف متعددة، تزيد ملامح الصورة روعة وبهاء»

نجد الأستاذ بلال الحسن يقول، وكأنه يؤمّن على قول الأمير فيصل ويؤكده:

«لقد مضى العهد الذي كان فيه العمل الثقافي جهد فرد واحد... ثمة حاجة إلى مؤسسة وإلى مؤسسات تخطط للعمل الثقافي وترعاه. المؤسسة هي المؤهلة أكثر من غيرها إلى ضمان الاستمرارية وإلى تحويل هذه الاستمرارية إلى تراكم، وإلى استقطاب كفاءات الثقافة وتنوعاتها من أجل حفر المجرى الثقافي الكبير وتطوير ثقافات العالم العربي والعالم الإسلامي، لمواجهة المخاطر من جهة وللإسهام في منجزات الحضارة من جهة أخرى».

هذا هو مربط الفرس في كلمة الأستاذ بلال الحسن. وقد عبّر عن ذلك صراحة حين دعا إلى «إنشاء مؤسسة الجنادرية للأبحاث الفكرية».

ذلكم دعاء حريٌّ أن يستجيب له كل الحادبين على تراث الأمة العربية الإسلامية وثقلها الحضاري. ولعل الآراء تتنوع في شكل هذه المؤسسة ـ أو المؤسسات ـ وبرامجها وطرق تمويلها وإدارتها. وقد يقول قائل إن المؤسسة العربية الموحدة موجودة بالفعل، ألا وهي المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وأن تلك المنظمة قد وضعت منذ نحو عشر سنوات استراتيجية شاملة للعمل الثقافي في الداخل والخارج، فماذا حدث للاستراتيجية، وماذا حدث للمنظمة؟

مهما يكن الأمر، فلا جدال أن الجهد الثقافي الواجب على العرب أن ينهضوا به، يتطلب عملاً طويلاً ضخماً بوسائل متنوعة لعلهم يجدون حينئذٍ، أن كثيراً مما يستعصي عليهم إنجازه، بواسطة

السياسة وغيرها، سوف يسهل تحقيقه، بواسطة الفن والفكر والإبداع والثقافة. ولعلهم أثناء ذلك يجدون أيضاً ما تبدد من شتات أنفسهم!

٧

لقيته أول مرة منذ ثلاث سنوات، أو لعلها أربع، هذا الإنسان الحلو الشمائل، العالِم البحر، المحقق الثبت. وتلك من فوائد مهرجان الجنادرية أيضاً، أنك تتعرف أناساً لم تكن تعرفهم، وتجدد صلتك بأناس عرفتهم من قبل.

دعاني للغداء يومئذٍ بصحبة الدكتور محمد إبراهيم الشوش، وهو محبّ، لا يزال يلهج بذكره. والشوش إنسان صادق الأخوة، غزير العلم، وقّاد الذهن وقد قضى ردحاً عند الإنجليز في جامعة لندن. لكنه لم يتعلم منهم دقة المواعيد وحسن التنظيم، فظل فيه ميل إلى الفوضى. مثل حصان امرئ القيس «مقبل مدبر معاً».

ليس ذلك من قبيل المبالغة، فأنا لا أعرف أحداً غيره، يتحرك في اتجاهين عكسيين في آن واحد ـ إلى الأمام وإلى الوراء، وذات

اليمين وذات اليسار ـ يدور حول نفسه، ويذكر الشيء وينساه في عين اللحظة. لعل ذلك من أعراض عبقريته وهو دون شك، من مقومات جاذبيته التي يحسها كل من يتصل به.

أخبرني بدعوة أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري وما كنت قد رأيته من قبل، ولكنني سمعت عنه وقرأت له فكنت أتطلع إلى معرفته. وأكد عليَّ أن أنتظره في النزل، الساعة الواحدة ضبطاً، وظللت أنتظر حتى جاء الشوش بعد الرابعة.

يا أخي، ما هذا وقت غداء، ولا بد أن الرجل يئس من مجيئنا. لكنه كعادته هوّن الأمر، فانطلقنا لا نلوي، فضللنا الطريق، كما يحدث عادة مع الشوش.

بدا لي المكان بعيداً. تركنا المدينة بمبانيها العالية وشوارعها الواسعة المزدحمة، وأوغلنا في أحياء منقطعة وسط زراعات ونخيل كأنها بقية من مدينة أخرى. وبعض بيوت الطين ـ النخل وبيوت الطين ذكّرتني بقرى شمال السودان، حيث طاردنا أفراس الصّبى، وشربنا لبن البقر غريضاً وأكلنا التمر (البركاوي) رطباً، فظل المذاق عالقاً بأرواحنا، يفسد علينا طعم الحياة بعد ذلك في بلاد الله على اتساعها. لأجل ذلك قالت الفتاة:

«... لا شبع لك من بعدي ولا ري ولا شفيع ولا نجي. فاضرب حيث شئت، وتزود إن استطعت واطلب النجاء. إلى أن تلقاني فأعطيك المنّ والسلوى».

هكذا حرّكتني بيوت الطين وزرائب النخيل، فألهتني وهلة عن

الحرج الذي خامرني وأنا ذاهب مع ابن عمي ذلك الفوضوي، إلى غداء مثل العشاء عند أبي عبد الرحمن.

كذلك نحن، أبناء عمومة، من الركابيين آل غلام الله بن عائذ، الشريف الذي هاجر إلى السودان عن طريق اليمن، في نحو القرن الخامس عشر للميلاد، كما روى ابن ضيف الله في طبقاته.

قلت للشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري مازحاً ذات مرة وهو يعابثني عن عروبة السودانيين - والشيخ في حقيقة أمره محب للسودانيين:
«هل تدري أنني شريف حسيني؟».

ضحك الشيخ، ولعله لم يصدق وحقّ له ذلك. ولا أعلم إن كان الأمر كما قال ابن ضيف الله، وزعم أجدادنا. إنما التاريخ يحدثنا أن بني هاشم كانت فيهم أدمة، أي سواد، لذلك قال ابن الرومي يدافع عنهم:

وعيّرتموهم بالسوّاد ولم يزل
مِن العرب الأقحاح أسود أدْعجُ

ولما ساروا إلى تلك الفجاج، اختلطوا وبقية القبائل من جهينة وكنانة وسليم والأوس والخزرج وما شئت، بالدماء المستوطنة من النوبة والزنج، فأضافوا أدْمة على أدمة.

وكل ذلك ما نفعه؟ وما أهميته؟
الأمر كما قال (الأستاذ):

وإنمـــا يـــذكـــرُ الجدود لـــهـــم
مـــن نـــفـــروه وانـــفـــدوا حِـــيَـــلَـــهْ

لا شيء، اللهم إلّا لأننا كنا ذاهبين للقاء فتى ظاهري شريف من بني عقيل، فقلنا نتلفّع بعباءة آل البيت. ويا أكرمها الله من عباءة وسعت من قبل سلمان الفارسي!

وعقيل، كما لا يخفى، هم قوم صاحبة شيخنا أبي العلاء:

تحِــلُّ عــن الــرهْــط الأمــائــيّ غــادةٌ
لـهـا مـن عـقـيـلٍ فـي ممـالـكـهـا رهْـطُ

هذا، وقد وجدنا دارةً أليفه ـ لا أقول أنيقة ـ حببني فيها من أول وهلة، أنها كانت تنبىءُ عن زُهد صاحبها، تتأرجح بين اليسار وشظف العيش. وربما كان في الفناء نخلة أو نخلتان. دارٌ كأنها مفتوحة دائماً، لم تُعدّ خصيصاً لاستقبال ضيوف في يومها ذاك. عامرة مأهولة، فيها ناس وأطفال وصبية يدخلون ويخرجون.

تدخلها، فكأنك أحد سكانها، خرجت ثم عدت. وصاحب الدار، أبو عبد الرحمن سمح الوجه، حييُّ السّمت، صوتُه الودود فيه من بداوة نجد ورقّة الحجاز.

■ ■ ■

عزّاني بعض العزاء، أن الأستاذ حمد القاضي، صَفيّ أبي عبد الرحمن بن عقيل، ترك لي كتابه الأخير «شيء من التباريح» في

النُّزل. كان يودّ أن نذهب معاً لزيارته، فكنت أتصل به فلا أجده، ويتصل بي فلا يجدني، إلى أن انقضت أيام مهرجان الجنادرية، فسافرت ولم أسعد بلقاء ذلك الإنسان الكريم.

بعد ذلك اللقاء الأول، كنت أُلِمّ به في الرياض من وقت إلى آخر، ثم لما جاء إلى لندن بدعوة من السفير غازي القصيبي، فتحدث حديثاً طلياً جذاباً كعادته، عن أحوال العشق عند شيخه ابن حزم، وكنت أيام عملي في (الدوحة) أتابع برنامجه (تفسير التفاسير) من إذاعة القرآن الكريم من مكة المكرمة، أخرجُ في مهمّات وأرجع، وأسافر في إجازات وأعود، إلى أن تركت (الدوحة)، وهو ما يزال في تفسير (بسم الله الرحمن االرحيم).

ذكّرني في تبحّره واستطراده وعمقه، بأستاذنا الدكتور عبد الله الطيّب، ظل يفسّر القرآن الكريم من إذاعة أم درمان قرابة عشر سنوات، وبالعالِم المغربي الجليل المرحوم الشيخ المكّي الناصري، في بلاغة تفسيره وعذوبة حديثه.

وهذا الكتاب الجميل «شيء من التباريح» بعض فيوض أبي عبد الرحمن. يبدؤه، وهو جاد كالمازح، بالشكوى من كثرة الرعيّة ـ يقصد العيال ـ وألم القولون، وأن «نقيع الشيب علا ثغرة الميلاد». ولعل كل ذلك يهون، حاشا وجع القولون الذي يصفه بقوله:

«وتحمّلت أعباء القولون لكثرة همومي، فكثرةُ لهموم قدَرُ من كثُرت رعيّته. ولكثرة مشاغلي وكثرةُ المشاغل قدرُ طُويْلب علم يريد أن يعرف كل شيء ويريد أن يكتب عن كل ما عرف. فعندما أعجز عن تحمّل مسؤوليتي العلمية، يحدث لي تأزُّم نفسي وأعباء قولون

جسمية. وكثيراً ما يتبع ذلك روائع أدبية تُكتب بماء الدموع».

الروائع الأدبية ـ لسوء الحظ ـ لا تتأتّى إلّا مصحوبة بأزمات نفسية وأعباء جسدية. وبعض هؤلاء الموهوبين، يصابون بما هو أفدح من وجع القولون. ولو شاء أبو عبد الرحمن، لسأل صديقه فهد الحارثي، فهو بذلك عليم، عن أوجاع (رامبو) و(بودلير) و(بروست). إذاً لهان عليه ما يلقى، ولحمد الله أن الأمر لم يتجاوز وجع القولون، رغم أنه ممضّ، لا شك.

يحدّثنا أبو عبد الرحمن، أن الحارثي كان جاره في «في شويْرع متفرّع عن أم سليم قرب بيتْ شلهوب وابن خميس في حدود ١٣٨٥هـ».

ثم فرّق بينهما أن العرابي الحارثي سافر إلى فرنسا، وقرأ في (السوربون)، وعاد يحمل شهادة الدكتوراه. يقول أبو عبد الرحمن:
«فانكسر خاطري، وقلت في نفسي:
«حسبي الله على باريس وسنتريس والسوربون وأركون.. فكلّ أولئك صرفوا العرابي عن محاورتي..»».

لماذا سنتريس؟ ربما لأن (الدكاترة) زكي مبارك رحمه الله، وهو من سنتريس في الدلتا ـ إذا لم تخنّي الذاكرة ـ هو الآخر قرأ في السوربون.

لقد سهرت مع فهد الحارثي في دار صديقنا العزيز منصور الحازمي أثناء مهرجان الجنادرية، فما سمعته ينطق بكلمة فرنسية أو يذكر كاتباً أو شاعراً فرنسياً ـ مخافة التظاهر والادعاء. وكان كما عرفناه دائماً، بسيطاً متواضعاً.

تلك إذاً من معابثات أبي عبد الرحمن، فقد عاد في كتابه وأطنب في الثناء على العرابي الحارثي، وأسف أنه تخلّى عن رئاسة تحرير مجلة (اليمامة)، وقال إنه قفز بها قفزات كبيرة.

هذا، وقد عجبت غير قليل، أن أبا عبد الرحمن، رغم ما تعلم من حسّه المرهف، وذوقه الرفيع للشعر، وطبعه السمح، وإدراكه أن الروائع الأدبية تُكتب بماء الدموع ـ رغم ذلك لم يحْفَل بأحد عباقرة الشعر العربي، بل الشعر الإنساني، فقال:

«وإنما أضع هذه المهاتفة عن شيخ الفُسّاق الحسن بن هاني الحكمي بمقالة تشبه حلّ المنظوم ليعلم الناس أن مثل ذلك الشعر محرّم بإجماع، وقد يكون منه لَمَم، لننطلقَ بعد ذلك في تبيان الأحكام على بصيرة..».

كان الرجل ـ غفر الله له ـ عبقرياً لا شك في عبقريته. وحسابه على الله. لم يسمع أبو عبد الرحمن ـ وهو عادة مرهف السمع ذكي الفؤاد ـ لصوت الشاعر الجريح وهو يعرب عن محنته. قال الحسن بن هانيء، رحمه الله:

إذا شـاقـك نـاقـوسٌ
وشـجـوُ الـنـاي، والـعـودُ
وغـوديـت بـريـقِ الـكـرْم
مـجّـثْـه الـعـنـاقـيـدُ
تـطـرّبـتَ إلـى الألـف
فـقـالـوا: أنـت عـربـيـدُ
وهـل عـربـد مـكـروبٌ
قـريـحُ الـقـلـب مـعـمـودُ؟

إنه «قريحُ القلب معمود»، لأنه قاسى «همّاً كوْنيّاً»، هو الذي عناه بقوله:

أديرا عليَّ الكأس تنكشف البلْوى..

وما «البلوى» إلّا الهمّ الوجودي، الذي عاناه الشعراء منذ امرئ القيس والنابغة، وأحسّ وطأته أكثر، فلتة الزمان أبو الطيب. هو أيضاً كان متهماً فهلّا فعل صديقنا العقيليّ الظاهري، كما فعل الحبر ابن عباس، حين أصغى لـ (ماجن) آخر ـ على زعمهم ـ في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلّم؟

حدّثنا الرواة، أن عمر بن أبي ربيعة قال قُبيْل وفاته، أنه لم يجترح شيئاً من المجون الذي ذكره في شعره. وكذلك قال الحسن بن هانىء. فهل نعتبر الشعر وثيقة اتهام ضد الشاعر؟ أم نعجب بعبقرية الفن، ونتوسّل برحمة الله الواسعة، لأنفسنا وللشاعر؟

■ ■ ■

في كتاب أبي عبد الرحمن بن عقيل «شيء من التباريح» قصتان ركيزتان، تتفرع منهما قصص عدة. قصته مع أصدقائه، وقصته مع كتبه.

الله سبحانه وتعالى، وقد قسَم له ـ كما يصف لنا ـ أوجاع الجسد، وكدّ الكسْب للقيلة؟ ومكابدة طلب العلم وتبليغه، أنعم عليه تعويضاً له، بأخوان صدق، على شاكلة (شمس بن مالك)، كلهم أبلجُ أغرّ، يحمل الكلَّ ويعين على نوائب الدهر.

منهم حمد القاضي، رئيس تحرير المجلة العربية. وهذا على حُبه لأبي عبد الرحمن، انقلب عوناً للدهر عليه، كما ظن الظاهري، بعد أن كان عوناً له على الدهر، وذلك أن القاضي أفسح له المجال أن يكتب تباريحه في المجلة، فمضى قدماً حتى صارت الزاوية كما يصف «ملكي، فقد أحييتها إحياء شرعياً، وعرف القاصي والداني حدودها وأبعادها».

لكن أبا عبد الرحمن لم يستطع أن يفي بالتزاماته، وتعب أبو عبد الله حمد القاضي من ملاحقته، ولم يجد بداً من أن يكتب له بنبأ إيقافه، في رسالة اعترف أبو عبد الرحمن نفسه أنها كانت «باكية... لتبريد بعض الأسى».

هذا، وقد برّر حمد القاضي قراره، بأن له أسوة في وزارة الزراعة التي «عندما تمنح إنساناً أرضاً زراعية ثم لا يحييها صاحبها، أو يحييها ثم يهجرها، فإنها ـ كما نسمع ـ تأخذها منه وتمنحها لغيره».

لا أحسب ذلك إلّا أنه عدلٌ في المذاهب كلها، ولا أعلم ما هو الحكم عند الظاهريين، لأن ابن عقيل اعتبره قراراً تعسفياً، وتجميداً لتباريحه، كقولك أن حمد القاضي جمّد الدموع في مآقي أبي عبد الرحمن!

يشرح حمد القاضي، كم عانى في ملاحقته ابن عقيل، في (مقامة) جميله، يُحمد للظاهري أنه أثبتها في كتابه. يقول أبو عبد الله حمد القاضي:

«إن أبا عبد الله الورّاق ما بعث بتلك الوريقة التي أدخلها أبو عبد

الرحمن التاريخ، إلّا بعد أن تعب هو، ونصب زملاؤه في المجلة العربية من كثرة الملاحقة التي كادت تصل إلى المطاردة، فمن هاتف بالليل إلى هاتف بالنهار، ومن دار إلى دار. فعندما نتصل في دارتك دارة داءود الظاهر كما سميتها في حي سلطانة المحروس، يجيئنا الرد أنك قد ذهبت إلى دارتك دارة ابن حزم الظاهري بحي الملز المعمور.

وكنا عندما نتصل بك بالشتاء تقول: هذا أوان القرّ والصر. وإن اتصلنا بك بالصيف قلت: هذه حمّارة القيظ. وعندما نلحف بالسؤال يجيئنا الجواب أن الشيخ وفّقه الله بالمسجد يصلي ويسجد. وآونة في دار الإذاعة يسجل التفسير بأسلوبه المميز البصير».

لا ينكر أبو عبد الرحمن أياً من ذلك، ويراه حُجة له لا عليه. ويخبرنا أنه يومذاك، كان يعمل مديراً للإدارة القانونية بوزارة الشؤون البلدية والقروية، ومحاضراً بجامعة الملك سعود، ومعهد الإدارة العامة، ويقدم برنامجه (تفسير التفاسير) من الإذاعة، ويعقد حلقات للدرس في المسجد، وأخرى في الدار، ويكتب في أكثر من صحيفة.

هكذا نرى أننا إزاء رجل أريحيّ، قسّم جسمه في جسوم كثيرة. ولو أن الزمان أرخى له العنان ـ وكان أحرى به أن يفعل ـ لعلّه كان يصنع صنيع أبي عُبادة، يوماً بالشام، ويوماً بالعراق، ويوماً بنجد، ويوماً بالحجاز، لا همّ له إلّا أن يحدو قوافل القوافي ويستنطق الديار. إذاً لرأينا عجباً من أبي عبد الرحمن.

أما رحاله كما وصف، فلا غرو أنه لقي رَهقاً أيّ رهق، وهاجت عليه أوجاع القولون وقصّر في عهده لأبي عبد الله القاضي.

تلك الواقعة، أثارت ثائرة عدد من أصدقاء الظاهري، وهم كثر، رغم أنه يزعم أنه «كثير الرعية إلّا من المعاون». وأول من دخل الحومة محامياً عن حياض أبي عبد الرحمن الفارس المعلم أبو سهيل، غازي القصيبي، فأرسل إلى صاحب المجلة العربية قصيدة كل بيت فيها، كأنه نابلٌ من بُحْتُر، من الذين وصفهم الشيخ التنوخي، استهلها بقوله:

يا ابن القضاة الميامين الجحاجيح
من كلّ شهم كريم الأصل ممدوح
أما رفقت بشيخ شاعر فطن
جمٍّ المواهب ذي دين وتسبيح

إلى أن يقول:

أما علمت حماك الله أن له
عذراً ويكفيك تعريضٌ كتصريح
زُغب الحواصل والدنيا وسلسلةٌ
من الهموم انفراطاً كالمسابيح
تبغي الكتابة في ميعادها عجلاً
إن الكتابة أنثى ذات تبريح
لها مزاجٌ غريبٌ في تقلّبه
فهل رأيت مزاج الماء والرّيح

ثم يدخل الساحة، فارسٌ «كره الكُماةُ نزاله» من الذين يُبدون نواجذهم لغير تبسم، اسمه سعد العوفي يبدأ غاضباً:

أيلغي فؤادٌ تباريحه
وكيف وفي كلّ عضوٍ ندوبْ

وينتهي متوعِّداً:

أعــــدْه فـــإن لم يُـــعـــــد عــــاجــــلاً
تـــركـــتُ المجـــلـــة حـــتّـــى يـــؤوبْ

ووراء هذين، تتربص كتيبة بلْقاء، من فوارس سراه، فيهم عبد العزيز الخويطر، وعبد الله الوهيبي وأحمد الضبيب، وعبد الرحمن الأنصاري، من الدكاترة الرواد، الذين يعتد بهم أبو عبد الرحمن، ويغبطهم على دكْترتهم. ولو دامت الحرب، ربما لحقت حيال أبي الفوارس حمد الجاسر، كما لحقت من قبل حرب وائل حيال الحارث بن عُباد.

في مواجهة ذلك الزّحف، لم يجد حمد القاضي مندوحة من أن يرفع الراية البيضاء، ويجنح إلى السّلم، فقال:

«وأشهد الله قبل أن أشهد العدول، أنها أصابت مني مقتلاً، وأعقبتني ألماً وندماً. ولو استقبلت من أمري ما استدبرت، ما كنت خططت تلك الوريقة، ولا بعثتُ تلك الكُليمة، ولكن الحذر لا يغني من القدر».

■ ■ ■

يُكثر أبو عبد الرحمن بن عقيل في كتابه «شيء من التباريح» من ذكر اسم غازي القصيبي. وعند شيخه ابن حزم في كتاب «طوق الحمامة» أن ترداد اسم إنسان ما، دليل أكيد على المحبة. وقال أبو عبد الرحمن أنه منح القصيبي شيئاً من تباريحه «لأنه كتلة مواهب ودين وخلق مهضوم».

اللهمّ نعم. وزاد على ذلك بقوله:

«وعندما تألق الدكتور غازي القصيبي أدبياً وفكرياً في رياضنا ـ وهو متألق في غفلة منا وراء البحار ـ قلت: عوضي في التنافس على معارف الخواجات أنني أبزّه بتراثيتي... وأما الجانب الآخر فأشاركه من خلال الكتب المترجمة في الإشراف على أدب وفكر الخواجات وإن كانت له ميزة الإشراف على ما لم يُترجم من الأصول».

يقصد بـ«الإشراف»، الأطلّاع، وذلك دأب أبي عبد الرحمن.

لم يلبث أن استدرك. فأقرّ للقصيبي أنه ملأ يديه من خزانة التراث أيضاً فماذا أبقى لنفسه؟ في صوته رنة غيرة خافتة، لا يخفيها، بل يعترف بها بعفوية هي من بعض جاذبيته فيقول:

«وكاد الحسد يدب إلى قلبي تجاه دكاترة غادروني وعادوا بلغات إنجليزية أو فرنسية من أمثال محمد الهدلق وعبد العزيز المانع وفهد العرابي الحارثي... وكان قلبي لا يعرف الحسد فلعلَّ ذلك من التنافس في العلم. ونعيتُ نفسي أمام آخرين يطلّون على معارف البشرية وعلوم الدنيا من لغات شتى كالدكتور الأستاذ حسن ظاظا والأستاذ عابد خزندار».

حسن ظاظا، مُثقلٌ بعلوم العبرانيّة، وعابد خزندار غريق في بحار الفرانكفونية. الله أعلم لعلهما يقايضان ما عندهما بما عند أبي عبد الرحمن. أما أنا فما وددتُ أنّ لي حمر النّعم، وأن يكون لي (تفسير التفاسير)، فذلك مما يوضع في ميزان العدل لا في موازين أهل الدنيا. فطِبْ نفساً يا سيدي، ولا تأسَ على شيء.

يقول أبو عبد الرحمن عن تمكُّن غازي القصيبي من علوم التراث:

«يظلم غازياً من لا يعتبره ذا علم مكين في الشريعة وثقافات التراث... ويظلم غازياً من لا يتحرى الجانب الروحي الصادق في أدبه وفكره (...) وأما الجانب المهضوم فكل من عرف غازياً سيعلم أن شعره شاهدُ سِيَره، وأنه لم يتحلّ بحُلى مستعار ولم يلبس ثوب زور (...).

وأما الجانب الروحي فأشهد أن قصيدته «فارس القدس» شاهد على صلابة موقف في ذات الله، لأنها في رثاء الملك فيصل رحمه الله، ولا يتحسّر على بطل التضامن الإسلامي إلّا من أحب التضامن..».

ذلك أبو عبد الرحمن، لله درّه! بعد أن كان هضيماً أسيراً عند حمد القاضي، يقاتل غازي القصيبي لاستخلاصه، إذا هو ـ بين غمضة عين وانتباهتها ـ يصبح فارساً مغواراً شاهراً سيفه ينافح دون القصيبي. اختفت الآلام النفسية والجسدية، وتضاءلت الهموم الدنيوية، وانتفض أبو عبد الرحمن كما انتفض أبو الطيب «فزال القبر والكفنُ». فلله هو، مغلوباً غالباً، وأسيراً محارباً.

وقد صدق لعمري، فالقصيبي كما وصف وأكثر، مما يعلمه الظاهري ولم يصرّح به. ولعله عمل بنصيحة ابن الجوزي رحمه الله. لا أعلم إن كان من أشياخه، فقد نصح المحبَّ ألّا يبوح لمحبوبه بكل ما يحسّ به نحوه، مخافة أن يُدلّ المحبوب وأن يطغى. ولا أحسب القصيبي يفعل ذلك.

نحن أيضاً من رواد ذلك المنهل، نودُّ الظاهري ونودّ القصيبي. إنما

هو ودّ طارف، ليس كودّ هذين، أحدهما للآخر، فهو ودٌّ تالد متقادم، جرّتْ عليه صبا نجد ذيولها. وأنّى لنا بذيول صبا نجد، ونحن من بلاد صعيدها (جاب الهبوب مقلوبة)!

هذا ـ يا عمرك الله ـ ودّ على شاكلة ودّ الشيخ التنوخي لخازن دار العلم ببغداد، وودّ حبيب بن أوْس للماجد التغلبي، في قصيدته التي نصب فيها للظّبْي، «في آخر الليل أشْراكاً من الحُلم».

ذلك، وحين يقول أبو عبد الرحمن، أن القصيبي (مهضوم)، فهو ـ طبعاً ـ ينحو بالكلمة نحو معناها اللبناني الدارج، ولعلّ ذلك من جراء حبه لفيروز. لكنه لم يذكرها في كتابه، وذكر أم كلثوم التي عشق صوتها منذ صباه، وقال إنه مع ذلك يشفق عليها من هوْل المآب، وأضاف:

«قلت خلال هذه الأشجان: لو أن هذه الخضراء الريفية الصبيّة في (وداد) تزوجت ريفياً ذا مروءة ودين يتعاونان على الكدح والبِرّ والتقوى ويلحسان القصعة، لم يُكشف لها وجه، ولا عُمِر بها مجلس طرب.

أو كانت بغلالتها وسجّادتها تحفظ أدباً، وترتّل قرآناً بصوتها الحلو، وتروي وتُملي علماً وأدباً ودعابة وترنّماً ساذجاً وهي محجبة كمحدّثات المسلمين، لكان خيراً من كل تلك الأمجاد، ومن كل ذلك الألق».

الله أعلم. إنما تخيّلْ كم نكون فقراء، لولا ذلك الصوت العبقري يشدو بروائع شوقي في مدح الرسول الكريم. أما ترى ذلك يشفع لها يا أبا عبد الرحمن؟

هوّن عليك يا أُخيّ، وقل مع الرجل الصالح صاحب (المثنوي):
«دعْ شرح حال الوردة بحقّ الله، واشرحْ حالَ البلبل الذي افترق عن الوردة.

ليس اضطرابنا من الحزن ولا السرور، وليست حكمتنا من الخيال ولا من الوهم.

إنّ لنا حالة أُخرى، فلا تُنكرْ ذلك فإن الله واسع المقدرة.
بستانُ الحب أخضرُ ريّان دون ربيع أو خريف.
فيا صاحب الوجه الجميل! أدِّ زكاةَ الوجه الجميل، وأعِدْ لنا حكاية القلب الممزّقْ».

■ ■ ■

قصة أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري مع كتبه، قصة عشق طويلة تنتهي بالفراق. هذا رجل، كما يعرفه الناس، وكما يبدو خلال سطور كتابه هذا، «شيء من التباريح» قد جنّ جنوناً بحب المعرفة. لم يكتف بما تهيأ له من معرفة واسعة بعلوم اللغة العربية والفقه وعلوم القرآن والتراث، ولكنه أراد أن يأخذ بطرف من العلوم الحديثة، فقرأ الكتب المترجمة، وتاقت نفسه إلى تعلم اللغات الأوروبية. يقول:

«وهممت أن أطير إلى باريس سنتين، وإلى لندن عند الدكتور القصيبي سنتين، وإلى ألمانيا أو إسبانيا سنتين، لأتعلم رطانة العلوج فأكسر حاجز اللغة فلا يترفع عليَّ ذوو الرطانة..».

بوسعك أن تفعل ذلك، وخاصة أن خادم الحرمين الشريفين ـ جزاه الله خيراً ـ قد تبرع لإنشاء قسم للدراسات الإسلامية بجامعة لندن، فلعلهم يرسلونك مدرساً ودارساً. إنما، هذه مدن «تصبي أخا الحلم ولم يصطبَى»، وعلى الأخص بغريس، التي كأنما شيدوها على أوزغن قصائد الشاعر الحكمي! فهل أنت حقاً ترغب في ذلك العناء؟

يقول أبو عبد الرحمن في وصف حاله مع الكتب، أول ما علق حبُّها قلبه، وكان مثل قيس، إذ راح يقيس ناراً:

«وأذكر أنه كان عندي بـ (شقراء) ـ ولم يطرّ شاربي بعد ـ دويليبان عرض الواحد منهما متر، وطوله دون طولي، وكان فيه أول وأفخر طبعة من «فتح القدير» للشوكاني، ذات ورق أصفر يسرّ الناظرين، وأول طبعة من «تاريخ ابن جرير»، وأول طبعة من شرح الأعلم الشنتمري للمعلّقات، فكانت تفرّ مني الساعات الطوال بلا قراءة، وإنما كنت أقلّب كل مجلّد وأقبّله، وأمسح الكتب وأعيد ترتيبها ثم أصعد إلى مرقدي على السطح بين رباط ثاغيتين فأكثر، وأستمتع بلآلىء النجوم، وأطرب لنباح الكلاب ينساب من بعيد».

يا له من حب! ليس مثله حب بعض الناس للخيل، أو اللوحات الفنية، أو السجاجيد الثمينة، أو الخزف النادر. ويزيد أبو عبد الرحمن:

«ثم يبدو لي فأنزل إلى الديوانية حيث المكتبة.. وأوقد سراج أبو دنان، لا لأقرأ، بل من أجل الالتذاذ بتقليب الكتب وتقبيلها.. ثم أعود لنوم هانىء».

ويختم هذا الوصف بقوله:
«لله ما أطيب العيش وألذّه في تلك المعاهد والمرابع.. لا نعرف هموماً ولا عقَداً ولا طموحاً في المركب والمسكن يفرضه التباهي في الكماليات التي فرضها علينا الخواجات وليست من بيئتنا ولا فطرتنا..».

صدقت، إذاً لماذا تريد أن تجيئهم في عُقر ديارهم؟ وهي ديار فيها وفيها، ولكن ليس فيها نجوم ولا سطوح ولا ثغاء. إذا لم يكن من بد، فليكن في ميعة الصبى، تغالبكِ وتغالبها، وتأخذ منك بقدر ما تعطيك، ولا تخرج منها إلّا وقد أَبْهمتْ عليك السُّبل. هذا إن خرجت. فما لك وكل ذلك؟

لم يلبث أبو عبد الرحمن أن تعب من الكتب، وأضناه حبها، كما يُضني الحب الذي يتقادم به الأمد. يقول:

«وذهبتْ تلك اللذة ـ أو معظمها ـ التي أجدها من جراء امتلاك الكتاب وتقليبه وتقبيله وإعادة ترتيبه مع رصفائه. ذلك أن الكتب كثرت جداً.. وأصبح البحث عن كتاب بين الأنقاض أصعب من البحث عن مسألة في كتاب..».

لم يشفَ كل الشفاء بطبيعة الحال، فحبٌّ مثل هذا لا يبرح أبداً، كما يقول العارفون. لكن أبا عبد الرحمن ثار عليه وانقلب ضده. كما فعل إبراهيم ناجي رحمه الله:

يـا هـبـاء الـهـبـاء يـا زبـدَ الـبـحـر
ويـا ذرُّ مُـسْـتـطـار الـرّمـال

إن بعض الهدوء نوعٌ من الرُّعب
وبعض الثواء كالترحال

حدثنا أبو عبد الرحمن أنه لما تقاعد عن العمل، قبل سن التقاعد، قرر أن يقضي بقية عمره بين مكة المكرمة والمدينة المنورة التي يسميها (أم المساكين). وقرر أن يترك مكتبتيه في الرياض:

«ليقوم بفهرستها وترتيبها أجير مختص حتى إذا ما جئت إلى الرياض زائراً ومستجمّاً تنقلت بين المكتبتين ملتقطاً ومقمشاً لإشباع مباحثي التي أقمت هياكلها من الأمهات ونشرت بعضها في الصحف».

ثم بدا له أن يبيعهما. وقال إنه خلص إلى «الخلوة مع الأمهات والأصول في فنون محصورة أعونُ على طلب العلم». وذكر أنه وجد أُسوة في حجة الإسلام ابن تيمية الذي كان يعتمد على مصادر قليلة تعدُّ على أصابع اليد.

هذا، وقد تمثل أبو عبد الرحمن ببيتين لابن طفيل إذ يقول:

بَرَّح بي إنّ علوم الورى
ثنْتان ما إن فيهما من مزيد
حقيقةٌ يعجَز تحصيلُها
وباطلٌ تحصيله ما يفيد

وبعد، فهذا كتابٌ مفعم بالخصائص كلها التي يتميز بها أسلوب أبي عبد الرحمن، من سلاسة وعذوبة وطرافة. وهو كتاب (حداثوي) في بعض مذاهبه، ففيه هذه الـ (فضاءات) التي يؤثرها

الحداثيون. لذلك جاء قصيراً، وهو عيبه الوحيد في نظري، فقد كنت أُوثر لو تطول صحبتي بأبي عبد الرحمن.

أرجو لك يا سيدي السعادة والعافية، في تنقّلك بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، وذلك أكرم عند الله ولا ريب، من التنقّل بين لندن وباريس.

٨

فاتني افتتاح مهرجان الجنادرية هذا العام، إذ وصلت متأخراً. فاتتْني خطب الافتتاح، والأوبريت وغناء محمد عبده، والعرضة بالسيوف.

وفاتني سباق الهجن، خاصة أن بعضها من الإبل البشاريّة الكريمة ـ نسبة إلى قبيلة البشاريّين في شرق السودان ـ ومنها الجمل الذي ذكره الشاعر الشُّكري عبد الله أحمد عَوض الكريم:

مـن (سيـتيـت) نـويت عـابـي لـي خَـتْـه
فـوق ضَـهـر الـبـشـاري الـدُّوْمـتُـه تـتْـرى
يـسَـلْـفـق فـي الخبـيـب مـا جـابْ لـه عـتْـره
جَـلـوس أُم خـدْ هـنـاك كُـلْ سـاعـه بـطـرا

(سيتيت) نهر يجيء من هضاب إثيوبيا ويصب في نهر (أتبرا) ـ لا

أقول (عطبرة). وقوله (عابى لي خَتْره ـ خطره)، أي أنه عبَّأ للسفر، كما فعل ود حاج الماضي لغاية أسمى وأجلّ:

نعْمَ العبا وروّح
بي سهَل الفرش شاف العلم لوَّح
زار جدّ الحسَين.

ولعل الشاعر الشكريّ قال (عَبيت ناوي لي ختْره).

وقوله (دومْته تثْرى)، يعني أن رقبة الجمل ترشح عرقاً من شدة السير. وقد أفصح شاعر آخر أكثر حين قال:
أبْ دوماتْ غرَفْن عرقُه أتْنادنْ به
ضرب الفجّة وأصبح ناره تاكل الجنبُه.

يصفون الجمل بـ (التَّيس)، كما يصفون بذلك فحل الظباء. قال الشاعر:
ترى أم دالات قطَعْها التّيس وغرَّبْ
تقول ديك هضلماً بالخيل مسرَّب
طريت الصّاغ سليم ما هو المكرَّب
مثل هسَّع، بخاف كبَريتُه عرَّب

الجمل في سرعة عدوه مثل الظليم، ذكر النعام، الذي تطارده الخيل. والفتاة (أم خد)، هي القصد والهدف. وكل فتاة لها خد، إنما هذه لعل خدّها في الحسن بما لا يوصف. والـ (كبَريت) ـ بفتح الكاف والباء ـ الذي أوقدته، بمثابة النار التي أشعلتها الفتاة الأخرى في خيال الشاعر الشكري، بعد أن جاز التسعين، كما رووا:

وبعينيْك أوقدتْ هندٌ النار أصيلا تلوي بها العلياء

إنما دقات قلب الشاعر أسرع من عدو الجمل ـ على سرعته ـ لذلك استبطأه وقال يحثّه:

خـبّـك مـو وشـيـك الـلـيـلـه مـالـك
تـتـقّـل فـي الـيـمـين وتجـرّ شـمـالـك
بِـنَـيْـتـاً لـي شَـيُـومـا بـشـنّـي حـالـك
رقـاداً دونـا قـط لا تـسـيـهـو بـالـك

الشكريّة عندنا يقولون (سيتُه) أي (سوّيته)، و(تسيهو) أي (تسَوّيه). وما أحسن قوله (بشَنّي حالك)، يعني يرهقه في السير. و(الشّيُوم) هو الرحيل إلى الحبيبة، ولعلّها مشتقة من (شام)، كأن الحبّ كله في بلاد الشام، كما أن كل مدينة (مصر).

هذا، وقد كان شعر الحب غالباً على الأمسية الجميلة التي أُقيمت للشاعر السابق الأمير بدر بن عبد المحسن بحضور الأمير بدر بن عبد العزيز، وقد افتتحها الأمير متعب بن عبد الله بن عبد العزيز. هذا شاعر يطربني شعره منذ أن قرأته أول مرة.

وهو والأمير خالد الفيصل، كلٌّ منهما سابق في مضماره، ذاك رصين جزْل، وهذا عذبٌ رقراق.

من القصائد الحسان في تلك الليلة المشهودة، قول الأمير بدر بن عبد المحسن:

لـعـيـونـك أمـلا صـوتـي غـلال حـنـطـه
وأظـهـر لـكـل الـنـاس مـكـسـور الأغـلال

أطـعـم طـيـور الحزن نـورٍ وغـبـطـه
وأقـول كـلّ الـصـبـح لأهـدابـك ظـلال
يـالـلّـي بـقـلـبـي صـعـب حـلّـه وربـطـه
ويـا الـلّـي بـعـيني نـهـر جـمـرٍ وشـلاّل
يـا هـيـه أحـبـك كـل الأشـعـار سـمـطـه
والـلّـه مـدري كـيـف هـالحسـن يـنـقـال
خـذيـت مـن رمـل المجـرّات غـمـطـه
لأقْـدامـك أمـشـي فـوق نجـمـات هـلال
قـالـوا الـهـوى يـا فـرحـة الـعـمـر شـرطـه
بـنـت تـصـيـر عـيـونـهـا قـلـب رجـال
وأقـول شـفـتـك يـوم الأحـلام غـلـطـه
وبـالحيـل أحـبـك كـثـر حـبـك لـلأطـفـال

٩

من جميل ما حدث في مهرجان الجنادرية، أن الشعر (النبطي) الدارج، بعد أن كان أخاً مُحقراً للشعر الفصيح، راجعت سوقه واتّسع نفوذه، وحظي بالاعتراف والتقدير في أعلى مستويات الدولة.

كان الرأي السائد في المملكة العربية السعودية، كما في بقية أقطار العالم العربي أن شعر العامية، من نبطيّ وزجل ودوبيت، إما إنه عديم القيمة، أو أنه حين يحسن، يكون خطراً على اللغة الفصيحة. وهو رأي ما يزال سائداً في بعض البلاد.

وهذا كما لا يخفى، موقف ممعنٌ في التزمت. اللغة الفصيحة كما برهنت في تقلّبات أحوالها عبر القرون، لا خوف عليها. صمدت لعوادي الزمن، وعوامل الانحطاط الفكري واللغوي، والإهمال

والعُجمة، وخرجت بعد ذلك، فتيّة نضرة. لا غرو، فهي لغة القرآن الكريم، والحديث الشريف، والتراث العظيم الممتد من شعر ونثر وفكر.

وما شعر العامية، إلّا فرع من النهر الكبير، ورافد من روافده. وإذا كان الناس يتحدثون بالفصحى كما يتحدثون بالعامية، فلماذا لا يقولون الشعر بأيهما أرادوا؟ ولا يُنكر أن بعض شعر العامية في العالم العربي، يفوق أحياناً في فصاحته ونصاعة بيانه وارتباطه بتيار الشعر العربي الأصيل، ما تجده في بعض ما يكتب هذه الأيام من الشعر باللغة الفصحى. ثمة لا تجد من دلائل الفصحى إلّا أن القصيدة فيها جُمل مُعرَبة، وأن لها أوزاناً وقوافي. وحتى هذا قد لا تجده أحياناً.

يوجد لا شك، شعراء كبار هذه الأيام، ينظمون باللغة الفصحى. وهؤلاء لا خطر عليهم، من شعر العامية، إنما لكل منهم ميدانه ومجاله.

أقول، إن الشعر النبطيّ في مهرجان الجنادرية، بدأ منذ سنوات بخيمة صغيرة نُصبت بجانب «الهوتيل»، يفد إليها الشعراء والجمهور أواخر الليل بعد أن تنتهي النشاطات الأخرى الأكثر أهمية.

بدأوا يقبلون على استحياء. ثم رويداً رويداً أخذ الإقبال يتزايد حتى ضاقت الخيمة بالجمهور. وكان إقبال الشباب واضحاً.

أذكر في المواسم الماضية، ليالي عامرة امتدت حتى قريب من مطلع الفجر. منها ليلة جاء الأمير بدر بن عبد المحسن واستمع إلى شعر

الشعراء وأنشد هو من شعره. وليلة حضر فيها الدكتور عبد الله العثيمين. وأذكر أنه تردّد أول الأمر، ثم سرت إليه عدوى الحماسة من الشعراء والجمهور، فانطلق في الإنشاد.

أذكر ليالي، أنشد فيها الشاعران الموهوبان الصّيخان والحربي، وطرب عبد الله نور لصوته وأطرب الحاضرين بإنشاده الذي لا يجارى.

في تلك الأمسيات، كان الدكتور عبد الله المعطاني، أستاذ اللغة العربية بجامعة الملك عبد العزيز بجدّة هو المحرّك والقطب. يدير الحوار ويوزع الأدوار، ويتعمد أن تلي قصيدة العامية قصيدة بالفصحى، ويفسح المجال لشعراء من غير السعوديين، مصريين وعراقيين وسودانيين.

كان الشاعر العراقي، يحيى السّماوي، من نجوم تلك الليالي، وقد لقيته فيما بعد، وأسفت حين أخبرني أنه قرّر الهجرة إلى أستراليا. أعانه الله، لا أظنه يجد خيمة للشعر في أستراليا.

أخيراً، وجدتُ أنهم نصبوا خيمة كبيرة على طرف بحيرة السباحة في الفندق، بدل الخيمة الصغيرة في المواسم الماضية. وانطلق بالإضافة إلى ذلك نشاط واسع في قاعة كلية الملك خالد العسكرية، تضمن أمسيات شعرية وندوات خُصصت لتدارس قضايا شعر العامية. وكان ذلك النشاط برعاية الأمير بدر بن عبد العزيز وإشراف الأمير متعب بن عبد الله بن عبد العزيز، فكان بمثابة اعتراف من الدولة بقيمة الشعر الشعبي وأهمية شعرائه.

ثم وصل الاعتراف إلى أوْجه حين وصل شعراء العامية إلى ساح وليّ العهد، الأمير عبد الله بن عبد العزيز، رحّب بهم وأثنى على جهودهم، وأمر أن يُقام لهم (بيت) للشعر.

في هذا الموسم، كما في المواسم الماضية، الشعراء السعوديون من شعراء العامية الدارجة، حيّوا مليكهم وأسرتهم الحاكمة، فأحسنوا التحية، وغنوا لبلادهم فأحسنوا الغناء.

في قصائدهم أصداء من جزالة قصائد المديح في الشعر القديم، ومعان يندر أن تجدها هذه الأيام في ما يكتب من شعر المديح باللغة الفصحى. ولا يخفى أن المديح أصلاً فن صعب. وربما تُعزى قلة الجيد منه بالفصحى هذه الأيام، إلى أن أكثر الشعراء الكبار أعرضوا عنه ترفعاً أو تحرجاً، علماً بأنه باب محترم من أبواب البيان، تكاد اللغة العربية تنفرد به دون سائر اللُّغات.

من شعراء هذا الموسم، خلف بن هذّال، وهو وجه معروف في المواسم كلها، ومن أصحاب المطولات. وقصائده، مثل إنشاده،

تتميّز بالبداوة والفصاحة. يقول بعد أن يذكر الله سبحانه وتعالى والرسول صلى الله عليه وسلّم:

سلام الله على اللّي رايته بالعزّ خفّاقه
عزيز ومن عزيز ولكنا بالعزّ ندعي له
فهد عون الصديق اليا نصاه وعرق من عاقه
اليا كال الخصيم ايكيل ويرجّح الكيله
ملكنا عادته فك الدخيل إن يبْست أرياقه
وليلة من غدا حقّه اليا نجمو دواويله
بسط يمنى على المعروف والنجدات سبّاقه
يا كُثر المسلمين اللّي تشكر له وتثني له
ملكنا أبو الجميع وراحته للخير دفّاقه
ينز بها الثرى فوق الثرى سيله على سيله
ترى ريح المطر ينطحك لو ما شفت براقه
اليا شفت الهوى متنطحه هلّت هماليه

ريح المطر الذي (ينطح) معنىً كساه الشاعر ثوباً جديداً. وهي ريح تثير البلابل في خيال من يعرفها، وقد وصفها الشاعر السوداني في قوله:

البارح نسيمْ ريحا طَلَقْ من جَبْره
ذكّر عقلي بيهْ وأدَّى (العنانيف) هَبْره

قال (طلق) إذ قال الآخر (نطح)، وهو شديد الوقع على القلب. وقوله (العنانيف) وصف تكثير بحمله (العنّاف)، كأنه عدة جمال.

هذا، ويمضي خلف بن هدّال في المدح فيقول:

ألا يا كُبر فرحتها بعبد الله على الفاقه
ما ألذ من اجتماع الشمل والليل وتعاليله
هلا يا مرحبا باللي يغار ويحتمي الساقه
على دينه وأهل دينه غيور ومسرجٍ خيله

ويختم الشاعر قصيدته بنحو عشرين بيتاً في الحكمة والعظة كما فعل زهير في معلّقته، منها قوله:

واليا بان الك صلح مع حريب فجود أوثاقه
تجود بالشروط ويكتب الكاتب وتملي له
ولا تبرك لحمل ما معك في حملته طاقه
واليا منك بليت أرتك لشيل الحمل وتشيله
ولا تفرح بيوم فيه يعقر للعرب ناقه
من الممكن تجر علوم تقصي القوم ومهيله

وما أحسن قوله: «ولا تفرح بيوم فيه يقعر للعرب ناقه».

أما الشاعر مساعد بن ربيع الرشيدي، فيأخذ في المديح على عجل فيقول:

من هنا من منبر المجد بسم الله
مبتدا مرسى القصايد ومجراها
في ذرا دارٍ كساها الفهد ظلّه
الفهد رمز الزعامة ومغناها
خادم البيتين عزّ الوطن كله
سيد أولها ليا قام وأتلاها

فـي حـضـور مـعـزب الخيـر عـبـد الـلـه
جـابـهـا ربـك عـلـى مـا تمـنّـاهـا.

ثم يقول في التغني بالأرض والوطن:
مـن هـنـا مـن مـنـبـع الـديـن والملـه
دارنـا مـهـد الـرّسـالـة ومـبـداهـا
دارنـا مـا مـثـلـهـا لـلـوطـا لـلّـه
أتحـدّى كـل دارٍ تحـدّاهـا
ذي عـمـايمـنـا مـن الـغـيـر مـبـتـلّـه
كـل مـا نـاطـا ثـراهـا ونـتـبـاهـا
قـبـل عـصـر الـنـفـط والـقـصـر والـفـلّـه
يـومـهـا قـفـرَه نـحـيـلـة عـشـقـنـاهـا

إنها كما تقول ـ وفيما التحدّي؟ ـ فهي بالفعل «منبع الدين والملّة». وقوله «عمايمنا من الغيم مبتلة»، من هذه الصور الشعرية التي تبقى طويلاً في الذاكرة.

أما الشاعر الكبير نايف صقر، فهو بارع الاستهلال، بارع في تخلّصه إلى المديح:

ثم يقول مفتخراً فخراً لا يستطيع أحد أن ينكره عليه:

حـنّـا الـعـرب حـنّـا الـقـصـايـد والأمـثـال
مـن قـبـل قـيـس وفـتنة الـعـامـريّـه
فـي حـجـازنـا جـبـريـل حـوّل بـالأنـفـال
عـلـى محـمـد خـيـر كـل الـبـريّـه

وفي آخر قصيدة بيت يذكّر بالمتنبي:

شمتى لراعي العزّ والجاه والمال
وأنتى تحت حدب السيوف محميّه

وهذا ليس بعيداً عن قول أبي الطيّب «يحرّمه لمع الأسنة فوقه...».

هذا كله كما ترى، شعر لا يضرّ الفصحى في شيء، ولكنه يعطيها ويأخذ منها.

ولعل شعر الأمير بدر بن عبد المحسن، هو أكثر الشعر النبطي سهولة على القارئ السعودي، فهو سلس، ليس ممعناً في البداوة. والأبيات التالية تدل على براعة فائقة، لأن المديح فيها يجيء في سياق التغني بالوطن، والتغني بالوطن كأنه غزل:

عيدك حديث وذكر وآيات قرآن
وتكبير نفس زال عنها رهقها
عيدك بروق وطل وزهور حأذان
وغصون دوح لبست أجمل ورقها
عيدك بشور العزّ في وجه الإنسان
وشمس مني غيرك توالى شفقها
عيدك فهد، عبد الله، ووجه سلطان
وصفوة هل العوجا وزاهي وفقها
ذا حاجبٍ يسجد على رمل كثبان
ولّا جبال تعبد اللّي خلقها

ذي ومضة سوف أو سيوف الأجفان
على العيونِ اللّي ترابك حِدقْها
ذي حمرة المشرق أو أشجار رمّان
بين الهضاب الغافية في عبقْها

١١

كان الأستاذ محمد بن علي الشّرهان، واحداً من نجمين أضاءا أكثر من ليالي (الخيمة).

ثانيهما الشاعر سليمان العويس. هذا شاعر طويل الباع حقاً، شعره لصيق بالحياة اليومية ومفارقاتها، مليء بالصور الساخرة المضحكة الموجعة. وصوتُه وسَمْتُه يضيفان إلى وقع قصائده. ليس له ديوان مطبوع لسوء الحظ، وتلك خسارة كبيرة، لأنه يستحق الذيوع والانتشار.

أما الشرهان، فهو ليس شاعراً، ولكنه راوية فذّ، يعيد إلى ذهنك فطاحلة الرواة في العصور السوالف. وهو بالإضافة إلى محفوظه الهائل، يملك براعة في الإنشاد، وموهبة في تجسيم الصور والمعاني، وروحاً عذبة من الدعابة والمرح. صوته بدوي أخرش يبالغ في بداوته

عمداً، كما يصنع عبد الرحمن الأبنودي بصوته الصعيدي.

من القصائد التي أنشدها الشرهان وسحر بها جمهور رواد (الخيمة)، قصيدة للمرحوم سُويْلم العلي السهيلي، ذات مطلع جميل، يقول فيه الشاعر:

ألا يا ملّ قلب ما يطيع الهرْج في خلّه
على ما قال الأول ما يطاوع شور عذّالي

هكذا كتبها لي الشرهان حين طلبت ذلك منه لفرط إعجابي بالقصيدة. ولعل الشاعر قال ـ أو أراد أن يقول:

«ألاَ يا مَنْ لقلب ما يطيح الهرج في خلّه».

يشبّه الشاعر مكابدته في الحب، بحالة غوّاص اللؤلؤ، الذي يخرج له فجأة في القاع سمك القرش (الجرجور)، وينقلب على ظهره ـ وتلك عادة سمك القرش قبل أن يفتك بضحيته كما أوضح لنا الشرهان ـ ويفتح فكّيه ليلتهم الرجل. والغوّاص (الغيص) مربوط الأنف لا يستطيع التنفس، فيأخذ في شد الحبل (السّيب) كي يسحبه رفاقه إلى السطح، فيسحبونه و(الجرجور) في أثره، فينجو ولم يكد:

تهيّا له بوسْط القوع جرجور ظفى ظلّه
يبي عنه المراغ ولا حصل له حَيلْ يحتالي
تشقْلبْ له وانقلب ولهبه لا شك فطن له
ولي ينظر المخلوق في سابع سما عالي
شهق عند الطلوع وطاح من جرجور منذلّه
أخذْ مقداره، لا يشعر ولا يبصر ولا يسالي

هذا حاله في الحب، وهو في تعاسته قريب من وصف العامري المسكين:

كـأن فـؤادي فـي مـخـالـب طـائـر
إذا ذكـرت لـيـلـى يـشـد بـه قـبـضـا
كـأنّ فـجـاح الأرض حـلْـقـةُ خـاتَم
عـلـيَّ، فـلا تـزداد طـولاً ولا عـرضـا

هذا، والمطاردة العجيبة، التي أقامها (السهيلي) في قاع اليمّ، كأنها انعكاس للطراد الذي صنعه (الحرْدلّو) في كبد السماء:

الـبـارحْ أنـا وقـصـبـةْ مـدالـقْ الـسَّـيـلْ
في ونسه وضحك لا منْ قسمنا الليلْ
وقـتـيـنْ (الـنّـعـام) اتـشـقْـلَـبنْ بـه (الخيـل)
لا بـخـلـتْ، ولا جـادتْ عـلـيْ بـالحيـلْ

إنما شتان بين الحالتين و(النعام) و(الخيل) مجرتان في السماء، ولا شك أن شُراح الشعر على مذهب (فرويد)، يجدون في (شقلبة) السهيلي، و(شقلبة) الحردلّو، مرامي أبعد مما يبدو لأول وهلة.

انتبه إلى موهبة محمد بن علي الشرهان، نفر من الأساتذة، منهم أبو عبد الرحمن بن عقيل، الذي قال عنه بلطفه المعهود:

«وأما محمد بن علي الشرهان، فقد بهر الحضور بكثرة محفوظه (...) وهو عليم بدلالة الشعر، والعلم بدلالته ثقافة عريضة ما فيها من شك، لأنها ديوان القوم غير المكتوب أيام عاميّتهم وأميّتهم (...) وأيام الأمية وقبل التدوين، كان أمثاله ندماء الكبراء يعمرون بهم المجالس».

وقال عنه عبد العزيز محمد الذكير:
«يجعلك الشرهان لا تفتقد شيئاً من أبعاد القصيدة ومعانيها ومناسبة الحدث. ومهما طالت القصيدة فنفس هذا الرجل أطول منها».

وقال عنه عبد الرحمن بن محمّد السّدحان:
«وحين يروي محمد الشرهان حكاية أو يصف موقفاً، تودّ ألّا ينتهي رواية أو وصفاً. وإذا شاء هو أضاف للموقف بدايات وهوامش ووصفاً (كاريكاتورياً) ساخراً يزيد المواقف متعة، ويضاعف رغبة المتلقي في الاستماع إليه حتى النهاية».

وقرظه الشيخ الفقيه عثمان الصالح قائلاً:
«إن ما ينقله الشرهان من الشعر العفّ، والقصائد المطوّله، وحسن الأداء، مما يُجمِّل المجلس ويُعطيه شذى وعَبَقاً».

وأشهد أن ذلك كله حق، كما لمست بنفسي في ليالي (الخيمة) التي عمرت بالشرهان وأضرابه.

١٢

أنشدنا في إحدى ليالي (الخيمة)، شاعر شاب اسمه منصور البيطي، قصيدة لفتت انتباهي بحيوية الشباب الواضحة عليها، يقول في مطلعها:

أنا اخترتك يا بنت الناس ماذْري ليشْ
وَعشقت اللّيش وأعشقُ لسْعة الواشي

يقول فيها:

ما دام أنك نظر عيني، رمشت شويشْ
عشان الجفن ما يجرحك برماشي
ويحلى العمر في قربك ويحلى الطّيشْ
بغيت الرّوح من مشى بها طاشي
وكنَّك فرد وما له فرد وكنّك جيش
تثور بيوم وتفتنْ غير من عاشي

قافية (الشين) رغم رقتها، ليست كثيرة في الشعر. ديوان المتنبي مثلاً، ليست فيه إلّا قصيدة واحدة بتلك القافية، وهي القصيدة التي مطلعها:

مـبـيـتـي مـن دمـشـقَ عـلـى فـراشٍ
حـشـاهُ لـي بـحـرّ حـشـايَ حـاشـي

وعند الحسن، ست قصائد قصار بقافية (الشين) كلُّهن من سقيم شعره. يقول في إحداها:

أقـول لـه يـومـاً وقـد شـفّـنـي الـهـوى،
أطـلـتَ عـذابـي فـيـك يـا خـيـر مـنْ نـشـا
فـقـال: أَلـمَّـا يـأُن أن تـتـرك الـصّـبـا؟
ومـا لـكَ يـا هـذا؟ ومـا لـي؟ ومـا تـشـا؟

وغيْلان القرْم، ليس في ديوانه ويا للغرابة، قصيدة واحدة بقافية (الشين)، مع أنها قافية كأنها ابتُدعت له. ولكنه فعل الأعاجيب بجارتها (قافية السين):

تـبـسّـمـنَ عـن غُـرّ كـأنَّ رضـابَـهـا
بـذي الـرّمـل مـجَّـتْـه الـعـهـادُ الـقـوالـسُ
وخـالَـسَ أبـوابَ الخدور بـعَـيْـنـه
عـلـى شـدّة الخوف المحـبُّ الـمُـخـالـسُ

وهذا البيت الأخير سطا عليه البحتري على أنه أحسن السطو، في قوله:

ومـنـهـن مـشـغـولٌ بـه الـطـرفُ هـاربٌ
بـعـيْنيْـه مـن لحظ المحب الـمُـخـالـس

وفي ديوان محمد أحمد عوض الكريم أبو سن الملقب بـ (الحردلُّو)، أربعة أبيات فقط بقافية (الشين)، وهي ليست بذات بال، وأحسن منها أبياته التي يصف فيها هطول المطر في أرض (البطانة)، وكان بعيداً عنها. وقافيتها ليست (الشين) ولكن (الشين) تشيع في جنباتها من أولها إلى آخرها:

الخبر الأكيد قالوا (البطانة) أتْرشَّتْ
سارية تبقْبقْ لي الصباح ما اتْفشَّتْ
هاج فَحل (أمْ صريصرْ) والمنايحُ بشَّتْ
و(بِتّ أُمْ سَاق) على حدب الفريق اتعشت

وفسّر بعضهم أن (فحل أمْ صريصرْ) هو ذكر الصرصار، أي أنه هاج فرحاً بكثرة الخصب.

وعندي أن (أم صريصر) أو (أمْ ساق)، مثل (المنايح)، كلها نُوق، إذ ظاهر الوصف هو الخير الذي يحلّ بالإبل من هطول المطر ونموّ العشب.

وعند إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الملقب بـ (ود الفراش)، المولود عام ١٨٤٧، وكان معاصر للحردلّو وصديقه، ويوصف بأنه شاعر (بَرْبَرْ) في الشمال، عنده أربعة أبيات في قصيدته الطويلة التي يصف فيها رحلته من (بربر) إلى (سواكن)، وهي بقافية (الشين)، يتحدث فيها عن جمله:

من (اللايمبْ) قامْ بيَّ هايشْ
مثلْ ديك الهضاليم المرايشْ
قطع (دبَّايْ) ترى وفات (العرايشْ)
تقول سكران يَلجْ في خَبّه دايشْ

وهذا الشاعر، هو صاحب تلك الأبيات البديعة:

بَـدور ٱلـبـل بـدور فَـرْعَ الـسَّـعـيَّـه
بَـدور الـسّـيـف مـع الـدَّرقـة الـقـويَّـه
بـدور أنّـهـم (بـخـيـت) لـي ضـيـف عشـيّـه
بَـدور قـدحـاً يـكـفّـي الـتُـلـتُـمـيَّـه

(بَدورْ) يعني (يتمنّى) أو (يريد).
و(فرع السعيّة) هو القطيع من الماشية.

هذا، وقد شارك في تلك الليلة الشاعر السوداني البارع عبد الله محمد خير. ومن بعض ما أنشد قصيدته (الشينية) الجميلة التي يقول في مطلعها:

ٱلـحِـنْ نـار عَـويـشْ إنْ عـلَّـقـوهـا تـعـيـشْ
بَسْ ما إنْـتَ جاهلْ وإنْ جـفـيـتْ معـليش
قـام يـتْـمـارى يـتْـمـايَـلْ بـشـيـش وبـشـيـش
قـصْـدُه يـكـاوي حـشٌ قـلـوبْـنـا حـشّ الـعـيش

(الحنْ) من (حنان) يعني هنا (الحب)، و(العويش) هو العشب اليابس، وناره سريعة الاشتعال وسريعة الخمود، فلا بد من مواصلة إطعامها. و(علّق النار)، أي أشعلها، و(جاهل) هنا، تعني أن الفتاة صغيرة السن.

وكلمة (يكاوي) من الكي، تعني (يغيظ). و(العيشْ) تعني هنا سيقان الذّرة، فهذه الفتاة تحشّ القلوب كما تُحَشُّ سيقان الزرع بالمناجل وقت الحصاد، فوارحمتا للعاشقين.

وسلام على رُواد (الخيمة) في تلك الليالي الذين ذكرت والذين لم أذكر.

١٣

من بعض فوائد هذه المهرجانات، أنك تجدد العهد بأصدقاء، ترمي بهم وبك دروب الحياة، فلا تكاد تجدهم إلّا في مثل هذه الملتقيات. وقد سرّني أنني وجدت لطفي الخولي في مهرجان الجنادرية. كان آخر عهدي به في أصيلة عام أول، في شهر آب/ أغسطس.

الذين يعرفونه، يعرفون فيه جاذبية واضحة، وميلاً إلى الدعابة. ووراء ذلك كاتب بارع في القصة القصيرة، وصحافي رصين ثاقب النظر. يبدو لي كأنه رئيس وزراء في الانتظار.

يذكّرني بصديقنا المشترك أحمد البدّيني، الذي كان، وهو دون العشرين، مديراً لمكتب فؤاد سراج الدين، حين كان وزيراً للداخلية في آخر حكومة للوفد. وهو من فرسان الكلام، مثل أستاذهم المرحوم زكريا الحجاوي، وكامل زهيري ومحمود السعدني.

اشتهر أحمد البدّيني ـ وهو محام ـ أنه في الأيام الأولى للثورة، دافع عن الشيوعيين، ثم عن الإخوان المسلمين، فأدخلوه السجن معهم.

كنا في لندن أوائل السبعينيات، ثم فجأة قرّر البدّيني أن يعود إلى مصر، فقد كان الرئيس أنور السادات رحمه الله، قد سمح بالتعددية الحزبية، وظن البديني أنه سيجد الطريق معبّداً إلى دخول البرلمان وربما الوزارة.

وجدتُه في القاهرة بعد قرابة عام، ما يزال ينتظر. سألته لماذا لم يجعلوه وزيراً بعد؟ قال لي ضاحكاً بطريقته التي تنمّ على أنه من سلالة (عُمَدْ) في الصعيد، وجليس باشوات، ونديم بكوات ـ علماً بأنه كان متحمساً للثورة، ومعجباً بجمال عبد الناصر:

«تصوّر يا مولانا البلد دي. واحد زيّي، عنده كل المؤهلات. رئيس وزارة جاهز. ليَ سنة عمّال أنتظر. أنه حد يخبّط عليَّ الباب؟ يقول لي اتفضّل تعال استلم الحكومة؟ أما ناس ما عندهمش نظر!».

كانت لنا صحبة طيّبة في لندن، ثم في باريس. وحين تقاعد من منظمة اليونسكو، استقر في القاهرة. حين يدعوك في داره الفاخرة في حي المهندسين، يحتفي بك مثل (شيوخ العرب). يقول مزهواً إنه من قبيل طيىء، ولا بد أنه صادق، فهو يصنع كما كان يصنع حاتم طيىء.

لقيت أستاذنا الدكتور محمد يوسف نجم. إنه من هؤلاء العلماء الكبار، الذين تقوم من مجالسهم وقد استفدت شيئاً دائماً. كيف

حال أستاذنا الطلّيّ الحديث الدكتور ناصر الدين الأسد؟ قليلون يتذوّقون الشعر تذوّقه له. ويتلذذ بإنشاده. أنشدنا مرة في عمّان تلك الأبيات المحزنة للقشيري فكأننا نسمعها لأول مرة، وذلك البيت المرير، رواه وهو يضحك:

وما حسنٌ أن تأتي الأمر طائعاً
وتجزع أنْ داعي الصّبابة أسمعا

وكيف حال ذلك العالِم الجليل والإنسان النبيل الدكتور إحسان عباس؟ هل ما يزال في عمّان؟ أم عاد إلى بيروت؟ أبداً يحن إلى بيروت. ومن منّا لا يحن إلى بيروت؟

وجدت أيضاً رجاء النقاش وأحمد عبّاس صالح، افتقدنا يوسف إدريس. كان لصيقاً بهما، وبأحمد عبّاس خاصة. وقد رثياه فأحسنا الرثاء. إنما عسير أن تفكر في يوسف إدريس إلّا أنه حي، لا يكاد يستقر، لشدة ما يتأجج بالحياة. أذكره في هذا البهو في الـ (ماريوت) في هذه الأرائك الخضر، في مهرجانات سابقة، يحيط به الناس كأنهم حاشية، يصول ويجول إلى ما بعد طلوع الفجر. كان يتجلّى في تلك الجلسات، يتوقّد ذهنه بالأفكار العبقرية، والآراء المتطرفة والأحلام المستحيلة. ويسرف في الضحك.

لو أن أحداً لزمه، كما كان الرواة يفعلون في غابر الزمان، وسجّل عنه، إذاً لحفظ للناس تراثاً عجيباً.

كان طيّباً طيبة مؤثّرة، إلى درجة لم يدركها بعض الذين لم يعرفوه كما يجب. وكانت موهبته النادرة تغفر له كل شيء. وقد وصفه رجاء النقاش وصفاً دقيقاً حين قال «يوسف إدريس يخطىء في

الأشياء الصغيرة ولكنه أبداً لا يخطىء في الأشياء الكبيرة».

في تلك الليلة في دار محمود سالم في القاهرة، كان حزيناً لسبب ما. قال إنه يحس بدنو الأجل، وبكى على كتف صلاح عبد الصبور.

قال لي:
«اسمع يا طيّب. أنت تحمل الراية بعدي».

أية راية؟ ولماذا اختارني أنا بالذات؟

وما كنت أحسبني أستطيع أن أملأ الفراغ الذي يتركه يوسف إدريس.

صلاح عبد الصبور كان أسبق إلى الرحيل، وقد عاش يوسف إدريس سنوات بعد تلك الليلة. ثم درج هو أيضاً.

رحمه الله. ذهب وفي نفسه غصّة من جائزة نوبل. كان يستحقها لو أنهم يعطونها لأكثر من عربي. ولو لم يكتب إلّا مجموعته «بيت من لحم» لكان حسبه.

هذا، وقد سرّني أنني لقيت أخيراً الناقد النّابه الدكتور محمد مفتاح، أستاذ اللغة العربية في جامعة محمد الخامس بالرباط.

إنسان جمّ اللّطف، شديد التهذيب. عرّفني به ـ أو إيّاه كما يؤثر أستاذنا الدكتور عبد الله الطيب فعنده، تقول تعرّفت فلاناً ولا تقول

تعرّفت به - أقول عرفني إيّاه معجب الزهراني النجدي الذي قرأ في السوربون (أم تراه من تهامة؟). ثم صرنا نلتقي على الإفطار في النزل. وجدت بيني وبينه أكثر من وشيجة في الفكر. ولا يضحك إلّا بمقدار، ويؤثر الابتسام على الضحك. قال لي:

«الناس يقرأون ما أكتبه من نقد، فيتخيّلون رجلاً صارماً شرساً. وحين يلقونني تصيبهم الدهشة. يجدون إنساناً وديعاً طيّباً».

هذا، وأيضاً قضيت لحظات جميلة بصحبة الفنان اللبناني الكبير محمد سلمان. ذكّرني بيروت في الستينيات، ومحمود نصير وحسن المليجي، وتلك الطلول الدارسة بين (نزْلة الداعوق) والـ (سان جورج). حدّثني أن حسن المليجي قد عاد أدراجه إلى بيروت.

الذين يعرفون محمد سلمان مطرباً جميل الصوت، ومخرجاً سينمائياً رائداً، قد لا يعرفون أنه حافظٌ راوية للشعر. من بعض ما أسمعني أبيات أبي الخطّاب التي منها ذلك البيت العجيب:

وكُنّ إذا أبصرْنَني أو سمعْنَني
هرعْن فرصّعن الكوى بالمحاجر

ولا مَيْ كما قال غيلان. يرحم الله غيلان.

أصبح مهرجان (الجنادرية)، وقد بلغ عامه التاسع، مؤسسة ثقافية راسخة، وملتقى إنسانياً وفكرياً مضيئاً، يتوافد عليه الناس كل عام، من أرجاء العالم العربي كلها، ومن أفريقيا وآسيا وأمريكا. تجددت ذكريات المواسم العبقرية في عكاظ والمربد، وانتصبت في قلب الجزيرة العربية سوقٌ بضاعتها الفن والفكر والإبداع، فما أربحها من سوق، وما أكرمها من بضاعة. سوف تظل الأمة العربية بخير، مهما حدث لها، ما دامت هذه المواسم الثقافية حافلة بروادها.

صار مهرجان الجنادرية ندّاً ومنافساً لمعرض الكتاب الدولي في القاهرة، ومهرجان أصيلة في المغرب، والمهرجان الدولي للسينما في دمشق، ومهرجان جرش في الأردن، ومهرجان قرطاج في تونس. ولئن كان مربد العراق، قد خبت ناره، وانفضّ سامره، فلعل ذلك يكون إلى حين.

هذه الملتقيات في الأرض العربية، يشد بعضها أزر بعض، ويكمل بعضها بعضاً، فكأنها أصداء لصوت واحد، يتردد في جنبات هذه الأرض الواسعة، الرائعة بتنوعها وطاقاتها، الساكن منها والمتحرك. وها هنا، في قلب الجزيرة العربية، منبع الصوت، وبداية كل الذي حدث على امتداد قرابة خمسة عشر قرناً.

كل ذلك، لا يقدر بمال. بل إن المال الذي ينفق على هذه الملتقيات، مهما عظم، لا يعد شيئاً، إذا قيس بالمنافع التي تتأتى عنها.

من هذه الفوائد، أن الناس يجيئون إلى هذا البلد الناهض المتوثب. وقد يحملون أفكاراً عنه ليست كلها صحيحة. يرون شواهد مدهشة لنهضة عظيمة، يغمر خيرها الأهل والأقارب والجيران، وأبعد من ذلك. ثم هم يجالسون العلماء والمفكرين والمبدعين، ويشاركون في الندوات والأمسيات الشعرية، ويزورون الجامعات والمعاهد ودور الصحف والمطابع والمتاحف، فتتغير الأفكار الخاطئة، إن كان ثمة أفكار خاطئة، ويحل محلها إحساس بالإخاء والمودة، والإعجاب بما يُبذل من جهد عظيم.

كون مهرجان الجنادرية استمر طيلة تسع سنوات، لم يتوقف إلّا مرة واحدة في عام حرب الخليج المحزنة، لدليل على التزام الدولة السعودية برعاية الثقافة والفكر، وهو التزام يزداد ويتعمق عاماً بعد عام. وقد عبّر الأمير فيصل بن فهد الرئيس العام لرعاية الشباب، ونائب رئيس اللجنة العليا للمهرجان ـ عبّر عن هذا الالتزام، في الكلمة التي ألقاها في افتتاح النشاط الثقافي، وجاء فيها:

«إن بين هذه البلاد، وبين الثقافة العربية والإسلامية، وشائج لن تنقطع بإذن الله. وليس ذلك بمستغرب على موطن الوحي ومهد العروبة ومنطلق الرسالة. فلم تتوقف المملكة العربية السعودية في حاضرها على ذكرى المآثر الخالدة منذ بزوغ شمس الإسلام، وتشرّف عرب الجزيرة بحمل لوائه وجهاد النفس في سبيل نشره. ولكنها دعوة لمزيد من العطاء المحقق والمستمر مع كل أقنية الفكر والثقافة في عالمنا العربي والإسلامي، وفي مجتمعنا الدولي بأسره...».

كذلك عبّر عن هذا المعنى، الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري، نائب رئيس الحرس الوطني المساعد، في كلمته التي ألقاها في افتتاح المهرجان بحضور ولي العهد، الأمير عبد الله بن عبد العزيز. وكان الشيخ عبد العزيز التويجري يتوجه بكلمته إلى خادم الحرمين الشريفين، الملك فهد بن عبد العزيز وقد جاء فيها:

«ما قام هذا المهرجان على عصبية ذميمة وضيق أفق بكل ما هو إنساني وحضاري، فقد أردتم أن يكون منه مدخل واسع إلى تراث عربي وإسلامي، تلتقي من حوله رعايتكم له، واهتمام أبناء أمتكم به، إلى أن يصل بنا هذا إلى دولة الملك عبد العزيز رحمه الله، التي أقامها على أبواب عصر الاكتشافات العلمية وهي ما تتعاملون معها اليوم في هذه الظروف بحكمة وبُعد نظر إن شاء الله.

فلنحمد الله على ذلك يا خادم الحرمين الشريفين (...) فما دخلت التاريخَ دمشق الأموية، أو بغداد الرشيد أو قاهرة المعزّ، أو سواهم، إلّا برسالة الإسلام وقيمه ومثله العليا.

ولولا عزّة الإسلام وروحه وإنسانيته لما كنا ولا كانوا أعلاماً على مشارف التاريخ يوحّد بيننا المعتقد الواحد والرسالة الواحدة في الوجود الواحد».

١٥

كنت أحادث عبد الوهاب البياتي في بهو نُزل (قصر الرياض). ولا أدري كيف ورد اسم عبد الأمير المعلاّ. قال البياتي «مات مسكين». قلت له مذعوراً «لا يا أخي، متى؟». «منذ بضعة أشهر. أصيب بانفجار في المخ». «لا حول ولا قوة إلّا بالله».

كان من الناس الذين أودّهم وآنس إليهم. ألقاه كل مرة، خلال زياراتي المتعددة لبغداد، أيام عملي في وزارة الإعلام القطرية ثم في منظمة اليونسكو.

تذكّرت ليلة سهرناها في مطعم (خان مرجان) الجميل. كان يومئذٍ وكيلاً لوزارة الإعلام، يلبس زياً عسكرياً ـ مثل سائر كبار موظفي الدولة ـ لا يناسبه ولا يَخيل عليه العسكري المحترف، الزي كأنه جزء من جسمه، مثل جلده.

كان كاتباً روائياً مجيداً وإنساناً لطيفاً مهذّباً. وكان واضحاً لي أنه يكبت في نفسه ألماً عظيماً بسبب تلك الحرب. تلك الأيام كانت ذروة الحرب العراقية ـ الإيرانية، ولم يكن مؤكداً أن العراق سوف ينتصر.

اقترح شخص منا أن يغني كل واحد أغنية من بلده. غنّت الشاعرة المغربية مليكة العاصمي أغنية مراكشية. مراكش هي مدينتها ومعقلها، لكنني لا أذكر الآن إلّا أصداء بعيدة من الصوت العذب الهامس الذي يعرفه كل من استمع إليها تنشد شعرها. وغنت الكاتبة الروائية إقبال بركة أغنية مصرية خفيفة. وأنا غنيت لهم أغنية ليست محزنة، ولكنها تحرك الكَمد في القلب المقروح أصلاً:

يَجْلي النّظْر يا صاحِ
منظر الإنسانْ،
الطَّرفُه نيام وصاحي.

ثم غنى عبد الأمير المعلاّ أغنية لم أكن سمعتها من قبل، علق بذهني منها هذان البيتان:

يا زارع (البدر نجوش) ازرع لنا حنّه
وجمالنا راحنْ للشام وما جنّه

أرجو ألّا تكون الذاكرة قد خذلتني. ولماذا لا تخذل بعد كل هذه الأعوام؟ هل (البادرنجوش) بالدال أم الذال؟ والجيم أم القاف؟ وهل هو نوع من الزهر أو الريحان؟

كان صوته حزيناً جداً مشحوناً بالشجن كما هو شأن العراقيين في

مثل تلك الأحوال. وانتشر الحزن على وجهه كله ودمعت عيناه. وقصة الأغنية محزنة كما قصّها علينا. فتى أحب فتاة، وتركها وسافر إلى الشام، على أن يعود إليها وشيكاً ومعه المال فيتزوجها. لكن غيبته طالت، وعاد بعد سنوات وقد تقدّم به العمر جداً وشاخ.

سأل عن حبيبته فعلم أنها تُوفيت. جلس ساهماً في مقهى، ورأى بائع (البادرنجوش) وتذكّر الحنّاء والأفراح والعمر الذي ضاع.

وأنا طليحُ أحزان، وأكثر ما أحزنني، الجِمال التي سافرت إلى الشام ولم ترجع، ولأننا كنا في بغداد، والزمان زمان حرب، فقد تخيّلت قوافل الأحلام العربية، دائماً تسافر، ودائماً لا تعود.

ثم جئت إلى بغداد في مهرجان (المربد) الذي احتفلوا فيه بالنصر. كنا نعلم أنه نصر مثل الهزيمة. كنتُ قبلاً قد سافرت من بغداد إلى النجف وكربلاء، بالسيارة. تمر بنا على طول الطريق ناقلات تحمل جثث القتلى موشّحة بالسواد.

في كربلاء، كانت المشاهد داخل الضريح وحوله، أمراً لا يحتمله القلب. يجيئون بجثث قتلى الحرب جثماناً بعد جثمان، يدخلون بها الضريح ويخرجون، النعوش مُجللة بالسواد، ونساء كربلاء في عباءاتهن السود، كأنهن لم ينزعنها منذ قرون. والبكاء والعويل. وكنت أعلم أن عبد الأمير المعلّا ينتمي إلى ذلك العالم، وهو عالمٌ واحد على عُدْوتي الصراع: القتلى القاتلين، والقاتلين المقتولين.

كانوا فرحين بالنصر في بغداد، وكان عبد الأمير المعلّا ما يزال وكيلاً لوزارة الإعلام، ما يزال يلبس بزّته العسكرية. توالى الشعراء

على المنبر، شاعراً بعد شاعر، ينشدون نصر العراق. ولا أخفي أن العدوى انتقلت إليَّ، فأنا بعدُ من غزيّة، أن غوتْ غويتُ.

جلست وصنعت قصيدة بـ «الدوبيت» وقلت لعبد الأمير يعطيني المكروفون لبضع دقائق، ولا يسألني ماذا سوف أقول. لكنه لم يقبل، وقال لا بد أن يُعرض النص على اللجنة المختصة.

ثم ذات مساء، قرأتها عليهم في مجلس خاص، وقلت لهم هذه هي القصيدة التي لم تسمحوا لي بإلقائها. كان شعراً لا يُؤْبَه له، لأنني لست شاعراً ولم أكتب شعراً من قبل. لكنهم طربوا للقصيدة أيّما طرب، فقد كان فيهم استعداد للطرب، في تلك الظروف.

مات عبد الأمير المعلّا رحمه الله، بانفجار في المخ. وبغداد التليدة، لا تزور ولا تُزار أغلقت الدروب وهدمت الجسور. الأصدقاء يموتون ولا نسمع بموتهم.

وقوافل الأحلام العربية، تسافر، تسافر، ولا تعود.

١٦

وصلتُ الرياض بعد منتصف الليل، ووجدتها باردة مبللة بالماء. كان المطر قد كفَّ لتوه. لندن أيضاً، كانت حين غادرتها ممطرة ترتعش من البرد.

إلّا أن مطر الرياض شيء آخر، الأرض الصحراوية الظمأى أحياناً لسنوات تتضوّع بعطر لا يمكن وصفه. ذكّرني بالنيل حين يمتلىء صدره بالغيظ ويفيض على الضفتين، والبرم، زهر الطلح، والقرظ، ثمر السُّنْط، والسّيال والحَراز، والحطب المبتل، وطَلْع النّحل حين يتهيأ للّقاح.

هذه روائح الحياة تستيقظ من النّوم ـ ليس الموت ـ وقد دوّخت الشعراء العرب من قديم، وأسرت قلوب الأوروبيين أمثال (لورنس العرب). كره البَلل المفرط في بلاده، وأحب الجدب واليباس، لولا

أن حبه للعرب لم ينفعهم بشيء.

هطل المطر على الرياض وبلاد نجد، كما خبّروني في ما بعد، هطولاً لم يحدث مثله منذ سنوات. وقد رأيت آثاره بعد أيام من وصولي، في الطريق إلى (الدرعيّة)، حيث دار عبد الله الناصر الذي ألحّ رغم مرضه أن نتغدى معه. هذا فتى أخو إخوان، (ود قبايل)، كما نقول بلهجتنا.

نزعت الأرض ثوبها الخلق، ولبست الثوب الذي نسجه لها غيلان العبقري. هل رأيتَ منظراً أجمل من منظر الوديان وهي تسيل في البلد القفر؟ أو فيها بقايا ماء متقطع؟

أشجار الأرطى استضافت ثور ذي الرمّة، بعضها يابس يشهد على سنوات القحط، وبعضها مخضرّ مستجيباً لهبة الله التي جاءت فجأة على غير موعد.

الطرفاء أكبر مما عندنا في وادي النيل، والطلح أصغر. والسيال والرّمث والعُشر. العشب يغطي وجه الأرض على مدّ البصر، والأزهار فوضى الألوان. وأحياناً قطعان من الضأن. وأحياناً من الإبل. وأناسٌ ليسوا بدواً، نصبوا الخيام هنا وهناك، وغابات النخل في وادي حنيفة، ليست كثيفة كما في وادي النيل وسواد العراق. لكن النخل ـ لعارفيه ـ هو النخل. واحدة تكفي لتحريك الخيال والشجن.

النخل والنساء. وكأنّما بعضُ النساء، في عذوبتهن وكرمهن وصبرهن ووقارهن، واعتدال قدودهن، وغزارة فروعهن، قد انحدرن

من بعض سلالات النخل.

غير بعيد من دار عبد الله الناصر، مواقع معارك الردّة الشرسة التي قادها سيف الله خالد بن الوليد ضد مسيلمة وقومه. دخلنا الحديقة حيث دارت أشرس المعارك. استشهد من حَمَلة القرآن، كما حدّث الرواة، ما بين سبعين إلى ثمانين قارئاً.

كان بين الشهداء زيد بن الخطّاب، أخو عمر، وقبره ثمّة موجود إلى اليوم. لمّا رأى زيد أن المسلمين قد انكشفوا، حفر لنفسه حفرة ووقف فيها، وظل يقاتل حتى قُتل. ومثله فعل جُلّ الصحابة رضوان الله عليهم.

تكاد تسمع أصوات الشعراء النجديين الفحول إذا أرهفت السمع. والدهناء، غير بعيد كما أخبرني عبد الله، حيث غنّى غيلان كما لم يُغنّ أحد:

تحنُّ إلى ميٍّ كما حنّ نازعٌ
دعاه الهوى فارتاد من قيده قصْرا
فقلت اربعا يا صاحبي بدمْنة
بذي الرِّمث قد أقْوت مرابعُها عصرا

قلتُ إنني وصلت بعد منتصف الليل، ولما دخلت (قصر الرياض) كانت الساعة نحو الثانية. وجدتُ جماعة من ضيوف المهرجان يسمرون، فيهم عبد الوهاب البياتي ونجم عبد الكريم. بعد أن وضعت حقيبتي في الغرفة عدتُ إليهم، ولم نتفرّق إلّا حين أذّن مؤذّن الفجر.

البياتي يبدو متعباً، ولكنه يسهر ويدخّن. ونجم عبد الكريم يحوطه برعايته كما يرعى الابن أباه. نجم قد يبدو إنساناً خشناً في نظر بعض الناس، لكنه في الحقيقة إنسان عطوف رقيق القلب.

الفيتوري في البلد لكنه ليس معهم. بينه وبين البياتي كما كان بين جرير والفرزدق. يتصنّعان الخصومة على غير عداء. حين يُسأل البياتي عن الفيتوري يقول «هل يوجد شاعر اسمه الفيتوري»؟ والفيتوري يقول حين يُسأل عن البياتي «هل هو ما يزال حيّاً»؟

لكنني كنت متأكداً أن أحدهما لو رحل ـ بعد عمر طويل إن شاء الله ـ فسوف يبكي الآخر كما بكى جرير حين بلغه نبأ وفاة الفرزدق. بكى وقال:

ذهـب الـفـرزدقُ بـعـدمـا جـدّعـتـهُ
لـيـت الـفـرزدق كـان عـاش قـلـيـلا

١٧

الاهتمام والعناية اللذان بذلهما شباب الحرس الوطني لضيوف مهرجان الجنادرية ـ كما يفعلون كل عام ـ أمرٌ مؤثر حقاً.

هؤلاء الشباب المضيئو الوجوه، أخذهم الحرس الوطني من شتّى بقاع المملكة، وصهرهم في بوتقة واحدة. أعطاهم الانضباط والحزم والعلوم، ولكنه لم ينزع منهم سجاياهم العربية المتأصلة، من نخوة، وسماحة طبع وبشاشة وجه.

تجدهم في المطار يستقبلون القادم ويودّعون المسافر، في ساعات متأخرة من الليل وفي بواكير الصباح. وفي نزل (قصر الرياض)، حيث يظلون مع القادم حتّى يدخلوه غرفته ولا يتركونه حتى يتأكدوا أنه قد اطمأنّ في محلّه.

لا توجد مشكلة إلّا ويجدون لها حلاً، وهم يبذلون ذلك الجهد كلّه عن طيب خاطر، ودون أي ملل أو تبرّم. ولو لم يكن في الجنادرية شيء غير المعاملة الكريمة من أولئك الشباب لكفاه فخراً، ولكنّ مهرجان الجنادرية ينطوي على معان كثيرة إلى جانب ذلك.

إنهم يستحقون أن ينوّه بهم ويثنى عليهم. ولولا ضيق المجال لذكرتهم جميعاً بأسمائهم.

الرجل الذي كان مرابطاً بالهوتيل طوال فترة المهرجان، معسكراً في مكتبه المؤقت بالليل والنهار هو حسن خليل: هذا الإنسان المتميّز بحق هو رئيس تحرير مجلة «الحرس الوطني»، ويعمل أيام المهرجان مشرفاً مقيماً، ينسّق جهود أولئك الشباب، بالإضافة إلى تحرير صحيفة «مهرجان الجنادرية» التي تصدر يومياً.

عرفت حسن خليل منذ أخذت أحضر مهرجان الجنادرية في سنواته الأولى. كان تلك الأيام يعمل تحت إشراف صديقنا العزيز، الرجل الفاضل عبد الرحمن الشثري. ثم كبر مهرجان الجنادرية، وتنوعت نشاطاته، وكثر زواره.

لم يتغيّر حسن خليل. ظل كما عهدته دائماً، العمل المخلص الدؤوب، وسماحة النفس وبشاشة الوجه، إنه نموذج لرعيل من الشباب، يعطون المملكة العربية السعودية صورة مشرقة لدى كل من يتعرّف إليهم.

منهم أيضاً فيصل المعمّر، وكيل الحرس الوطني للشؤون الثقافية والتعليمية، ونائب رئيس اللجنة التنفيذية للمهرجان. وهو وجه

جديد نتعرّف به هذا العام، وقد كان دائم التردّد على ضيوف المهرجان بالهوتيل، وترك أثراً حسناً في نفوسهم جميعاً. كذلك الدكتور عبد الرحمن السبيت، وكيل الحرس الوطني للشؤون الفنية، ورئيس اللجنة التنفيذية للمهرجان، وهو إنسان عرفناه منذ زمن وعرفنا مدى إخلاصه في عمله.

هذا وقد نمت على امتداد المواسم الماضية روح يمكن أن توصف بـ (روح الجنادرية) وهي روح من التواصل والتفاعل الخلّاق بين ضيوف المهرجان والمسؤولين والمثقفين في المملكة. وقد عبّر الدكتور علي حرب الذي تحدث باسم المدعوين في حفل افتتاح الفعاليات الثقافية ـ عبّر عن أهمية مهرجان الجنادرية بقوله:

«على المستوى العربي يشكل المهرجان مجالاً للتداول الفكري والمعرفي، سواء عبر الندوات أو عبر اللقاءات الحيّة في ردهات الفندق بعد انفضاض الجلسات (...) وعلى المستوى الدولي يشكل المهرجان أفقاً للتواصل بين الثقافات لأنه يتناول قضايا تستأثر باهتمام الإنسان المعاصر بصرف النظر انتماءاته المختلفة...».

١٨

الدكتور منصور الحازمي صديقي منذ زمن، لا أذكر منذ متى. يعجبني فيه صفاء الذهن، والوضوح والصراحة في الرأي، وأنه لا يتأثر بالموضات الأدبية العابرة. كان عميداً لكلية الآداب بجامعة الملك عبد العزيز بالرياض، وعمل فترة عضواً في مجلس الشورى. وذلك عندي من الأدلة البيّنة أن مجلس الشورى في المملكة العربية السعودية ليس شيئاً صوريّاً، لأن منصور الحازمي وأمثاله ـ وهم كثر ـ لا يفتقرون إلى الرأي، ولا إلى الجرأة على إبدائه.

نلتقي من وقت إلى آخر في المؤتمرات الأدبية. أفرح حين أجده، لأنه دائماً يعبّر عن آرائه بروح تنزع إلى الدعابة والمرح. وهو رغم رصانته، من هؤلاء العلماء الذين لا يأخذون أنفسهم مأخذ الجد. دائماً يجد وجهاً للطرافة في أي قضية. وكثيراً ما تكون دعاباته من الأشياء التي تعلق بالذهن، بعد أن

تنفضّ المؤتمرات، وينسى الإنسان كثيراً مما استمع إليه.

تزاملنا مدى أربع سنوات في لجنة (التخطيط الشامل للثقافة العربية) برئاسة الرجل النادر المرحوم الأستاذ عبد العزيز حسين. كان ضوءاً لامعاً في الجزيرة العربية، الملأى بالأضواء، مثل سائر بقاع الأرض العربية، ولكنّ ضوءاً يَفْرق عن ضوء.

أنشأها الدكتور محيي الدين صابر، المدير العام السابق للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وأنفقت عليها دولة الكويت بسخاء.

كانت تضم رجالاً فضلاء ذوي علم وسَبْق. نجتمع في الكويت وفي تونس، ومرة استضافنا الدكتور عبد العزيز المقالح في صنعاء.

كانت أياماً جميلة، وكان أجمل ما فيها أننا نحن أعضاء اللجنة ـ وكان عددنا قليلاً ـ تعارفنا معرفة حقيقية، فكرياً وإنسانياً. أما ماذا بقي من ذلك الجهد؟ الله أعلم. طُبعت التوصيات في سفر ضخم، وتُرجمت إلى الإنجليزية والفرنسية، ووزّعت على وزارات الثقافة في العالم العربي وكل من يهمّه الأمر. وقد أشرف على ذلك، مقرر اللجنة المرحوم الدكتور شاكر مصطفى، ذلك الرجل الهام الذي فقدته الحياة الفكرية العربية.

هل أحد استفاد من التقرير؟ هل أي وزارة من وزارات الثقافة العربية عملت بأيٍّ من التوصيات؟ الله أعلم. ويحزنني أن أقول من خبرتي في ميدان العمل العربي المشترك في الإعلام والثقافة، أن في تلك المجالات على أي حال، شيئاً من أمر ساقية جحا، تغرف من البحر وتصب في البحر.

لا جَرم، فقد كانت مُنىً كما قال الشاعر القديم، إن لم تصدُق فقد عشنا بها زمناً رغداً. تعرّفنا إلى أخوة صالحين، وزُرنا بلاداً عربية ـ وهو في حد ذاته فائدة ـ واستمعنا وتحادثنا وسمرنا وضحكنا. ولعل ذلك كله لا يذهب هباء في نهاية الأمر.

هذا، وقد تعرّفت بواسطة منصور الحازمي إلى الدكتور عزت خطاب أستاذ الأدب الإنجليزي ورئيس قسم اللغة الإنجليزية بجامعة الملك عبد العزيز. وهو أيضاً من هؤلاء الناس الذين يألفون ويؤلفون. وتعرّفت بواسطتهما في زيارتي لمهرجان الجنادرية، بالأستاذ منصور الخريجي مساعد مدير المراسم في الديوان الملكي. وهو من نسقهما وعلى شاكلتهما.

لا عجب، فهم كما علمت، أخدان صبى، ورفقاء دراسة، منذ عهدهم بالمدرسة الثانوية في مكة المكرمة ثم في جامعة القاهرة. ولا أدري هل أدرك غازي القصيبي عهدهم ثمة، فهو أصغر منهم سنّاً كما لا يخفى.

أهدي إليّ منصور الخريجي كتاب سيرة حياته الذي سماه «ما لم تقُلْه الوظيفة». قرأته حين عدتُ إلى لندن في قعدة واحدة. إنه ـ لعمري ـ من أجمل السير الذاتية التي قرأتها لأي من العرب المعاصرين، وأرجو أن أكتب عنه في المستقبل إن شاء الله.

كذلك استفدت فائدة أخرى. أعطاني منصور الحازمي ديواناً لإحدى طالباته في قسم اللغة العربية بالجامعة، اسمها أشجان الهندي. وهو ديوان صغير الحجم مضيْتُ عليه في نحو ساعة واحدة. ولكن يا له من شعر، إنما تلك قصة أخرى.

١٩

أسفت أنني لم أجد عبد الله الجفري في الرياض، فقد عاد إلى جدة يوم وصولي. حين لقيته في دار عبد الله الناصر في لندن، كان ودوداً بشوشاً كعهدي به، واتفقنا أن نلتقي بعدها، ولكنه سافر فجأة. وعلمت من عبد الله الناصر أنه أحسّ بالإعياء. وكأنه خاف أن يحدث له شيء في بلاد الغربة ـ لا سمح الله.

معروف أن الجفري يعاني من ذات القلب، مثل صديقه العزيز وصديقنا نزار قباني. وقد أجريت له عملية كبيرة منذ بضعة أيام.

وما له يُصاب بذات القلب؟ هذا إنسان متيّم بحب العرب والعروبة، يحمل قلبه على راحتيه، ينشر الودّ، ويستنهض العزائم، يمجّد الخيرين ويدعو للمرضانين ويرثي الراحلين، وينشد أغاني العشق للعاشقين. كل ذلك بأسلوب خاص به لا يحسنه غيره.

كنت متواصل الترحال في الأشهر الأخيرة، فلم أنتبه إلى أن الجفري توقف عن الكتابة. ثم لما عدت إلى لندن، نظرت إلى الصفحة الأخيرة في جريدة «الحياة». فإذا جانبها الأيمن قد أظلم تماماً، كأن حديقة غنّاء مزهرة قد حفروا أرضها وصبّوا عليها الإسمنت.

اختلّ التوازن في صفحة «الحياة» الأخيرة. بين عبد الله الجفري على اليمين، وجهاد الخازن على اليسار، علاقة (جدلية) ـ كما يقول أصحابنا. هذا يهجو (نتنياهو) وإسرائيل وأمريكا بأسلوبه الحلو المرير، وذاك يبدأ بالشعر ويختم بالقبل، وإذا شتم (سيدة القوة) ـ كما يسميها، فإنما يفعل ذلك بطريقته التي هي أقرب إلى الحزن منها إلى الغضب. كأن قلبه لا يحمل حقداً ـ حتى على أمريكا.

خفت أن يكون حدث له شيء، إلى أن طمأنني عبد الله الناصر في الرياض، أن الجفري بخير وسوف يعود إلى الكتابة. وقد عاد، فأهلاً به ومرحباً.

وما أروع حب عبد الله الجفري لنزار قباني أمير عشاق الأمة العربية الشموس، هو أيضاً أصابه حبه للعروبة بذات القلب، وكاد يودي به مؤخراً، لولا عناية الله.

نحن كلنا، وملايين العرب في مشارق الأرض ومغاربها، نحب نزار قباني. ولكن أحداً منا لم يعبّر عن حبه كما فعل الجفري. ظل يدعو ويبتهل ويهش الموت عن صديقه، حتى استجاب الله الدعاء ونهض الشاعر الكبير من رقدته.

هذا، ولا بد أن قراء «المجلة»، قد افتقدوا عوني بشير في صفحة

(مربط الجمل). وعوني لمن عرفه، إنسان نادر المثال في دماثته ورقته ومرحه. ولكنه حين يكتب، فهو يفعل ذلك بأسلوب حارق له مذاق (الشطة) حين تعصّر عليها الليمون.

وهي كلها أنواع من الحب. ووراء العنوان سخرية ليست خافية، فهو يقصد (مناخ الجمل) وليس مربطه. كأنه يريد أن يقول إن هذا الجمل العربي قد آن له أن ينهض من (إناخته)، كما وصف مولانا أبو الطيب:

ذراني والفلاة بلا دليل
ووجهي والهجير بلا لثام
فإني أستريح بذي وهذا
وأتعب بالإناخة والمقام

ظل يهيب بالجمل أن ينهض بشتى الوسائل. بالتوسل والرجاء والسخرية والهجاء الصّراح أحياناً. والجمل ـ لحد الآن ـ كأن في أذنيه وقراً.

هذا أيضاً إنسان أضناه حب العرب والعروبة، حتى أصابه بذات الرئة. في فترة بين أسفاري زرته في المستشفى، فوجدته نحيلاً متعباً تحت وطأة المرض. ورغم ذلك تحدث معي حديثه العذب كعهده دائماً، وأضاءت وجه المتعب ابتسامته الصافية التي يتميّز بها.

أسأل الله له الشفاء وأن يعود قريباً إلى الكتابة، فلا أظن أن الجمل العربي ينهص إلّا بجهده وجهد أمثاله.

ولله در أبي الطيب العظيم، كأنه وصف عوني بشير ومن هم على شاكلته حين قال:

يـقـول لـي الـطـبـيـب أكـلـت شـيـئـاً
وداؤك فـــي شـــرابـــك والـــطـــعـــام
ومـــا فـــي طـــبـــه إنـــي جـــوادٌ
أَضـــر بـــجـــســـمـــه طـــول الـــجَـــمـــام
تـــعـــود أن يُـــغـــبِّـــر فـــي الـــسّـــرايـــا
ويـــدخـــل مـــن قَـــتـــام فـــي قَـــتـــام
فـــأُمْـــسِـــك لا يُـــطـــال لـــه فـــيـــرعـــى
ولا هـــو فـــي الـــعـــلـــيـــق ولا الـــلـــجـــام

كلمة (حوار) ترد كثيراً على لسان هذا الشيخ العتيد. في كتاباته وخطه وأحاديثه. وخلال أكثر من عشرين عاماً أسعدني الحظ بمعرفته فيها لا أذكره إلّا محاوراً بالمعنى الشامل للحوار، حيث الأفكار تغدو وتروح، يسيرة خالية من التوتر، كأنها حبّات من أطايب تمر المدينة.

كتُبه الرصينة التي ظلت تتْرى منذ كتابه «في أثر المتنبي بين اليمامة والدَّهناء»، هي في بعض وجوهها محاورات مع المتنبي وأبي العلاء والبترول والصحراء والتاريخ والحاضر والمستقبل. تجد في تلك الكتب سمات عقل أصيل (قح) ظل محتفظاً بصفائه الأول ودهشته وجموحه البكر. لم تختلط عليه الأمور، ولم تعكر صفاءه الأفكار والنظريات المصنّعة.

دائماً يقول لأصدقائه وزوّاره من الأساتذة والمفكرين ـ وهو بين الجاد والهازل ـ أنه لم يتعلم في مدرسة ولم يتخرج من جامعة لكنه في الحقيقة يكون دائماً أقدر ممن حوله على النفاذ إلى صميم الأشياء. كأنه شيد لنفسه جامعة خاصة به، يأخذ منها ما يناسب طبعه ويتمشى مع سجيّته المبدعة. يخلط كل ذلك مع مشاهداته وتأملاته وخبراته مع الناس والحياة، في بوتقة عقله غير العادي.

وهو عقل كأن له آفاقاً لا محدودة، لا يزعجه ولا يصدمه رأي مهما كان غريباً أو متطرفاً. يستمع أكثر مما يتكلم، وحين يتكلم يعيد صياغة الرأي النافذ وينزع منه الغرابة والتطرّف.

في إحدى زياراتي للرياض، اصطحبت معي إلى دار الشيخ الشاعر اللبناني الموهوب طلال حيدر، ولم يكن تعرّف إلى الشيخ من قبل. وجدنا المجلس عامراً، كما يكون دائماً.

فيه الأخضر الإبراهيمي والدكتور مصطفى الشكعة وبلال الحسن والفيتوري والدكتور ميلاد حنا والهاشمي الحامدي ونجم عبد الكريم. ونجم من الناس الذين يأنس إليهم الشيخ. وكلمة «أنيس» من الكلمات التي يؤثرها وهي عنده غاية الثناء، يقول «فلان أنيس».

لم يلبث أن جاء شاب سعودي ومعه رجل تونسي اتضح فيما بعد أنه أستاذه في الجامعة. ما إن استقر به المجلس حتى قال للشيخ إنه يُعدّ أطروحة ماجستير عن كتبه، ولكن بعض أصدقائه نصحوه ألّا يمضي فيها، وأن أحدهم قال له: «هل أنت متأكد أن الشيخ هو الذي كتب هذه الكتب»؟

نظرت إلى طلال حيدر ونظر إليَّ متعجّبين من جلافة ذلك الشاب وجهله، كما تعجّب كل من في المجلس، وأطرق أستاذه حياء. ولكن الشيخ ابتسم، ونظر إلى الشاب نظرة فيها رثاء ولم يقل شيئاً.

ذهب الحديث مذاهب شتى في دار الشيخ ذلك المساء. وكنت أحس بطلال حيدر إلى جانبي يزداد إعجاباً بما يسمع من الشيخ ويتورط أكثر فأكثر في أسر جاذبيته. وفي أخريات المساء طلب من الشيخ أن يهدي له كتابه عن الملك عبد العزيز، وقد سماه «لسراة الليل هتف الصباح». دائماً يختار عناوين كتبه بعناية عظيمة. العنوان إغراء لما سوف يأتي.

حينئذٍ أملى عليَّ الشيخ عفو الخاطر إهداء ملأ صفحة كاملة دون توقف، وكأن الكلمات والجمل تفد عليه وفوداً. كان الإهداء في حد ذاته قطعة أدبية مكتملة.

هبَّ طلال حيدر من مقعده وقبّل جبهة الشيخ. ولما خرجنا قال لي «أنا حبّيت الشيخ هيدا من كل قلبي. شو هادا الإنسان؟ أنا بحياتي ما شفت حدا متله».

كنت أعرف أن الإهداء هو ردّ الشيخ على جلافة ذلك الشاب وبقية الجهلاء أمثاله الذين لا يصدّقون أن رجلاً نجدياً متوقّد الذهن، متّسع الآفاق، عالي الهمّة، نافذ البصيرة، لم يدخل مدرسة نظامية ولا نال شهادة جامعية، يستطيع أن يكتب مثل أساتذة الجامعات، بل أفضل أحياناً.

كان الشيخ صادقاً مع نفسه ووفيّاً لطبعه حين قال في خطبته في

افتتاح مهرجان الجنادرية الثالث عشر:

«... ما كان لهذا الحضور أن يغفل استحضار ذلك الرُّكب الصغير الذي قاده مؤسس مملكتنا الحديثة الملك عبد العزيز ـ غفر الله له ـ فعبد العزيز الشاب قائد الرحلة التاريخية سيظل حواراً لا يهدأ في قلب الزمن (..) لنستحضره ونستحضر معه ما عاناه ورجاله ـ غفر الله لهم جميعاً ـ في سبيل توحيد مملكتنا الحديثة بعد أن تبددت ولاذت بكهوف العزلة وألفتْها. وما هذه اللقاءات على صعيد الجنادرية إلّا من ذلك الحوار التاريخي الذي منه مدخلنا إلى عالم العصر.

نعم. مهرجان الجنادرية ساحة للحوار، وعمل ثقافي عظيم نهضت به المملكة العربية السعودية، يؤثر على البيئة التي صنعته ويتأثر بها. والفضل بالطبع يرجع في المقام الأول إلى رأس الدولة، خادم الحرمين الشريفين، الذي من بعض مآثره أنه وسّع المسجدين الجليلين أعظم مما فعل أي حاكم في التاريخ قبله. ولم يعْدُ الشاعر الكبير محمد حسن فقي الحقيقة حين قال:

وآثر من دون الجلالة خدْمةً
لقُدسيْن إيثاراً يعزُّ على الغير
فلا زال فينا رايةً مستعزة
بإيمانها من دون غدر ولا كبْر..

ثم الفضل يرجع بعد ذلك إلى الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولي العهد ورئيس الحرس الوطني، وهو الجهة المشرفة على تنظيم المهرجان. ومن حسن حظّ الدولة السعودية أن فيها نصحاء ومستشارين أفذاذاً من طراز هذا الشيخ العتيد الأبلج الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري.

أصيلة

١

كانت مبادرة حميدة من الأخ محمد بن عيسى وزير الثقافة في المغرب، وهو صاحب أرْيحيَّات كثيرة، أنه خصّص أمسية في موسم أصيلة هذا العام، لتذكّر ـ ولا أقول تأبين ـ الكاتب العملاق يوسف إدريس. وكان يوسف قد شارك في موسم من مواسم أصيلة منذ بضعة أعوام، وترك أثراً لا يُنسى، كما كان يفعل دائماً!

ارتجل محمد بن عيسى كلمة بليغة، تحدّث فيها عن صداقته بيوسف إدريس، وعن المكانة السامية لأدبه، الذي وصفه بأنه أعظم بكثير حتى مما اعترف به الناس. وقال إن موسم أصيلة الثقافي سوف يُصدر عنه كتاباً. ولعل هذه هي أول مرة في العالم العربي، تكرّم فيها ذكرى كاتب بهذه الطريقة، خارج وطنه الأم. وتحدّث لطفي الخولي، الكاتب المرموق، زميل يوسف إدريس في «دار الأهرام» العتيدة، وصديقه الحميم طيلة سنوات، فأعاد إلى

الأذهان صورة يوسف، إنساناً حياً نابضاً بالحياة.

كذلك تحدث الدكتور أحمد إبراهيم الفقيه، الكاتب الروائي الليبي الموهوب، فنوّه بمكانة يوسف إدريس في الأدب العربي المعاصر، واعترف بعمق تأثيره عليه. ويمكن القول أن أحمد الفقيه، كان أحد حواريي يوسف إدريس، وكان أحد أصدقائه المقربين. وفي كلمة حزينة عبَّر الدكتور مبارك ربيع من المغرب، عن عمق إحساسه وإحساس جيله كله بالفجيعة لفقد يوسف إدريس. وقال الكاتب الروائي المبدع، جمال الغيطاني، إن الفراغ الذي أحدثه يوسف إدريس، فراغ لن يمتلىء بعده، وأن الخسارة بفقده خسارة لن تعوض. وكنت أنا أيضاً من المتحدثين.

كان يوسف إدريس، صاحب موهبة ضخمة، لا يبالغ الإنسان إذا وصفها بالعبقرية. والموهبة عبء ثقيل فيه بعض معاني اللّعنة. وإذْ حمل نجيب محفوظ هذا العبء بجلد ومصابرة، كما يفعل الزهاد العاكفون، كان يوسف إدريس يبدو أحياناً وكأنه ينوء بهذا العبء، وكأنه يود لو استطاع أن يلقيه عن كاهله. كان يتأرجح بين أحوال من الاكتئاب والبهجة. وربما حاول أمراً عسيراً، أن يحيا الحياة إلى أقصى مداها كما يشاء وأن يصنع فناً عظيماً. ولعله نجح بعض النجاح. ولكنه دفع الثمن الذي لا مناص منه آخر الأمر.

قلت له في بغداد أثناء الضجة التي افتعلها حين نال نجيب محفوظ جائزة نوبل «يا أخي أنت عاوز تتمتع بالحياة، وتتفسَّح وتعمل ما تعمل، وكمان تأخذ جائزة نوبل؟».

ضحك من أعماق قلبه، كما كان يفعل، فلم يكن يضمر حقداً لأحد، وقال لي «وليه لا؟».

كان يوسف في الحقيقة إنساناً كريماً طيباً طيبة بالغة، إذا وجد منك وداً ومحبة، أعطاك وداً بلاد حدود. وعلى مدى ربع قرن من الزمان، لم أجد منه، ولم يجد مني، غير الإخاء والودّ. ولن أنسى ما حييت عبارة قالها لي ذات يوم «تعرف يا طيب. أنا لـمّا أقرأ لك بَحسّ بالونَس» كانت عبارة عميقة مؤثرة، ظللت أذكرها وأنوّه بها، فالكاتب على وجه الخصوص، يدرك مدى الوحشة التي تجلبها ممارسة هذا الفن الملعون. أنْ تعلم أن لك «أخوة» في البلاء، يعزّيهم أنك موجود، وأنك تكتب، وأنك تفرح بوجودهم وإبداعهم، ذلكم الذي يبدّد الوحشة، ويصبّر على البلوى، ويجلب «الونَس». أصوات تنشد في حُلكة الوجود، يأخذ بعضها من بعض ويعطي، تتجاوب أصداؤها من بلد إلى بلد، ومن قُطر إلى قطر، ومن قارة إلى قارة، بل ومن زمان إلى زمان، تصنع من تفاهات الواقع، وعذابات العمر القصير العابر، شيئاً لعله يستمر. لعلّه يبقى. ذلك هو. ولا يمكن تحقيقه إلّا بالمحبة. وكان صوت يوسف إدريس صوتاً نادراً من هذه الأصوات. سوف يقوى وقعه وتأثيره على مدى الأيام.

كان عامراً بالمحبّة، رغم ما كان يبدو أحياناً عكس ذلك، بسبب تناقضات سلوكه في الحياة والمعارك التي كان يفتعلها ويلقي بنفسه في غمارها دون مبرر في الغالب وبلا أسلحة، ثم يخرج منها، وينساها تماماً. لم يكن يعرف الحقد. لم يكن ذلك إلّا مظهراً من مظاهر إحساسه بفداحة العبء. عبء الموهبة الكبيرة التي ابتُلي بها.

وأيضاً كان شجاعاً شجاعة قلّ نظيرها. قام في فنه بمغامرة طريفة، حدّق فيها بعيني طفل عبقري بنهم وجودي، في عوالم لم يجرؤ أحد من الكتاب المعاصرين على التحديق فيها. وكان يعود من التجربة مملوءاً بالنشوة ـ فقد كان يعرف ضخامة موهبته ـ ولكنه

يعود أيضاً مزعزعاً متناثر الأجزاء. لا يلبث أن يلقي بنفسه في غمرات الحياة، باندفاع وطيش أحياناً، فيخاصم ويعارك ويثير العواصف بما يقوله، وما يكتبه في الصحف، وبعض ما يفعله. ولعل هذا صرَف أنظار بعض الناس عن إدراك مدى روعة فنه.

ها هو الإنسان، الكائن البشري المحدود الأجل، الذي يقطع رحلة العمر كما ينبسط الظل ثم ينطوي، ها هو ذا قد مضى. يوسف إدريس لم يعُدْ. سوف يبقى فنّه العظيم. إنما حتى هذا عندي، وعند الكثيرين أمثالي الذين أحبّوه وأحسوا «بالونَس» لمجرد أنه موجود يُرهف السمع لصوتك، وتُرهف السمع لصوته ذي الجاذبيّة الفريدة ـ أقول حتى هذا لا يُعزّي عن فقده.

٢

تركت حامد الخوّاض رحمه الله، حيّاً ممتلئاً حياة، ضاحكاً أبداً كعادته. كنت أمر عليه في مكتبه في الصباح، وأشرب معه قهوة «الكاسنْجر»، وهي قهوة تركية يُضاف إليها اللبن المغلي. أول مرة قدمها لي، قلت له إنها تذكرني بالقهوة التي كنا نشربها في محطة «الكاسنجر» ونحن في طريقنا بالقطار من الخرطوم إلى كريمة. فأطلق حامد الاسم عليها، وأصبح كل الموظفين في المكتب يطلبون من «عم شعبان» صاحب البوفيه قهوة «الكاسنجر».

«أبو طارق» كان يزورني كثيراً في مكتبي. يقبل مني سيجارة، وأحياناً يشرب معي الشاي بالنعناع. وكان يذهب من عندي ضاحكاً في أغلب الأحيان. أب لاثني عشر طفلاً، ويسكن في مخيم من مخيّمات اللاجئين. أستطيع أن أتصور العذاب الذي ذاقه. سائق ماهر حين يكون رائقاً، ويعمل بهمة ونشاط حين يسخو. يثور

أحياناً ثورات عنيفة. يوصلني إلى المطار، والسفارات للحصول على «الفيزات». كنت أعلم مما يقص عليَّ أنه يعاني من اضطرابات نفسية، وكآبة تنتابه دون سبب واضح. إلّا أنني أبداً لم أتصور أنه سوف يكون قاتلاً، وسوف يقتل، دون سائر الناس، حامد الخواض، الذي أكرمه وعامله بلطف لعله لم يجده في أي أحد صادفه طيلة حياته.

وعجيب أن يحدث هذا أيضاً في مكتب اليونسكو في عمان. هذا مكتب إقليمي يخدم الدول العربية جميعاً. وكان أول مدير له في عمان، الدكتور محمد إبراهيم كاظم، وهو رجل من الأخيار الأفذاذ. بعد تقاعده بقليل، أصيب فجأة بمرض خطير شفاه الله، وقد أخبرني «أبو طارق» أن ذلك حدث لأن كاظم «ظلمه»، وأنه لن يشفى إلّا إذا زاره هو في القاهرة وعفا عنه.

لم آخذ مثل هذا الكلام مأخذ الجدّ، فقد كنت أعلم أن «أبو طارق» يحس أن الحياة ظلمته، ومثل كثير من المظلومين، كان يوجّه حقده ضد أناس لا صلة لهم بما حدث له. كان كاظم في الواقع كريماً معه، وكذلك كان حامد الخواض.

مكتب عمان من أفضل مكاتب اليونسكو، يضم نخبة من جنسيات مختلفة، رجالاً ونساء، كلهم أكفاء ذوو خلق رفيع، يعملون كأنهم أسرة واحدة. ويغلب على المكتب جو من التآلف والود والبعد عن المراسم والشكليات، يرجع الفضل فيه إلى الدكتور محمد إبراهيم كاظم، ثم تعمق في عهد الدكتور حامد الخواض.

وفي الفترة القصيرة التي قضيتها معهم، حضرت أعراساً لمسلمين

ونصارى، وحفلات استقبال ووداع، عزّيت معهم، وسمرت معهم. أبداً لم يخطر لي أن هذا المجتمع الودود المسالم سوف يشهد حادثاً مروعاً، لم تشهد مثله منظمة اليونسكو طوال تاريخها من قبل. كانوا كل حين يجمعون التبرعات لمناسبة ما، وأكثر ما جمعوا لـ «أبو طارق».

لا تقل أنه الموت، يضفي على بعض الناس هالة لم تكن لهم في الحقيقة. أبداً. كان حامد الخواض إنساناً نبيلاً نادر المثال بحق. كان عذباً مثل الماء السلسبيل، فيه تواضع أهل السودان، ودماثة طبعهم وسماحتهم وزهدهم، حين يكونون في أحسن حالاتهم. من آل الخواض الكرام، من كبوشيّه في ديار الجمليين. كان محباً للناس ليس في قلبه ذرة من الحقد. كان مهندساً معمارياً، وكان مشغولاً ببناء مدارس قليلة التكلفة من مواد محلية بسيطة، فأشرف على تنفيذ مشاريع في اليمن وفي الصومال وفي السودان وفي أماكن أخرى. مسافر أبداً، لا يقر له قرار. أقول له «يا زول. السفر الكتير دا بيكتلك». فيجيبني ضاحكاً «الراعي واعي». يقصد الله عزّ وجلّ. وفي الفترات القصيرة التي يقضيها بين الأسفار في عمان، يعمل صباح مساء، يظل إلى الخامسة والسادسة مساء دون طعام، ويعمل أيام العطل. يعمل في صمت وفي زهد، لا يهتم بالدرجات والترقيات.

وكان مهتماً بـ «أبو طارق»، أعطاه كثيراً من وقته وأسبغ عليه كثيراً من رعايته. كان «أبو طارق» يعمل سائقاً مؤقتاً وكان يمرض ويتغيب كثيراً عن العمل. في كل مناسبة يجمعون له التبرعات. إذا ولد له طفل، إذا مات له قريب، إذا احتاج للعلاج. وقد رفضت إدارة المنظمة في باريس أن تضمه إلى الخدمة المستديمة، فبذل حامد،

رحمه الله، جهداً عظيماً، بل ذهب إلى باريس، وأقنع الإدارة أن يثبتوه ويمنحوه عدة علاوات استثنائية دفعة واحدة.

هذا حدث منذ أقل من ثلاثة أشهر. كان «أبو طارق» لا تكاد الدنيا تسعه من الفرح. طاف بالمكاتب يضحك ويوزع الحلوى. وأكثر ما أسعده أن كتاب ترقيته جاء من باريس، وباللغة الإنجليزية، وتحت اسمه خط باللون الأحمر.

«شايف يا سيد طيب. شايف اسمي، صقر سكر؟».

سعدت لسعادته، وقلت هذا إنسان لعله قضى حياته يبحث عن «الاعتراف»، فها هو ذا قد وجده. قلت له:
«مش قلت لك اصبر؟ شايف نتيجة الصبر؟».

«إي والله. دكتور حامد طلع راجل. أوفى بوعده، قال لي يا بو طارق اعتمد على الله وعليَّ».

قال لي يومذاك أن حامد الخواض «أبوه» وملاذه بعد الله.

لم أنتبه حينئذٍ، ولكنني أدرك الآن أنه حين جعله بمثابة أبيه، فقد اختاره لأمر جلل.

ثم قُبيل سفري إلى أصيلة بالمغرب جاء يدعوني للغداء. أخبرني أنه سيعمل وليمة في داره على شرف حامد الخواض.

«لازم تحضروا كلكم. الدكتور عبد الواحد يوسف والدكتور هاشم

وأنت والباقين. تشوفوا بيت أخوكم الصغير».

قلت له إن ذلك سوف يكون شرفاً عظيماً لنا، واتفقنا أن تكون الوليمة بعد عودتي، قبل عشرة أيام فقط، وكان حامد الخواض حياً مملوءاً حياة.

كيف إذاً تحول الحب إلى حقد، والسرور إلى حزن، وحفل الغداء إلى مأتم؟

هل أقول إن حامد الخواض شهيد آخر في هذه المأساة الرهيبة التي يُقتل فيها الأبرياء، دائماً يُقتل الأبرياء، وتختلط الأمور، فلا يميّز الناس بين العدو والصديق؟

ومن أعزّي في حامد الخواض؟ هل أعزّي أسرته وعشيرته الأقربين؟ هل أعزّي السودان الذي أحبّه حامد وأسرف في حبه؟ هل أعزّي منظمة اليونسكو التي لن تجد أحداً مثله؟ هل أعزّي عبد الواحد يوسف الوفي وهاشم أبو زيد اللذين عادا بجثمانه إلى مسقط رأسه؟ هل أعزّي زملاءه وزميلاته في مكتب اليونسكو الذين بادلهم وداً بودّ؟ هل أعزي أصدقاءه ومحبيه الكثيرين في عمان وفي غير عمان، في السودان وغير السودان؟

هل أعزّي «أبو طارق» المسكين، القاتل المقتول الظالم المظلوم؟ لعله إذا أفاق من الكابوس المرعب الذي يعيش فيه، لعله يدرك، أنه قتل «أباه» وخسر سنده بعد الله.

٣

فكرة مُلْهَمة، حوّلت بلدة مغمورة، على بعد نحو أربعين كيلومتراً جنوب طنجة، على ساحل الأطلسي، إلى اسم ذائع يتردد صداه في العالم، وملتقى سنوي يفد إليه الكتّاب والشعراء والرسامون والموسيقيون من الشرق والغرب.

ما كنت لأعرفها أو أزورها، لولا أنني قابلت محمد بن عيسى في الدوحة أواخر السبعين، عام ثمانية وسبعين أو تسعة وسبعين. رأيت شاباً واضح الذكاء، يقظ العينين، حسن السَّمت متدفق الحماسة، تآلفنا بلا مشقة، فالأرواح جنود مجنّدة، وقد اكتشفت فيما بعد، أننا على بُعد الدار والمزار، نشأنا في بيئتين متشابهتيْن، وأبحرنا في رحلتيْن في الحياة، متماثلتين رغم اختلاف النتائج.

عرفت منه أنه عمل لسنوات في منظمة الأمم المتحدة، وفجأة قرّر أن

يستقيل ويعود إلى بلدته أصيلة، ويبدأ حياة جديدة تماماً. انتُخب عضواً في المجلس البلدي، ثم ما لبث أن صار رئيساً له، وعُمدة لأصيلة. ثم أصبح نائباً في البرلمان. بهرني كل ذلك، وأحسست كما لو أن رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» قد انتهت نهاية سعيدة.

أول مرة زرت «أصيلة» منذ أكثر من عشر سنوات، وجدت بلدة أقرب إلى القرى منها إلى المدن، سوقها مثل أسواق القرى في شمال السودان، وطرقاتها مُتْربَة، وماؤها شحيح، والتيار الكهربائي ضعيف متقطع. فيها فندق واحد صغير لا يكاد يفي بالحد الأدنى من متطلبات النزيل. ومع ذلك، فقد كانت لها جاذبية واضحة، بموقعها على البحر، وقلعتها التي تقوم شاهداً على تاريخها العريق في مقاومة الإسبان والبرتغاليين.

غير بعيد من هنا في «وادي المخازن» هزم المغاربة ثلاثة ملوك من ملوك الفرنجة، وأوقفوا المدّ الاستعماري الأوروبي في عُنفوانه. البيوت في الحي القديم، لها طابع الحصن، ككل المدن الإسلامية المرابطة ينكفىء بعضها على بعض، أزقتها ضيّقة بحيث إنك تستطيع أن تمدّ يدك عبْر الطريق فتصافح يد جارك. رأيت بلدة تطوي ضلوعها على ماضٍ تليد وأشجان، بعيدة، مثل امرأة جميلة جارَ عليها الزمان.

لم يكن أيٌّ من ذلك غريباً عليَّ، وقد صادف أول زيارة لي، يوم آخر رمضان، فصليت معهم صلاة العيد، كأنني بين أهلي في شمال السودان.

الآن أصبح الماء دافقاً، والتيار الكهربائي متّصلاً. الطرقات المُتربة

تغطت بالإسفلت، وباحات الحي القديم وأزقّته، رُصفت ببلاط جميل على هيئة الموج، من تصميم الفنان الكبير محمد الملّيحي، ابن أصيلة، ورفيق محمد بن عيسى منذ طفولته، وعوْنه في النضال لنهضة المدينة. كذلك الكاتب الشاعر أحمد البقّالي.

في نحو عشر سنوات، خطت البلدة خطوات واسعة. أصبحت مدينة جميلة، تتميّز على كثير من المدن بالذوق والحسّ الجمالي الذي تشاهده في اللوحات الجدارية التي يتركها فنانون عالميون، تعبيراً عن حبهم لأصيلة، وتقديراً للوقت الجميل الذي قضوه بين أهلها. كذلك تلمس هذا الذوق، في الكورنيش الواسع الذي يزدحم بعد الغروب بأهل البلدة وزوارها. تمتلىء المطاعم والمقاهي وتعزف الفرق الموسيقية المغربية والوافدة في الباحة عند سفح القلعة.

يتقاطر الشباب المغربي، وبعضهم يفد من مراكش وفاس والدار البيضاء وتطوان والرباط، لحضور الندوات والمحاضرات في المركز الثقافي.

هذا مركز به قاعة كبيرة للمحاضرات والعروض السينمائية، و«قالَري» لعرض اللوحات الفنية وغير ذلك. وقد بُني بدعم مالي من السلطان قابوس، سلطان عُمان. وأيضاً يوجد قصر للثقافة، كان بناء قديماً متداعياً، فرُمّم وأعيدت عمارته بتمويل من الحسن الثاني، ملك المغرب. وقد أخبرني محمد بن عيسى أن هذا الملك المستنير، يواصل دعم النشاط الثقافي من ماله الخاص، كلما أحسّ أنهم في ضائقة، أمدّهم بالعون دون إعلان، ودون أن يطلبوا منه.

في أصيلة اليوم عدة فنادق مريحة، يجد فيها الزائر كل ما يحتاج

إليه. وفندق «الخيمة» حيث تنزل وفود موسم أصيلة، فندق رحب، به حمام للسباحة، وغُرَفُه نظيمة مؤثثة ببساطة، يمتلىء أغلب العام بالسيّاح.

ليس من المبالغة القول، أن محمد بن عيسى، حقق في أصيلة شيئاً يشبه المعجزة. لقد حوّل الأحلام التي يكتبها الروائيون، والأفكار التي تلوكها الألسن في الندوات والمؤتمرات، عاماً بعد عام، إلى واقع محسوس. مزج بين الثقافة والتنمية، وضرب مثلاً بعيد الدلالة، كيف يستطيع مجتمع أن ينهض بجهد أبنائه وبناته، معتمداً على طاقاته الإبداعية الكامنة. وهو مثلٌ جديرٌ أن يتأمله المفكّرون والدارسون، ففي الوقت الذي يبدو فيه، أن الخطط الشمولية والأماني العقائدية في إحداث ثورات اجتماعية كبرى في العالم العربي، لم تأت بكبير طائل، ها هنا تجربة أكثر تواضعاً وأعظم جدوى. لذلك يقول محمد بن عيسى «كل واحد يهتم بما حوله. يصلح ما يستطيع إصلاحه في حدود مقدرته. كل واحد ينظّف أمام داره».

هذا هو السلوك الذي حضّنا عليه ديننا الحنيف، فنسيناه فأنسانا الله أنفسنا، وأهملناه فحاقت بنا الذلّة والمسكنة. «لا يغيّر الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم». «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

واضح من الآية الكريمة ومن الحديث الشريف، أن الهدف لا يتحقق بالإكراه والقهر، ولكن بأن يتحرّر الناس بملء حريتهم ومحض إرادتهم. كذلك كان الأمر في البدء، ولا مناص أن يكون كذلك اليوم.

في أثناء ذلك، قام محمد بن عيسى برحلة جريئة في إعادة اكتشاف ذاته والعودة إلى جذوره، طالما حلم بمثلها الشعراء والروائيون وأنا واحد منهم. وعجيب أن عودته كانت إلى بلدة تُسمى «أصيلة». هاجر إلى مصر أوائل الخمسينيات طلباً للعمل، وكان المغرب في قبضة الاستعمار الفرنسي والإسباني. تعذّب وعانى. كان يعود إلى المغرب فيجمع بعض المال من العمل في إذاعة طنجة، ثم يرجع ليواصل دراسته. وبعد ذلك سافر إلى الولايات المتحدة لمزيد من العلم. أيضاً كان يدرس ويعمل. وتزوج من أمريكية. وحال تخرجه التحق بالعمل في منظمة الأمم المتحدة، حيث صعد السلّم الوظيفي قفزاً، وأصبح مديراً في منظمة الغذاء والزراعة وهو في أوائل الثلاثينيات من عمره. وقد عمل مدة في أفريقيا وكوّن صلات واسعة مع زعمائها ومفكريها، وتعمّقت اهتماماته بأحوال الشعوب السوداء، الأمر الذي ترك أثراً عظيماً في نفسه، وظهرت نتائجه في عمله الثقافي في أصيلة.

ثم فجأة، كما أخبرني، استقال من عمله، وكان في أوج نجاحه. قرّر أن يعود أدراجه إلى نقطة البدء. اشترى بثمانية آلاف دولار داراً خربة في الحي القديم، حيث وُلد ونشأ. أعاد بناءها حسب تصميم صديقه الفنان محمد الملّيحي.

حدّثني محمد بن عيسى، أنه استيقظ ذات ليلة على طرق حاد وصوت ينادي باسم أمه. قال:

«أدركت فجأة أنني بنيت داراً بجوار قبر أمي».

طلّق زوجته الأمريكية، وتزوج من سيدة من أسرة عريقة في فاس.

أنشأ أسرة جديدة وبدأ حياة جديدة وهو في الأربعينيات من عمره. وقد ارتبطت رحلته الذاتية ارتباطاً وثيقاً بعمله الدؤوب لنهضة مسقط رأسه، ثم بعطائه للمغرب بأسْره، بوصفه وزيراً للثقافة.

٤

في كل موسم من مواسم أصيلة، يحدث شيء طريف يلفت الانتباه. في هذا الموسم الثقافي الرابع عشر، حدثت عدة أشياء مهمة، عُقدت ندوة عن جذور الفكر العربي المعارض وأي دور له في المستقبل. واستضيف الكاتب البرازيلي (جورج آمادو)، وهو في نظر الكثيرين واحد من عظماء كُتّاب الرواية في هذا العصر، ويعتبره البعض ـ وأنا منهم ـ أعظم الكُتّاب الأحياء في أمريكا اللاتينية. وقد ترأس ندوة عميقة الإشارات والدلالات، عن التمازج الثقافي في البرازيل.

وأيضاً تمّ في احتفال كبير تقديم جائزة (تشيكايا أوتامسي) في الشعر الأفريقي، للشاعر (ريني دبشتر). هذا بالإضافة إلى ندوة عن المرحوم يوسف إدريس. فلأبْدأ بالحديث عن تشيكايا أوتامسي.

كنا زملاء في منظمة اليونسكو في باريس طيلة خمس سنوات. تعرفت إليه في أول شهر، فلم يكن التعرُّف إلى تشيكايا صعباً. كان نوعاً من الناس، يجعلك تحسّ أنه يعرفك، وأنك تعرفه، منذ وقت طويل. لعلّني تعرّفت إليه عن طريق المهدي المنْجرة أو محمد عزيزة أو محمد بن عيسى. كان محمد بن عيسى أول ما يصل إلى باريس، يتفقّد أصدقاءه ويجمعهم حوله، ويكون بينهم دائماً هذا الشاعر الذي يحمل قلبه على راحتيه، يضحك كثيراً ويطوي ضلوعه ولا شك، على حزن بعيد الغور.

أتذكّره ضيّق الصدر بالنُّظم البيروقراطية في اليونسكو، يحنّ إلى التفرّغ لكتابة الشعر. ولعله كان يحلم أن يبني داراً في أصيلة، في الحي القديم، بجوار صديقه محمد بن عيسى. وكان قد أخذ في تعلّم اللغة العربية، يتحدّثها بلكنة حلوة، ويضحك إثر كل عبارة ينطقها.

لم أكن قد قرأت شيئاً من شعره تلك الأيام، فقد كان يكتب باللغة الفرنسية، التي كنت قد بدأت أتعلّمها لتوّي، لكنني كنت أعلم أنه شاعر كبير، يحظى بتقدير واسع حتى في فرنسا.

يقول محمد بن عيسى في كلمة مؤثرة ألقاها في رثائه في أصيلة عام ١٩٨٨:

«كالطفل في مواسم أصيلة. كان من الروّاد الأوائل، قدم إليها في الموسم الأول راكباً حماراً، حيث لم يكن في أصيلة وقتئذٍ وسائل مواصلات من محطة القطار إلى المدينة.

قدم إليها بإنسانية جميلة ترعرعت مع المواسم. سكن في الفندق الوحيد في السوق. كان يخرج كل صباح ليحمل الماء من البئر حيث لم يكن في الفندق ماء (...).

عرفته عن طريق صديقنا المشترك المهدي المنْجرة. عشنا معاً كل الأفراح والأتراح. بعد ذلك احتلّ أصيلة. دخل ليسكن بيوتها كواحد من أهلها (...).

وبعد أن اختطفته يد المنيّة، كان لي ولصديقي المهدي المنجرة بتكليف كريم من صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني، الشرف في توديعه إلى مثواه الأخير (...) وصاحبناه في «بوانت نوار» في رحلته إلى المقبرة الجميلة، حيث يرقد جثمانه قرب المحيط. وقال لي صديقنا المهدي إنها امتداد لشاعرية تشيكايا على المحيط الأفريقي من أصيلة إلى «بوانت نوار».

يا له من عمل متحضر حقاً، أن ترسل دولة وفداً رسمياً لتشييع جثمان رجل ليست له أي صفة رسمية ـ شاعر وحسب. ولا بد أن ذلك أسعد تشيكايا حيث هو في العالم الآخر. إلّا أن تكريم أصيلة للشاعر لم يقف عند ذلك الحد، فهذا العام افتُتحت حديقة جميلة تحمل اسم تشيكايا أوتامسي في الباحة أمام القلعة، في احتفال حضره ضيوف موسم أصيلة، وكان بينهم (جورج أمادو). وفي وسط الحديقة شُيّد نُصب من الرخام، حفرت عليه أبيات من شعر تشيكايا. وقبل ذلك أُنشئت جائزة للشعر الأفريقي باسمه.

إنني إذْ أذكر كل ذلك، أحس بتقدير عميق لدولة المغرب ووزير ثقافتها الموهوب، إلّا أنني أحس أيضاً ببعض الأسى، حين أفكر أن

قليلين حتى في السودان، يعرفون أين ثوى جثمان الشاعر العبقري التجاني يوسف بشير، الذي يرقد في قبر مغمور في أم دُرْمان، ولم يخطر لأحد أن يسمي شارعاً باسمه أو يفعل أي شيء يمجّد ذكره. وقس على ذلك. والثورات تشبّ وتخمد. فهذا مثل جميل آخر يضربه المغرب الكريم، عسى إخواننا في السودان وفي غيره من ديار العروبة والإسلام، ينسجون على منواله.

هذا، وتقول نبذة عن حياة تشيكايا، في كُتيِّب صدر عن المنتدى الثقافي العربي ـ الأفريقي بأصيلة، إن تشيكايا ولد عام ١٩٢١ في بلدة «مبيلي» في الكونغو ـ برازافيل. وكان والده فيلكس تشيكايا، من زعماء الكونغو البارزين وكان عضواً في الجمعية الوطنية الفرنسية.

لم يلبث تشيكايا أن هجر الدراسة في فرنسا، حيث وصل عام ١٩٤٦، وانصرف إلى كتابة الشعر. وكان يعيش من عمله في مهن صغيرة، فعمل حمّالاً وبوّاباً في مطعم وعاملاً في مخزن وعاملاً في مزرعة. وفي عام ١٩٥٥ صدر ديوانه الأول «الدم الفاسد» يحمل اسمه الكونغولي الخالص الذي عُرف به، «تشيكايا أوتامسي» بدلاً من الاسم الأوروبي الهجين «جيرالد فيلكس تشيكايا» وهو عمل، على بساطته، يلخص روح الشاعر، في حياته وفي شعره ـ الحنين إلى الجذور والتمرد على التزييف والوجه المستعار.

ظل يكتب الشعر، ويعيش كيفما اتفق، لا يبالي أي حرفة يحترف. وسرعان ما ظهر ديوانه الثاني «نار الأدغال»، الذي أحدث صدى كبيراً. وفي عام ١٩٦٦ نال جائزة الشعر الكبرى في المهرجان العالمي للفنون الزنجية بدكار، على ديوانه «موجز: مداخل فهرست العشق».

تُرجم شعره إلى لغات عدّة ورشح أكثر من مرة لجائزة نوبل. وحين فاز بها الشاعر النيجيري وولي شوينْكا عام ١٩٨٦، قال إنه يعتبر تشيكايا أوتامسي شريكاً له في الفوز.

٥

في قصيدة رائعة تهزّ الوجدان بحق، يقول الشاعر الكبير بلند الحيدري في رثاء تشيكايا أوتامسي.

«يا من أحْبيتَ بوهْجك كل الأرض
لا تَمْضِ
فأصيلة قد كبُرتْ... صارت أجمل من كل صبايا
الدّنيا
وأصيلةُ إذْ تحيا ... نحيا
صارت تفهم سرَّ الدمعة والضحكة في عينيك
وصارت تعرف مَنْ قطّع كل أصابعي العشْرْ
ومن ألقى في النّهر بِعُمري
ومن داس رؤايا
صارت تكتب شعراً ... ترسمْ

تعرف كيف تغنّي ولمن ستغنّي
حفظت كل حكايات الأنسِ
وكل حكايات الجنِّ
وصارت شيئاً منك وشيئاً منِّي
وصارت تعرف أن العمّ تشيكايا من بعض صباها
تؤمن أن تشيكايا لن ينساها
لكن تشيكايا
لوّح لي ولها ومضى في العتْمةِ حتّى أقصى امْداها».

ما أجمل قوله «صارت شيئاً منك وشيئاً منِّي»، وذلك كما ينبغي أن يكون، وقد صدق الشاعر، بل إنني لا أعرف مدينة عربية تعرّضت لما تعرّضت له «أصيلة» من ثقافة وفكر وفن. وإذْ تجد عواصم عربية كبرى لا يميّز أهلوها هل أنت من اليمن أو عُمان أو السعودية أو السودان، ها هنا، الناس في الأسواق والمقاهي والفنادق، يعرفون الكتّاب والشعراء والفنانين بأسمائهم. هؤلاء الشبان والشابات الذين يستقبلون الضيوف ببشاشة لا تكلّف فيها، ويرتّبون شؤون إقامتهم وتنقلاتهم، ويعملون بسعادة واضحة، ويسألون ويحاورون ويناقشون، كانوا أطفالاً حين شرع محمد بن عيسى في تجربته الرائدة. كبروا الآن، وكبرت البلدة معهم. بعضهم في الجامعات، وبعضهم تخرج وشقّ طريقه في الحياة، وبعضهم يواصل دراسات عليا في جامعات المغرب وخارج المغرب.

وكلّهم يذكر تشيكايا أوتامسي، الشاعر الكنغولي، ذا الوجه الآبنوسي الوسيم، الذي كأنَّ السنوات مسته برفق، فلم تُجرّحْه بمخالبها القاسية كما تفعل. الشعر واللحية وخَطهما الشيب، والعينان العميقتان مغروْرقتان بالأحزان.

وفيمَ الأحزان؟
يقول الكاتب الموهوب شربل داغر في كلمة جميلة مؤثرة عن تشيكايا:

«إلّا أنه كان لا يني عن القول أن الشاعر مثل السلحفاة «بيته على ظهره». كان يقول، ويعني ما يقول، إن وطنه أينما ينتقل، أيْ صورة الوطن فيه، أي غربته».

هذا يذكّرني بتعبير إمام المغتربين، جيمس جويس:
يا حبّي الأول والأخير، يا أرْلندا،
القسّيس بكِ والقيْصر،
مثل اليد في القُفّار.
إنّني لن أُذعن».

لكن هذه الترجمة، لا تحيط بالمرامي الشاسعة في عبارة جيمس جويس: I shall not serve.

يقصد، لن أذعن ولن أرضخ ولن أهدأ ولن أقبل ولن أعمل ولن أنسى ولن أسلو ولن أغفر ولن أُهمل ولن أذهب ولن أحضر ولن أقطن ولن أسكن، وهلمّ جراً.

كذلك كل شاعر مع وطنه، وكذلك كان حال تشيكايا مع الكنغو.

نعود إلى حديث شربل داغر الحصيف عن تشيكايا أوتامسي:
«حمل الكنغو معه «على ظهره» بضفّتيه ـ الدم المنشطر، الدم الأسود: تصاحبه دقات طبل زنجي بعيد، مثل أصوات الليل نتفقدها

دون جدوى، مثل صباحات الخيبة الدامية (...) الإنسان ينسى، يتناسى؟ يتحايل أو ينضج، أما الشاعر فيتعذّب ولا يغفر أبداً.

قد لا يكون الشاعر مشّاء أو أعمى، إلّا أنه كائن حزين مؤكداً، حزين لما جرى وللانزياح الحاصل بين... وبين... كان حزيناً دون هوادة مثل سهم منطلق».

إن شربل داغر يعرف ما يقول، وإذا تحدّث عن تشيكايا فعلينا أن نرهف السمع. هذا الشاب اللبناني المتوهج هو نفسه من بركات «أصيلة». ثمة تعرّفَ إلى تشيكايا، وأحبه وأحب شعره، وترجم عن الفرنسية ديوانه «دمٌ فاسد»، كما ترجم مختارات من الشعر الزنجي سوف تصدر قريباً. وهو أمرٌ مُفرح طال انتظاره في عالم العربية الذي يصدق فيه قول شاعر النيل:

أمّــةٌ قــد فــتَّ فــي ســاعــدهــا
بُــغــضُــهــا الأهــلَ وحــبُّ الــغــربــاء

والزّنج والأفارقة، أهلكم وذوو أرحامكم أكثر مما تتصورون!

هذا وقد حاول تشيكايا أن يستقر في الكنغو، ولكنه لم يفلح، وهجره إثر الأحداث المأساوية على عهد باتريس لومومبا. ومنذ عام ١٩٦٠ عمل في منظمة اليونسكو إلى أن أحيل إلى التقاعد قبيل وفاته. وكان ذلك من مآثر أحمد مختار أمبو، مدير عام اليونسكو السابق، الذي فتح أبواب المنظمة لمبدعين ومفكّرين من أفريقيا وبقية أقطار العالم الثالث، كانت مغلقة في وجوههم قبله. وهو رجل يصدق فيه قول الشاعر القديم:

أضــاعــونــي وأي فــتــى أضــاعــوا
لــيــوم كــريــهــةٍ وســدادِ ثــغــرِ

هكذا ترى يا أصلحك الله، أن مبعث حفاوة محمد بن عيسى بهذا الشاعر الكنغولي النابغة، بالإضافة إلى التقدير والمحبة، ولكن أيضاً لتحقيق غاية نبيلة ما أكثر ما تحدّثوا عنها ولم يفعلوا شيئاً، ألا وهي شدُّ العرى بين أفريقيا السوداء والعالم العربي، عرى الروح والفكر والثقافة والفن. وهي بحق قارة شقيقة لعالم العرب، وتلقى منهم ما يلقى الأشقّاء. في غمرة هذا الإهمال، لا يملك المرء إلّا أن يُزجي الثناء لدولة المغرب ووزير ثقافتها الذي أنشأ في وقت مبكر ضمن موسم أصيلة الثقافي «المنتدى العربي ـ الأفريقي» ويشترك في رئاسته الرئيس الشاعر ليوبولد سيدار سنغور والأمير المفكّر الحسن بن طلال ولي عهد الأردن. وكان شيكايا من أعضائه الذين أسهموا فيه بحظ وافر.

اسمعْ يا صديقي إن استطعت، مناجاة خليلك الشاعر العربي، الذي هو أيضاً «يحمل وطنه على ظهره»:

«ما زالت في مقهانا الساهر حدَّ البحر زوايا
تسألنا عن وعدٍ آخر
عن باقي شعر
عن قصص وحكايا
عن بيت في غابات الكنغو عن نهر يشدو لرباها
تسألنا أن لا ننسى موعدنا القادم في الصيف القادم
تسألنا عن غربتنا اليقظى في الزمن النائم
عن ألم أسود نحياهُ
ونأبى إن نزت في لُجّة مرماه».

أتخيلك طربتَ لقوله «تسألنا عن غربتنا اليقظى في الزمن النائم»

بلى، لقد أحسن. وإنه لأمر عسير كما تعلم، أن تصحو والزمان مُعتلٌّ ومُختلٌّ ومملوخٌ... ونائم.

٦

حين تقابل (ريني دبشتر) لأول مرة، تدهش لسببين على الأقل. لا تجد شاعراً كما يتخيل الناس الشعراء، ولكنك تلقى إنساناً وديعاً يحتضن أحزانه بجلد كما تضنُّ النباتات الصحراوية بالماء.

كنا في مبنى واحد في منظمة اليونسكو في باريس، في عمارة «ميوليس»، هو في الطابق العاشر وأنا في الطابق السابع. رأيت رجلاً مثل عرب موريتانيا أو السودان أو اليمن، أسود مجازاً، لأنه هو ظل يؤكد في شعره أنه زنجي، ولأن الأوروبيين لا يرون من الألوان غير البياض والسواد. الله أعلم من أين جاءه هذا اللون، كما يتعادل الشاي مع الحليب مناصفةً. خافت الصوت، وقور الحركات. ولكن انظر إلى العينين. ثمة يكمن الشعر. الحزن، نعم، لا مفر من الحزن في عيني الشاعر الحق. وأيضاً أشياء أخرى. الكبرياء، والرقة والإقدام والإحجام والحكمة والجنون، وما شئت:

«... إلّا أنني، مصاباً بحالة الشعر، كنت أبني بيتي قرب عصفور من الفردوس، حتى أن منحدراتنا ونيراننا تتلامس. كنت أستمع في المساء لصديقي يطلب من رفيقة عُشه إعداد حمّام من الهرمونات الطازجة له. كنت أتبادل مع هذا الثنائي برتقالاً وأجنحة وصوراً بذيئة وقصص الساحرات. كان يحدث لنا نحن الثلاثة بعد ظهر أحد نهارات تشرين الأول/أكتوبر، أن نرسم بالأزرق أحزان شجرة الليمون الحامض الصديقة»(*).

هذه الشراسة المهذبة لا تراها في عيني الشاعر من أول نظرة. شيكايا أوتامسي كان شاعراً كما يتخيّل الإنسان الشعراء، متدفقاً حولَه مثل عباءة فضفاضة. كان يضحك قهقهة، ويلعن منظمة اليونسكو علناً، ومع أنني لم أره يبكي، فإنني أتخيل أنه كان يبكي بسهولة. أما هذا الشاعر الهاييتي، فهو بخلاف ذلك، من فصيلة محمد المهدي المجذوب:

«لم ينبلج الفجر بعدُ في البيت
والحنين مستلقٍ إلى جانبي
ينام، يستعيد قواه،
ذلك أن مصاحبة زنجي
متمرّد ورومانسي مُتعِبة.

له خمس عشرة سنة أو ألف عام،

(*) ترجم هذه القطعة لريني دبستر وشعره المذكور في هذه المقالة، عن الفرنسية الكاتب اللبناني شربل داغر.

أو وُلد للتو،
وها هو نومه الأول،
تحت السقف نفسه مع قلبي.

منذ خمس عشرة سنة أو منذ قرون
أستيقظ من دون أن أُحْسنَ التحدث
بلغة شعبي،
من دون صباحات أربابها الوثنيِّين،
من دون طعم خبزها من شتلة (المانيهوت).

منذ خمس عشرة سنة أو منذ عبور
دمي للبحر باكياً،
الحياة الأولى التي أُحْييها عند استيقاظي،
هي هذه المجهولة ذات الجبهة النقيّة
التي ستصير عمياء ذات يوم
من فرط استعمالها لعينيها الخضراوين
وتعدادها للكنوز التي أضعتُها».

هذا، وقد جاء في كلمة محمد بن عيسى وزير الثقافة المغربي، في حفل تقديم جائزة شيكايا أوتامسي إلى ريني دبستر قولُه:

«الفائز علَم في سماء هذا الشعر، بعد أن نشر ما يزيد على عشرة دواوين وعدداً من القصص والروايات والبحوث النقدية، وقد حظيت في حينها وحتى أيامنا هذه باهتمام

النقّاد والقرّاء، حتى أن جائزة (رينودو) المرموقة كرَّمته في عام ١٩٨٨(...).

الشاعر الفائز هو شاعر الحرية قبل أي شيء، وقد عانى من عذابات المنفى والسجن بعد أن طمع بغد أفضل ومشرق لشعبه كما لشعوب القارة السمراء. بهذا الاحتفال نجمع بين شيكايا أوتامسي وريني دبستر، وبالتالي بين أطراف أفريقيا حيثما كانت في العالم. كما أننا بتكريمه نسلط الضوء على رافد مهم في الشعر الزنجي ـ الأفريقي، وهو القصيدة السوداء خارج أفريقيا».

يدهشك أيضاً أن ريني دبستبر من (هاييتي) ذلك البلد الذي حوّله الروائي الإنجليزي (جراهام جرين) إلى مهزلة في روايته (الكوميديون). حكمه الدكتاتور السفاح (بابا دُكْ) بخليط من السحر البدائي والدهاء الشيطاني وسفك الدماء بلا أدنى رحمة بواسطة زبانيته آل (تون تون ماكوت). وسار ابنه (بيبي دُكْ) على طريقه البشع. ولعلك تعجب كيف أن شاعراً كبيراً مثل ريني دبستر خرج من بلد مثل (هاييتي). وقد يخطر لك أن (هاييتي) قطر تافه. تكون مخطئاً، وتذكره أن شعب (هاييتي) كان أول شعب أسود يثور ضد الاستعمار الأوروبي ويقيم جمهورية مستقلة عام ١٨٠٤. وحين تُمعن النظر في شعر ريني دبستر، يتأكد لك أنه لا يوجد شعب تافه. يوجد بعض الحكّام التافهين أحياناً.

ثمةَ وُلد الشاعر عام ١٩٢٦، وقد أصدر ديوانه الأول «شرارات» وهو في التاسعة عشرة من عمره. وبعد أن لعب دوراً بارزاً في مقاومة النظام الديكتاتوري هرب إلى كوبا، حيث أقام قرابة عشرين

عاماً. ومن ثم سافر إلى باريس حيث التحق بعد فترة بمنظمة اليونسكو، وقد عيّنه المدير العام أحمد مختار أمبو بمكتبه الخاص أول الأمر، ثم عمل إلى أن تقاعد عام ١٩٨٦ في قسم الثقافة. كان مكتبه في الطابق العاشر في عمارة (ميوليس) حيث سعيت إلى التعرُّف به.

بدا لي رقيقاً بل هشّاً وأنا أحاوره في ذلك الصباح، وأرهف السمع إلى صوته الخافت، لكنني كنت أعلم أن مظهره الوديع مظهر خادع، وأن وراء ذلك إرادة مثل الفولاذ المطروق. وإلّا فمن أين يجيئه مثل هذا الشعر؟

«المسكين دبستر!
قال رجل ذو عينين زائغتين.
لماذا مسكينٌ أنا؟
ليس العيش بعيداً عن الوطن
مصيبة إلّا لمن فاتهم قطار الطفولة الأزرق
قطار أيامي البهيجة
أستقلّه دائماً كلَّ صباح
على أصغر قشّة.

أُسافر باستمرار طوع جذوري
حدائقي رطبة من قبلاتي الأولى
عجلاتي ومراوحي وصواريخي
تعرف دروب الشعر السرّية
إنها نهاية الرحلة!
ليبْق الجميع في القطار.

فيما بعد حدود حياتي
تبقى بطاقات السفر صالحة
الفجر والغروب يبسُطان بفرح تحت قدميّ
جُزراً أكثر استدارة من الحنين».

٧

حين يقرأ العربي أدب أمريكا اللاتينية، يدخل عالماً غريباً ومألوفاً لديه في الوقت نفسه. كأنه ينظر إلى نفسه في مرآة. كأنه يكتشف أشياء في ذاته كان قد نسيها. هذا لا يحدث له حين يقرأ الآداب الأوروبية.

في أدب (آستورباس) و(بورخيس) و(فونتس) و(أمادو) عوالم مثل عالمنا، تزخر بالحيوية وتعج بالتناقضات، الإنسان الفرد لا ينقصه الذكاء ولا سعة الخيال، ولا الطاقة على العمل. ومع ذلك تجد المجتمعات على وجه العموم أقل من حصيلة قدرات الأفراد، في حالة غليان مستمر، لا تكاد تستقر على حال. ونحن نشترك وإياهم في التجربة الاستعمارية، والتراث العربي الإسلامي الذي أخذه إلى هناك، الإسبان والبرتغاليون.

أمريكا اللاتينية مثل أفريقيا، تهمنا لعدة أسباب، ولا نعرف عنها إلّا

القليل. لذلك كانت دعوة محمد بن عيسى للكاتب البرازيلي الكبير (جورج أمادو) إلى أصيلة، مبادرة من مبادراته البارعة.

هذا عملاق من عمالقة فن الرواية في هذا العصر. ولد عام ١٩١٢ في مقاطعة (باهيّا) في الشمال الشرقي من البرازيل، وهي المنطقة التي تجري فيها أحداث كل رواياته. وقد التحق عام ١٩٣١ بكلية الحقوق في (ريو دي جانيرو) لكنه لم يلبث فيها طويلاً، فقد قرر أن يتفرغ للأدب بعد نجاح روايته (أرض الكرنفال) التي صدرت في العام نفسه. وفي عام ١٩٥٨، تأكدت شهرته حين نشر روايته (قابْريلا ـ القُرنفل والقِرْفة)، وهي رواية ذاعت ذيوعاً واسعاً حين تُرجمت إلى اللغة الإنجليزية. أنتج بغزارة، وزادت شهرته ذيوعاً، فقد حُوِّل كثير من أعماله إلى أفلام ومسلسلات تلفزيونية، وربما يكون هذا هو السبب أنه لم ينلْ جائزة نوبل إلى اليوم، فقد ظل اسمه يتردّد كمرشح لها منذ عام ١٩٦٢.

يلفت النظر في أدب (جورج أمادو) اهتمامه العميق بالتأثير الزنجي في البرازيل، حتى لتحسبه كاتباً أفريقيا مثل (أَشيبي) أو (نقوقي). بل هو في الواقع أكثر زنجية من بعض الكتاب الأفارقة الذين يكتبون باللغة الفرنسية أو اللغة الإنجليزية. تجد ذلك واضحاً في روايته (جوبْيابا) ثم في روايته (خيمة المعجزات ١٩٦٩). وتُعتبر روايته (الموت مرتين لكونْكاس وترْيلْ ـ ١٩٦٥) من روائع الأدب المعاصر.

تجد في أدب (جورج أمادو) أن إرادة الإنسان تنتصر على ظروفه، وأن بوسع الفرد أن يرتفع فوق عقبات الحياة التي تبدو مستحيلة أحياناً. وكثيراً ما تحدث المعجزات. وعالمه عالم مُتسامح، يغفر للناس

أخطاءهم، قد تتحول فيه المرأة الساقطة إلى قديسة. وقد ابتدع الكاتب نماذج لا تُنسى، كما في روايته (تيتادو أقْرِسْتي) لنساء تغلّبن ببسالة على ظروفهن البالغة التعَاسة، وأصبحن ذوات هيبة ونفوذ في المجتمع.

يلفت النظر أيضاً في أدب (جورج أمادو) أن العربي عنده ليس إنساناً مخادعاً غادراً جشعاً إلى آخر هذه الافتراءات التي تعودنا عليها في كثير من الأدب الأوروبي والأمريكي. وهو في أسوأ الظروف إنسان عادي كبقية خلق الله، عنده القدرة على فعل الخير والشر. بل إنه يفتخر بأنه ينتمي إلى التراث العربي الإسلامي الذي نقله البرتغاليون إلى البرازيل، وأن ذلك جزء من تكوينه الروحي، ويقول إن تاريخ إسبانيا والبرتغال، لا يمكن أن يُفهم على الوجه الصحيح إلّا بالرجوع إلى تاريخ العرب في الأندلس.

قلّ أن يسمع العربي مثل هذا الكلام من كاتب أوروبي أو أمريكي. لذلك أقول إنها كانت مبادرة موفّقة من محمد بن عيسى أنه دعا (جورج أمادو) إلى أصيلة، وعقد ندوة عن التمازج الثقافي في البرازيل ضمن نشاط (جامعة المعتمد بن عبّاد الصيفية). إلى ذلك، نظم له وزوجته ومرافقيه جولة زاروا فيها طنجة والدار البيضاء وفاس ومراكش. في مراكش خاصة وجد (أمادو) ملامح واضحة للعالم الجديد الذي يدعو إليه، ويجد فيه خلاص الإنسان، مراكش تلك المدينة الحمراء الفريدة، بموقعها بين أفريقيا الزنجية ودنيا العرب والبربر وأوروبا إلى الشمال. وذلك الخليط البشري الجذاب المتعدد السُّحن والألوان.

كان هذا الكاتب العظيم حقاً مخلصاً حين قال لنا في أصيلة، أنه

يعتبر أمريكا اللاتينية امتداداً لأفريقيا، وأن المحيط الأطلسي ليس حاجزاً بينهما، وأن بوسع الإنسان أن يُلغي وجوده في خياله. وذهب أبعد، فدعا أن يُغيّر اسم أمريكا اللاتينية إلى (أفريقيا اللاتينية).

وجد (أمادو) في المغرب أشياء كثيرة حرّكت وجدانه وأثارت خياله، وأكدت له صدق ما يدعو إليه. فَهِم أكثر أن الاختلاط والتمازج وتوالد السلالات وتلاقح الأفكار والأخذ والعطاء بجرأة نادرة المثال، كل تلك أمور تميّزت بها الحضارة العربية الإسلامية. بل هي أهم ما أعطته للتراث الإنساني. وإنْ بدا اليوم أننا ننحو نحو التطرّف بدل الاعتدال، والتزّمت بدل التسامح، والجمود والصَّغار عوض الآفاق العقلية والروحية الشاسعة التي فتحها العرب والمسلمون في تاريخهم، فما ذلك إلّا لأننا تُهنا عن المنابع الصافية، وشربنا من آبار موبوءة المياه.

بلى، وقد صادف وجود (جورج أمادو) في أصيلة، بلوغه التاسعة والسبعين من العمر، فنظّم محمد بن عيسى احتفالاً بالمناسبة كأنه عرس، انعكس ضوء الشموع على مياه النوافير في صحن قصر الثقافة الجميل. أنشدت جوقةُ الموشحات الأندلسية كما كانت تُغنّي ولا بد أيام مجد العرب في الأندلس. رقصت بنات أصيلة في ثيابهن المغربية الأخاذة. وجوه عربية وبربرية وأوروبية وزنجية، ووجوه مزيج من كل ذلك.

رأيت عينيْ الكاتب الكبير تفيضان بالدمع، ولا أظن أنه سوف ينسى أبداً.

٨

في حوار أُجري معه في باريس عام ١٩٨٧ قال «جورج أمادو»:

«أنا كاتب بسيط من (باهيّا). لا أعرف كيف أرقص أو أغني أو أقود السيارة. فقط أكتب. وأنا أكتب عن الأشياء التي أعرفها. آخذ من تجارب حياتي. منذ بدأت وأنا صبي، كنت أحس بتعاطف تلقائي مع الطقوس الأفريقية. وما أزال. في البرازيل تعرّض العنصر الزنجي والثقافة الزنجية إلى اضطهاد عظيم من قبل الكنيسة الكاثوليكية. كانوا هَدفاً لضروب وحشية من الاضطهاد. اضطهاد على أساس العِرق والدين والطبقة. وأنا كواحد من الذين قاوموا الاضطهاد باستمرار، فإنني أقف في صف عامة الناس. أقف في صف الثقافة الزنجية، في صف الجماهير الزاخرة التي يتكوّن منها الشعب البرازيلي».

في «أصيلة» في شهر آب/أغسطس الماضي، قال أمادو إن البرازيل

أصبحت اليوم مثلاً يُحتذى في التعايش السلمي بين مختلف الأجناس، والتمازج الخلّاق بين الثقافات. وقد سألتُه كيف حدث ذلك، ولماذا في البرازيل بالذات، فقال:

«إنها معجزة».

وبعد أن فكّر قليلاً أضاف:

«البرتغاليون رغم أي شيء، امتازوا عن الإسبان والأنجلوسكسون باستعدادهم العظيم للاختلاط والتمازج. أنجبوا أطفالاً غير شرعيين من النساء الزنجيات ونساء الهنود سكان البرازيل الأصليين. كان هدفهم إنتاج مزيد من الرقيق للعمل في حقول البن وقصب السُكر. إلّا أن هذا العنصر الخُلاسي المولّد جاء أكثر حيوية من البرتغاليين وأكثر ذكاء، بل وأكثر جمالاً ووسامة، فلم يستطيعوا أن يفرضوا سيطرتهم عليهم مدة طويلة».

والحق، أن ما حدث في البرازيل وفي أماكن أخرى، نوع من المفارقة الحادة التي ما يفتأ يقدمها لدعاة التفوق العرقي والتفرد الحضاري. ظل البرتغاليون منذ عام ١٥٣٢ يجلبون إلى البرازيل آلافاً من الزنوج الأرقاء من غرب أفريقيا، من قامبيا وسيراليون ومالي وساحل العاج وساحل الذهب وخاصة من أنجولا التي استعمروها ربما لهذا الغرض. وكان كثيرون من هؤلاء الأرقاء، كما يقول كاتب إنجليزي «مسلمين يعرفون القراءة والكتابة. وكانوا أكثر رُقيّاً وتحضُّراً من سادتهم البرتغاليين الذين كانوا أميين في الغالب».

وكما حدث للعنصر الأوروبي في أماكن كثيرة بدرجات متفاوتة، فقد عاشر البرتغاليون في البرازيل النساء الزنجيّات وأنجبوا منهن مزيداً

من الأرقاء. ولكن هذا العنصر الجديد كما قال «جورج أمادو» خرج يحمل «جينات» أكثر صلابة، ومصابرة على الحياة لا يملكها أسيادهم البيض. وكان حتماً أن يفقد البرتغاليون وضعهم المميّز، ويذوبوا في هذا المحيط البشري الهجين. يقول «جورج أمادو»:

«في الموسيقى مثلاً، حين تستمع إلى «هيتور فلاّ لويوس» أو إلى ملحنين أمثال «دورفال قايمي» و«كايتانو فلوسو» و«قلبرتو جلْ» تجد الأثر الأفريقي واضحاً. بلادنا فيها ثلاثة روافد ثقافية كبرى. البرتغالي الأوروبي الأبيض ـ رغم أن البرتغاليين ليسوا بيضاً تماماً ـ والأفريقي والمحلّي. الثقافة البرازيلية هي جماعُ كل هذا.. ثقافتنا صُنعت في الفراش».

بدأ البرتغاليون تحرير الرقيق، بتحرير أبنائهم من أمهات مسترقات. وقد أصدروا عام ١٨٧١ قانوناً أطلقوا عليه اسماً عجيباً هو «قانون الرّحم الحُرّة». ولم يكن ذلك بدافع إنساني، ولكن لأن أسعار السُّكر في العالم كانت قد هبطت إلى مستوى جعل الاحتفاظ بالرقيق العاملين في مزارع القصب أمراً باهظ التكلفة. وفي عام ١٨٨٥ أصدروا قانوناً بتحرير الرقيق فوق سن الستين. وفي عام ١٨٨٨ صدر قانون شامل بتحرير الرّقيق.

في ظل هذه الظروف القاسية نشأ كتّاب وشعراء عظام من أصل زنجي، منهم الشاعر «كروزو داسوزو» والكاتب الروائي «ألفونسو هنريك دي ليما بارتو» الذي تعالج أعماله مشكلة الاضطهاد العنصري الذي تعرّض له الزنوج والمولّدون في مجتمع يعتبر نفسه أوروبياً ـ لاتينياً. وتُعتبر روايته «المصير المُحزن لبوليكاربو كوارسْما ـ ١٩١١» علامة هامة في تاريخ الأدب البرازيلي. وفي روايات

«قلبرتو فريري» تأكيد على عمق التأثير الأفريقي في الأدب البرازيلي، كما في روايته «السادة والعبيد ـ ١٩٣٣». وهو مولّد من الإقليم الشمالي الشرقي وهو الإقليم نفسه الذي جاء منه «جورج أمادو». وتجدر الإشارة إلى شاعر مولّد من أصل عربي هو «كارلوس نجّار»، يحظى بشهرة واسعة، ومن مؤلفاته «قبعة للمواسم».

هذا، ويقول العالِم الكبير الدكتور عبد الله الطيب في إشارة جميلة إلى بيت عنترة العبسي:

بركت على جَنْبِ الرَّداع كأنما
بركتْ على قصبٍ أجشَّ مُهضَّمِ

يقول إن عنترة كأنما كان يصف صوته، ذلك لأن الناقة حين بركت على القصب أحدثت صوتاً كما تنفخ في مجموعة من النايات.

نعم، بوسعك أن تسمع في هذا البيت، وفي كل شعر عنترة الحافل بالنُّبل والشجن، صوتاً كصوت المغني الأمريكي الزنجي العظيم «بول روبْسُنْ». هذه الأعماق والأبعاد جاءت إلى عنترة من إرثه العربي الزنجي.

ذلك أيضاً تجده في أدب «جورج أمادو»، هذا الإنسان الأوروبي الذي يحمل روحاً زنجيّة. الكاثوليكي الذي يحتفي بتراث الإسلام. الأبيض الذي يتمنى لو كان هجيناً. المواطن البرازيلي من «باهيّا» الذي اكتشف أشياء يعرفها ويحبها في «أصيلة» في المغرب. يقول:

«سوف يمضي الأدب البرازيلي في طريقه وفيّاً لخصائصه الأساسية ومحافظاً على التزامه بقضايا عامة الناس. في أدبنا وحدة عريقة منذ عهد شاعرنا العظيم «قريقورْيو دي ماتّوس»، ذلك الرجل المولّد من «باهيّا». لقد قاوم الاستعمار البرتغالي، وحتى في تلك الظروف العصيبة، رفع لواء الحريّة وحارب في سبيلها. هذا التراث الذي وصل إلينا اليوم، يؤكد أن الأدب البرازيلي كان دائماً في خدمة عامة الناس».

٩

فرحت أيما فرح حين وجدت (ماسيسي كونيني) في مطار لندن، ينتظر مثلي طائرة الخطوط الجوية المغربية المسافرة إلى طنجة.

«أنت قطعاً ذاهب إلى أصيلة».

«نعم. وأنت؟».

«أنا أيضاً .. أهنئك على فوزك بجائزة (شيكايا أوتامسي) للشعر الأفريقي».

قال ضاحكاً بطريقته الجذابة:

«يوي يوي. وكيف عرفت ذلك؟».

«إنني عضو في لجنة التحكيم التي منحتك الجائزة».

«ها. إذاً هذا من فعلك أنت؟».

أبداً، كل أعضاء اللجنة أجمعوا على منحك الجائزة، من أحق بها منك يا قورو؟».

حين تعرّفت به منذ نحو عامين في جامعة (براون) في أمريكا، قلت له أن فيه سمت علماء المسلمين القدامى. وكلمة (قورو) قد تعني (الشيخ). أسعده ذلك جداً. فيه أيضاً شيء من طيبة المرحوم زكريا الحجاوي وإنسانيته الغامرة.

كنا نحضر مؤتمراً عن الأدب الأفريقي. لفت نظري أول مرة خلال محاضرة للعالم الكيني العربي المعروف، علي المزروعي. أثناء النقاش الذي أعقب المحاضرة، تطرّقت كاتبة من (زمبابوي) إلى علاقة العرب بأفريقيا، مرددة كل التهم الباطلة التي روّجها عنهم الرحالة الأوروبيون القدامى.

كان أول من انبرى لها (ماسيسي كونيني). قال لها بغضب أدهشني:

«أنت تقولين كلاماً فارغاً لأنك جاهلة ولا تفهمين شيئاً. العرب إخواننا وجيراننا. نحن وهُم شيء واحد. يناصروننا في نضالنا للتحرر ويدعمون مشاريعنا التنموية، في كل أفريقيا، من شرقها إلى غربها».

كلام يثلج الصدر، نادراً ما يسمع الإنسان مثله في طوفان الحزازات والأحقاد السائدة. وقلت يا ليت إخواننا في جنوب السودان يسمعون هذا الكلام. في حوار لي مع أحد مفكريهم، قلت له: «العرب شركاؤكم وإخوانكم».

قال لي:

«شركاؤنا.. ربما . إما إخواننا، فلا».

بعد المحاضرة، ذهبت إليه، وعرّفته بنفسي. وجدته عميق المعرفة بالشؤون العربية، وله صداقات مع عدد من العرب. شعرت بالخجل أنني لم أسمع به من قبل، وهو على ما هو عليه من أهمية وشهرة، وأنا من السودان، غير بعيد من خط الاستواء. السودان الذي يُفترض أن يكون جسراً من الجسور التي تربط بين ديار العرب وديار الزنج. وإذا كان مثلي لا يدري، فكيف حال العرب العاربة؟

بعد ذلك حين عدت إلى لندن، وجدت بين كتبي، ديوان الشاعر الكبير (إيمي سيزير)، من جزر المارتنيك، وأحد المؤسسين لحركة (الزنوجة) في باريس، مع (ليوبولد سنقور). كنت قد قرأت الديوان، لكنني لم أكترث يومئذٍ إلى أن كاتب المقدمة رجل يسمى (ماسيسي كونيني).

رجل من قبيلة الـ (زُولو) الباسلة التي دوّخت البريطانيين في جنوب أفريقيا بقيادة ملكها البطل (شاكا). اسمه الأول (ماسيسي) يعني (الشاعر الذي لا يكذب قومه). واسمه الثاني (كونيني) يعني (سليل بيت الملك الأول).

رجل سمح بكل معاني الكلمة. يميل إلى القصر، ويميل إلى البدانة. يتدحرج في مشيئته مثل الملاكمين. وجهه نضر وعيناه ضاحكتان. في منتصف الستين، لولا شعر رأسه المُبْيَض، تحسبه في منتصف الأربعين.

وُلد في مدينة (ديربان)، وتعلّم في جامعة (ناتال) إلى أن نال درجة الدكتوراه في الآداب. ولم يكن له مَفرّ بطبيعة الحال، من أن ينغمس في خضم حركة النضال العنيفة ضد النظام العنصري في جنوب أفريقيا. لذلك لم يستقر طويلاً في بلد واحد، فتنقّل من القاهرة إلى لندن إلى باريس إلى نيجيريا إلى بتسوانا.

كذلك لم يثبت في عمل واحد. عمل مدرّساً ومترجماً وخبيراً دولياً ومخرجاً سينمائياً ومحاضراً جامعياً. ثم استقر برهة في كاليفورنيا حيث يعمل أستاذاً للّغات والآداب الأفريقية. لكنه استقرار مؤقت، فقد عزم الآن على العودة إلى موطنه، بعد غربة دامت أكثر من ثلاثين عاماً.

قال لي، ببساطة، ودون أي إحساس بالمرارة:
«هذا أفضل. لقد تعبت من الغربة».

لا تحس أي مرارة في هذا الإنسان، الذي نما في أحشاء الظلم والاضطهاد. اللهم إلّا في حنايا القصائد بطبيعة الحال.

عالم ومفكّر وأديب، وفوق كل شيء شاعر مرموق. من مؤلفاته (الأمبراطور شاكا الأكبر) و(شعر المقاومة في جنوب أفريقيا)، ومن أشهر دواوينه الشعرية (الأسلاف والجبل المقدس) و(قصائد زوليّة).

يقول في قصيدة عنوانها (أوروبا):
«نظرت إليك جامحة تحملين أسفاراً
ممّا تركه لكَ العرّافون القدامى
سمعتُ صوتك في الغاب

تَعْوين كذئبة قرِمَة.
تنهشين لحم عشيرتك حتّى العظم.
إنني أعلم كم أنت قاسية وبشعة المنظر.
غلّقت الأبواب،
واتخذت الفولاذ الصّلب ضجيع عرسك،
ليس لأنك أحببته فاصطفيته بدافع الحب، ولكن لأنه الوحيد.
الذي أذعن لك بلا مقاومة».

١٠

احتفلت (أصيلة) احتفالاً بسيطاً وجميلاً بمنح الشاعر الأفريقي الجنوبي (ماسيسي كونيني) جائزة (شيكايا أوتامسي) للشعر. البساطة الجميلة من سمات هذه البلدة، التي كانت حين جئتُها أول مرة، مجرد نقطة للعبور في الطريق من طنجة إلى الرباط والدار البيضاء. كانت غافية مغمورة الذكر، رغم تاريخها العريق، ونضالها الباسل.

ثم قيّض الله لها أحد أبنائها، فعاد إليها بعد غربة، مملوءاً حباً وطموحاً، فحرّكها وتحرّك بها. تغيّرت أحوالها، وأخذت تتطور في هدوء، لم تطفر تلك الطفرات التي اجتاحت بعض المدن، فتعثّرت أقدامها. أصبحت والحق يقال، مثلاً يُحتذى، كيف تكون التنمية جهداً مشتركاً بين الصفوة المفكّرة وعامة أفراد المجتمع، وكيف تلتئم الثقافة بالاقتصاد، وأحلام الفنانين والشعراء، مع متطلبات العيش.

أصبح لهذه البلدة الصغيرة على شاطىء الأطلسي، امتداد في الخيال قلّ نظيره. حملها في قلوبهم وعقولهم المغنّون والرسّامون والشعراء والكتّاب والمفكرون، من البرازيل إلى اليابان، ومن جنوب أفريقيا إلى السويد.

اتّسعت وامتدت، ولكن لم تقم فيها حتى الآن لحسن الحظ عمارات ضخمة من الإسمنت والزجاج، هذه الآفات التي لم تنج منها مدينة عربية. وهي بموقعها المتميز، وامتداد شاطئها الرملي، تغري بلا شك، شركات الاستثمار السياحي. سوف ينقضّون عليها إن عاجلاً وإن آجلاً، أرجو أن تعمى عيونهم عنها أطول وقت ممكن، وتظل المدينة تتطور على طريقتها الهادئة المتحضّرة.

وهكذا كان الاحتفاء بهذا الإنسان الأفريقي الشاعر، (ماسيسي كونيني) بسيطاً وجميلاً، مفعماً بالدفء بفضل قدرة محمد بن عيسى النادرة، في إشاعة الدفء وروح الصداقة. حين اختاره الملك سفيراً للمغرب في (واشنطن)، تخوّف كثيرون من محبي أصيلة، أن يفقد الموسم روحه الفاعلة وقوّته المحرّكة. ذلك لم يحدث لحسن الحظ. ظل من موقعه هناك، ينظم للمهرجان بنشاطه المعهود، يساعده معاونوه القدامى أمثال الملّيحي والبقّالي.

ذكّر محمد بن عيسى بالشاعر الكنقولي الراحل (شيكايا أوتامسي) الذي تحمل الجائزة اسمه منذ ست سنوات، وقال إنها الجائزة الوحيدة في العالم المخصصة للشعر الأفريقي. وبعد أن نوّه بالدور الذي قام به المغرب بحكم تاريخه وموقعه، في مناصرة حركات التحرير في أفريقيا، وتوثيق الروابط بين شمال أفريقيا وجنوبها، أطنب في الثناء على (ماسيسي كونيني) الفائز بالجائزة هذا العام.

أشاد به إنساناً وشاعراً ومناضلاً. وكنت أنظر إلى (ماسيسي) أحياناً، فأرى علامات السرور والحرج تتدافع على وجهه الطيّب الوديع.

تكلم أيضاً وزير الثقافة الجديد، صديقنا القديم من أيام العمل معاً في منظمة اليونسكو بباريس، الدكتور محمد علاّل سي ناصر، كانت كلمته قصيرة مؤثرة، أشاد فيها بشاعرية (ماسيسي كونيني) وفكره. وحضر الاحتفال عامل الملك على إقليم طنجة.

ما أجمل أن تحتفل مدينة عربية بشاعر من أقصى جنوب القارة، تضمّه إلى صدرها، وتحنو عليه كواحد من أبنائها. هذا ما أحسّ به الشاعر الذي تغرّب طويلاً وعانى كثيراً. لم ير الحُب فقط في وجوه أهل المدينة، ولا في عيون المغاربة الذين جاءوا من مراكش وفاس والدار البيضاء والرباط وتطوان، ولكن رآه أيضاً في وجوه كل الرجال والنساء، الذين توافدوا على أصيلة من كل أقطار الدنيا. أبناؤها وبناتها بالتبنّي.

فيهم الشعراء والرسامون والكتّاب والمغنون وأساتذة الجامعة. كثيرون منهم عانوا مثل الشاعر المُحتفى به من آلام المنفى والاغتراب. كانوا يفهمون أحاسيسه جيداً، بينه وبينهم، وبينهم جميعاً وبين المدينة الواقع ـ الحلم، أواصر مودة وقربى.

أدرك الشاعر كل ذلك، لذلك قال بصوت مملوء بالعاطفة في كلمته البليغة، إن نيل جائزة (شيكايا أوتامسي) أسعده أكثر من أي جائزة أخرى حصل عليها، وقال «نحن هنا نحتفي بأنفسنا».

ولم يكن نغماً نشازاً في فيض الشعور الإنساني الذي غمر الحفل، أن يؤكد (ماسيسي كونيني) على الإخاء العربي الزّنجي، ويدعو إلى توثيق الأواصر بين شمال القارة وجنوبها، بشتى الوسائل. ذلك أن أفريقيا هي المنطلق، وهي قارة منشطرة على نفسها. لكي تساهم في مسيرة الحضارة الإنسانية، كما فعلت من قديم، عليها أن تتوحّد مع نفسها.

قال (ماسيسي كونيني) في ختام حديثه «أنا لست شاعراً من الزّولو. أنا شاعر أفريقي أكتب بلغة الزولو». إنه أكثر من ذلك في الواقع. أصبح شاعراً عالمياً يكتب بلغة الزولو، فقد سافر صوته بعيداً بألسنة شتى.

■ ■ ■

بعد أن انتهى (ماسيسي كونيني) من إلقاء كلمته الجميلة، التي بثّ فيها من روحه الشاعرة، تناوبنا القراءة من شعره. إنه يكتب بلغة الزولو، وقد ترجم بعض قصائده بنفسه إلى اللغة الإنجليزية. قرأ الشاعر الكبير أحمد عبد المعطي حجازي، قصيدة «صراخ» من ديوان «قصائد زوليّة» الذي نُشر عام ١٩٧٠:

أهُبك صراخ ألف رجُلٍ مخبول
ينادون أناساً ليست في قلوبهم رحمة
يحدّثون فوق القبور،
عن هياكل عظمية، مكدّسة أكواماً فوق أكوام
عظام تخلّفت عن مفاصلها.
أهبُك صراح ألف نسرٍ كاسر

محوّمة فوق ركام الجثث،
حيث فيالق جيوشٍ
أبادت فيالق جيوش
على سفوح الجبال.
العيون تتآكل في محاجرها
والقمر يولّي عنها،
يتركها للعراء.
أهبك هذا الثوب الممزّق من وسطه
مُلقى في ميدان المعركة
انهزم عنه الذين فرّوا
قبل أن يترك الأطفال أثداء الأمهات.
خبّريني، خبّريني
من تلفّع به قبل سقوط الشتاء؟

كذلك قرأ أحمد عبد المعطي حجازي، قصيدة «ابن الكائنات الجميلة» من ديوان «الأسلاف والجبل المقدس» الذي نُشر عام ١٩٨٢:

أنا راقص الجنوب
حواريُّ ظلال الجبال في الوديان
أنا الجميل، سليل القبائل التي لا تُقهر
أنا ابن الابن سليل الضياء،
الجميلُ الذي يقتحم القاعات المحتشدة
إلى حيث الخائفون يتهامسون.
أنظُرُ حولي،
نظرتي تلمّ الأرض والأشياءَ

وأقول للساحرة تُمخبُلواني
أنني قد وصلت.
هذا الرجل القميء
ذو الأصابع مثل أغصان الشجر
يتقدّم مني خاشعاً ذليلاً
هل هي أرسلته؟
عُدْ إذاً أيها القزم،
اذهب وقل لها،
وقل لعشائرها،
أنني هنا،
أن الراقص قد وصل.

ثم قرأ «جان سفْري» أستاذ الأدب الأفريقي في جامعة «منبلييه» مقاطع من قصيدة «أوروبا» باللغة الفرنسية، وهي من ديوان «قصائد زولية»:

بناؤك يا أوروبا
أقمتِه على صخرة صمّاء
قلبكِ مثل بيت عنكبوت قديم
في صحراء جرداء
حتّى أطفالك يبثّون في قلوبنا الذعر،
إنهم مثل صغار أفعى
ينهشون لحم أمّهم
وقهقهت تضحكين ساخرة من مكفوفي البصر
ولكنّك أنت العمياء
تتخبّطين في عتمة هذا الليل

تُشعلين الحرائق للنّائمين.
الشمس، ماذا تقول؟
سوف تضحك الشمس
لأنها أحرقت في المهْد
حِقَباً بعد حِقب.

وقد قرأت أنا مقاطع من قصيدة «ميلاد دورة حياتنا» وهي من ديوان «نشيد الأحقاب» الذي صدر عام ١٩٨١:

ثُم وُلد الزمان
وطوّق الأرض غلافٌ من ظلام كثيف
وفاض الصّمت في الفضاء كضوء قمر شفّاف
كُتلٌ من الظلمة التحمت في الآفاق
وارتعشت الأرض كأنّها قلب ضخم
واشرأبت رؤوس الجبال الحادّة المعوجّة
لتتلقّى باكورة فاكهة الشمس.
وحين انتصر الظلام، سلّت النجوم سيوف الضوء
(عوالم أقدم من عالمنا، كما حدّث الرواة)
أحدث الضوءُ ثقوباً في حُجُب الغيوم
فأطلت أسرارٌ كانت مكنونة.
وظل الموج يمدّ الشطآن الفسيحة بالحياة
ثم انشقت الأرض عن مخلوقات
أخذت تزحف على بطونها
ومخلوقات أخرى أخذت تخفق بأجنحتها
وأخرى راحت تحفر الأرض بأظلافها
ثم زأر الأسد زئيراً كالرّعد

مطلقاً رِعْدة الخوف الأولى
ونظرت الوحوش الأَضعف، نظرات مملوءةً رُعباً
وحين ذاقت طعم الفريسة وولغت في الدماء،
كلُّها انخرطت في المذبحة المشتركة
وهكذا عُرفتْ الحكمةُ الأولى،
يجب أن تَستمر الحياة.
لا بد أن تلتهم الشهوات القاسية
كلّ الأشياء الجميلة.
وكما شاءت الإرادة العليا،
فإن جحافل المخلوقات سوف تعمر عالم الحجر هذا
وسوف تهتز الغابات لقعقعة سنابك الوحوش
سوف تختال الظباء على الجبال
سوف تجيش الأنهار بالخصب
إنّما الإنسان، لم يظهر بعد،
سوف يجيء مملوءاً خيلاء لا يأبه لشيء
كأنّه وحده الذي يستطيع أن يعزف مزامير
أن يغني أناشيد الحياة

(*) ترجم القصائد عن أصلها في الإنجليزية كاتب المقال. في الكتيب الذي نشره المنتدى الثقافي العربي - الأفريقي بأصيلة، للكاتب اللبناني شربل داغر. وهي ترجمة عن الترجمة الفرنسية، لذلك فهي مختلفة عن هذه الترجمة بعض الشيء.

يطربني حقاً مثل هذا الشعر:

في غُربتي عارضْتْ أنا ركْب الأغراب
أشدْ وأنزل والليالي ركايبْ
أضداد وأقران وعدوان وأصحاب
متناقضات الخلق ما غاب غايب
وقامت تجاذبني على درب الأسباب
نفس الشباب يحدها عقل شايب
أصبح على فجرٍ ضحوك وعجاب
وأمسى على همسات ستْر العجايب
وأسهر مع تهويم نجمات الأحباب
حتى يصير النّجم بالصبح ذايب
مشيت في رمْضا وسنّدت بهضاب
وعارضَنّي سيولٍ وهبّت هبايب

فيه من روح غيلان والشريف الرضي وابن المعتز.

ولا يغرنّك أنه ينظم بالدارجة، فمنها ما هو أفصح من الفصيح. ولا يضيره كونه أميراً، فهذا شعر يأتي من أغوار بعيدة. وتعجب من أين له كل هذه المكابدة، وهو راضٍ بمقامه في عسير. إنما هو عذاب الشعر الحق، يصيب الأمير كما يصيب الفقير.

لا بد أن نجداً هي التي صنعت به هذا، وقديماً جُنّ جنون غيلان، ملك الشعراء النجديين على مر الزمان.

والأبيات بالطبع للأمير خالد الفيصل. حيّيتُه في الاحتفال بتوزيع جوائز مؤسسة الملك فيصل، شأن من أحب شعره قبل أن يلقاه. وحياني كأنه عرف لي ذلك. وكنتُ قد رأيته من قبل في افتتاح مهرجان الجنادرية، يعرض بالسيف مع الأمير سلمان بن عبد العزيز، متدثّريْن بالعلم السعودي الأخضر. العم يعرض بمهارة، والشاعر طرب، وحق له أن يطرب، فالشعر الذي افتتح به المهرجان وغنّاه محمد عبده وطلال المداح وآخرون، من نظمه.

في الديوان، الذي يستحق وقفة أطول في مجال أوسع من هذا، قصيدة يتغنّى فيها الشاعر بنجد، أهداها للأمير سلمان، يقول فيها:

سريت ليل الهوى لين أنبلج نورَه
أمشي على الجدى وتسامرني القمرا
طعس وغدير وقمر ونجوم منثوره
وأنفاس نجدٍ بها جرح الدَهَر يبْرا
يا نجد الأحباب لك حدر صوره
طفلة هلال وبنت أربع عشر بدرا

حبيبتي نجد عيني فيك معذوره
معشوقة القلب فيها للنظر سحرا
فضّة شعاع القمر في نجد مسحوره
من شاف لمعة قمر في خدَّةٍ سمرا

ما أحسن هذا. وهل أنفاس نجد تبرئ جراح الدهر لغير النجديين؟ يا ليت. إذاً لشددنا إليها الرحال، فنحن كما قال صاحبنا «جرّحت مُجرّحا...». وقد أجابه على الروي نفسه، الشاعر الآخر العرم، الأمير بدر بن عبد المحسن، فقال:

يا ساري الليل شعرك جسّد الصوره
زيَّنْت بنجوم حرفك صفحة الغدرا
بعض السما من بعضها اليوم مقهوره
زهت من قصيدك وزْعلتِ عذرا
فحتْ بك أهضاب نجد وضحكت زهورَه
وحنّت طربْ في المضامي بكرةً عفْرا
والوادي اللّي شهود أمجاده اقصوره
يا مير هو عشقنا في ما مضى وبكرا
لو كل شاعر كتب من صادق شعوره
شفت الصخر والمسايل وتكتب وتقرا

صدق. وقد أنطق شاعرنا الشكريُّ أرض (البُطانة)، وجعلها (تكتب وتقرا) في مثل قوله:

البارحْ أنا وقصبةْ مزالقْ السّيلْ
في ونَسة وضحك لا من قسمْنا الليلْ
وقتينْ النعامْ اتشقْلبنْ به الخيلْ
لا بَخلتْ ولا جادتْ عليَّ بلْحيلْ

كذلك ترى، أن أرض (البُطانة)، ليست عن ديار نجد ببعيد. ومن حسن حظ هذا البيت من (مَعَدْ) أن فيه كثيرين، إما شاعر وإما محب للشعر. وذلك دليل أكيد على نبل الطبع، وفيض الأريحيات التي عناها أبو عبادة.

ذلك، وقد سهر معنا هذا الشاعر الشاب، الأمير بدر بن عبد المحسن في (الخيمة) التي كانت ملتقى الشعراء والكتّاب ليالي المهرجان، فأنشدَنا وأنشدناه إلى قريب من مطلع الفجر. ومن الشعراء الذين لفتوا نظري في تلك الليالي، شاعر نجدي حدَثْ، لا أظنه جاوز العشرين، على وجهه وعثاء الشاعر في بداية الطريق. أهدى لي ديوانه الذي لم يطبع بعد، يقول في قصيدة منه:

الموت حظ القلم والمجد للدّفتر
حبر القلم غلطتي وأيّامي أوراقي
الخوف يجتاحني وجه الطريق أسمر
راح أكثر العمر يا خوفي على الباقي
يا جرح رافقتني للناس لا تظهر
إن عشت في نظرتي ما مت بأعماقي
يا صوت لا تلتحف صمتي ولا تصبر
قُلْ ما تبي واترك الهقوة على الهاقي
والخطوة اللي عن آخر سكتي تقصر
ما هيب من طبع رجليني ولا ساقي
ثراي ما ينشد الغيمة متى تمطر
ما دامها في سماي تحن لإغراقي
رُحْ وين ما تشتهي رُحْ قَدْ ما تقدر
أنا أول الناس في قلبك وأنا الباقي

اسمه نايف صقر، وسوف يصل إن شاء الله..

ثم سهرت في دار أخي مبارك العشي مع شاعرنا عبد الله محمد خير، من ديارنا في شمال السودان. في شعره حلاوة اللهجة (الشايقية) وبلاغتها، يغنيه (صديق) بصوته الذي شرب اللوعة ويسقيها من مياه النيل. من بعض ما أنشدنا، قصيدته الشهيرة عن المعشوقة التي هاجرت إلى الخرطوم، يقول فيها:

يا الخرطوم تشيلي حبيبي ما لك وما لُهْ؟
هوَّ أبانا ولّا كثير علينا جمالُهْ؟
يميل كُلّ ما النسيم هزَّ الضفاير مالو
وصدره تقيلْ يا الله يتْخمَّا لُهْ

(يخُمْ)، تعنى مَلء اليدين من الشيء، أو المكابدة في حمل الشيء الجسيم، فانظر أي صدر ذلك كان! وهذا الشاعر في ديارنا، أمير من أمراء الشعراء، وإن كان الآن، يعمل (بزازاً) في سوق الرياض. وكل ذلك، لا بد له من وقفات أطول، إن شاء الله.

هواء أصيلة في هذا الموسم، لطيف شفاف، ألطف مما أذكر في أي موسم حضرته من قبل. يحلو المشي بالليل، من المركز في وسط المدينة إلى نُزل (الخيمة). يحلو الجلوس خارج المطعم، على حافة حوض السباحة الذي يكون قد فرغ من السابحين.

يلذّ لك مذاق الطعام، ومذاق الماء القراح، والشاي بالنعناع، وطعم الخبز المغربي من القمح الخالص، وطعم (مربة) المشمش التي ليس لها مثيل إلّا في تونس.

إنها حالة نفسية عابرة بالطبع، تحس فيها أن الأشياء قد ترابطت واتفقت، وانسجمت حركات نفسك مع هبّات النسيم، ووثبات أمواج البحر، وأصوات خلق الله في ساحات المدينة.

قال إميل حبيبي «عالمي الفكري انهار فوق رأسي ولكن تجربتنا لم تذهب هباء».

وقال «ذوبان الثلج عن مزابل الماضي».

وقال «تعويضات عن تاريخ متكامل من قسمة ضيزى؟».

أسجل بعض العبارات التي تلفت نظري في ندوة (التأثير الأمريكي في المتخيل العربي ـ الأسطورة والواقع). أفعل ذلك كعادتي في هذه الندوات حتى أظل منتبهاً. وقصة أمريكا والمتخيّل العربي، قصة طويلة. إنما جرأة إميل حبيبي على اللغة تعجبني، وطرافة استعاراته، وبكارة صوره. وذلك في مذهبي، يكفيه ويزيد.

ترأس الجلسة في اليوم الثاني، كان الرئيس في اليوم الأول أحمد عبد المعطي حجازي. كان إميل حبيبي رئيساً سيّئاً بالمعنى المتعارف. يدخل في مشادّات مع المتكلّمين، ولا يبالي ألّا يكون محايداً. ولكنه كان رئيساً فذاً في قدرته على التواصل، وتحولاته المفاجئة من الغضب إلى الضحك، وبراعته في بلبلة أفئدة الجمهور، فيظل يقظاً طول الجلسة.

في الأمسيات في دار محمد بن عيسى، ضحك كثيراً وغنّى وطرب. لكن قهقهاته مبلّلة بالدموع. حزين بسبب ما نعرف وبسبب ما لا نعرف. وأنّى لنا، مهما جمح بنا الخيال، أن نسبر غور الجرح الفلسطيني؟

قال لنا العام الماضي، وكان قد جاء إلى أصيلة أول مرة «ولا

يضيرني الاعتراف بأن الشكل ـ أي الأسلوب ـ هو إحدى غاياتي الأدبية، من حيث رغبتي في تواصل التجربة وعدم انقطاعها. وأعتبر اتقان أسلوبنا العريق ولغتنا الفنية، بعض التأدية للأمانة التي حمّلنا إياها أجدادنا العظام. وقد يكون اهتمامي بالشكل في أوضاعنا الخاصة، رداً ثقافياً على محاولات اقتلاعنا من وطننا شعباً وتراثاً. ويحق لنا أن نذكر إسهامنا المتواضع هذا في نجاح شعبنا العربي الفلسطيني في تفادي مصير الأندلس وإقليم إسكندرونة عن هذا الوطن الذي لا وطن لنا سواه».

مهما بدا لنا، فلا بد أن نقرّ لإميل حبيبي أنه يعتني باللغة عناية فائقة، كتابة وحديثاً. إنه على أي حال، بالرغم من حزنه الدفين، سعيد أنه يستطيع الآن أن يخرج من السجن أحياناً. يحلّ في بلد عربي، ويلتقي بعرب عاديين في ظروف عادية. يحاور ويشاجر ويغضب ويضحك. وهذا ما يطلبه الفلسطيني في نهاية الأمر. أن يكون إنساناً عادياً في وطن عادي في ظروف عادية.

قال لي برفق، كأننا رفيقا سلاح سقطا في ساحة القتال:

«إنك تعرض آراءك بتعالٍ وسخرية».

قلت له: «التعالي صفة لا تنطبق علي عادة. ولكنني أحاول أن أكون متجرداً (Detached).

قال: «Detached نعم. هذه هي الكلمة التي أردتها».

ثم ضحك ضحكته المجلجلة التي تجيء من جرح لا أستطيع أن أسبر

غوره. وكيف لي، وأنا في نهاية المطاف أنتمي إلى بلد، مهما بلغت به التعاسة، فهو موجود، وإن كان مهدداً بالضياع.

ذلك، ونسيم أصيلة كما وصفت، وهواجس الليل كما وصفت، وذلك الطّيف الذي أضاء لي من وراء أزرعات. أخذني على حين غرة، بين القلعة والخيمة، فزادني أيَّ حيرة.

أنجزت جامعة المعتمد بن عباد الصيفية المفتوحة، في موسم أصيلة هذا العام، عدة ندوات كبيرة، تطرّقت إلى الاقتصاد والمعمار والفن والبيئة. وقد حضرتُ منها الندوة الأخيرة التي انعقدت بين الحادي عشر والثالث عشر من شهر آب/ أغسطس، وكان موضوعها «التأثير الأمريكي في المتخيل العربي ـ الأسطورة والواقع».

افتتح الندوة السيد محمد بن عيسى، وزير الثقافة السابق، وسفير المغرب الحالي في واشنطن. ومن حسن الحظ أن عمله الجديد، بكل أعبائه ومشاغله لم يقطع صلته بهذا الملتقى السنوي، الذي أصبح بحق منارة من المنارات الثقافية الكبرى في العالم العربي.

إنها شجرة طيبة، غرسها بيده، وأولاها من جهده وعنايته، حتى فاءت ظلالها، ولذّت ثمارها. وما كان ذلك ليتم بطبيعة الحال، لولا

الدعم المادي والمعنوي المتصل، من عاهل المغرب المستنير.

ولا يخفى أن قضية «التأثير الأمريكي في المتخيل العربي» قضية شاسعة. وقد تساءل العلماء والباحثون في هذه الندوة عن المتخيل العربي ما هو؟ ونحن نعلم، أن العرب (أعاريب)، وأمريكا (أماريك) ـ ليسوا شيئاً واحداً.

على أي حال، لا ينكر أن أمريكا هذه الأخلاط البشرية المتباينة، في هذه الرقعة الواسعة من الأرض، قد أصبحت عاملاً مؤثراً على العالم بأسره. وذلك بسبب ما تأتى لها من نفوذ سياسي، وجبروت عسكري، وتقدّم تكنولوجي، وقوة اقتصادية، وغلبة في وسائل الإعلام والاتصال وأساليب العيش.

لم يشهد العالم من قبل، دولة بمثل هذا النفوذ. ومن دُعابات التاريخ التي لا تنتهي، أن هذه الدولة التي بناها المستضعفون والمضطهدون والذين فرّوا بدينهم من أوروبا، والتواقون إلى المُثل العليا، جرّبت مرارة الاستعباد، فحاربت الاستعمار البريطاني حتى تخلصت منه ـ هذه الدولة عينها، صارت (أمبراطورية) في العصر الحديث، لها الخصائص كلها التي للدولة (الإمبريالية). ومن تلك، أنها فرضت على العالم هيمنة، لعلها من نوع جديد، ولكنها آخر الأمر، لا تعدو الهيمنة بالمعنى الكلاسيكي، فأصبحوا يقولون (باكس أمريكانا)، كما كان للرومان (باكس رومانا). وما الـ (باكس) في حقيقته إلّا الظل الذي يغطي الظلال كلها.

وكان بوسع العرب، أن يفيئوا إلى هذا الظل ذي الثلاث شعب، كغيرهم من الأمم، لولا ما حدث لهم في ماضيهم، وما يحدث لهم في حاضرهم.

وهكذا تُثار هذه القضية الكبيرة في أصيلة، بشجاعة تُحمد، وصراحة، في جو من مرارة لا تنكر، يحس بها الرأي العام في العالم العربي تجاه أمريكا. وهي مرارة مبثوثة تحت السطح مثل نهر جوفي. وأحياناً تطفو على السطح. ولا أشك أن أهل العلم والتجربة والرأي في أمريكا يعرفون هذه المرارة، ويعرفون محرّكاتها.

وحسبي أن أذكر الآن، أن العرب كلهم دون استثناء، كانوا حتى قيام الحرب العالمية الثانية محبين لأمريكا، حسني الظن بها إلى حد أن العرب الفلسطينيين، كانوا يؤثرون أن تكون أمريكا ـ لا بريطانيا ـ هي دولة الانتداب في فلسطين.

إنما أيضاً تطرح القضية الآن، في مناخ جديد من (البراغماتية)، إن لم يعمَّ السماء العربية بعد، فهو ينتشر قليلاً قليلاً. إنه مثل سحاب تعاكسه زعازعُ رياح، تهبّ أحياناً وتسكن أحياناً ولكنها في كلتا الحالتين، أصيلةٌ وموجودة على الدوام في الطقس العربي.

هذا، وقد كانت عبارة (براغماتية) إلى عهد قريب، مدعاة للازدراء، إن لم نقل الاحتقار، في الفكر العربي. حتى إنهم لم يجدوا لها ما يوازيها في العربية فقالوا (الواقعية). ولكن ما هو الواقع؟ وأي واقع؟

وفي مذهبي، أن أقرب مرادف لعبارة (براغماتية) هو (الحكمة). وكما نعلم، فقد كان العرب، حتى قبل الإسلام، يُجلّون الحكمة، ثم زادها الإسلام احتراماً وإجلالاً، وجعلها شيئاً أوسع من مجرد الرضوخ لظروف عابرة تبدو للإنسان في وقتها كأنها ثابتة لا يمكن زحزحتها.

وعندي، أن الفارق بين (البراغماتية) بمعناها (النفعي) المبتذل، و(الحكمة) بمعناها العربي وروحها الإسلامي، هو أنك مهما فعلت مما تحتمه عليك الظروف من كرّ وفرّ، وإقدام وإحجام، فإنك في نهاية الأمر لا تغفل الهدف، ولا تتنزل عن الأسس.

التفت إلى هذا المعنى، العالم الفلسطيني المرموق الدكتور هشام شرابي، الأستاذ في جامعة (جورج تاون). كانت الورقة التي قدمها في الندوة، غاية في الصراحة ومواجهة الذات، مهما اختلفتَ معه في النتائج.

تساءل قائلاً:

«أدري ما يدور بخلد البعض الذين فهموا قصدي. كيف يمكن للفكر أن تقوم له قائمة إذا انعدمت أسسه الثابتة؟».

نعم، كيف يمكن؟ بل كيف يمكن لأي شيء أن تقوم له قائمة حينئذٍ.

■ ■ ■

ما الذي قلب العرب على أمريكا، فبعد أن كانوا يرونها دعامة وملاذاً، وسنداً للساعين إلى العدالة والتحرر، أصبحوا في الغالب، ينظرون إليها بمرارة وحنق، وفي أحسن الظروف، بريبة وحذر؟

لعلّ العالم المرموق، الأمريكيّ الجنسية، الفلسطينيّ الأصل، الدكتور هشام شرابي، قد اهتدى إلى أهم سبب لهذا التحوُّل، حين قال في عرضه القيّم الذي قدّمه في ندوة أصيلة:

«وسرعان ما تقلّب الواقع السياسي على الوجه الحضاري الديموقراطي، بدخول أمريكا تاريخ الصراع العربي ـ الصهيوني إلى جانب إسرائيل. منذ ذلك الحين، غابت أمريكا الحضارية وأسطورة تاريخها الديموقراطي، وبقيت أمريكا القوة العظمى المهيمنة، الديموقراطية لفظياً، والقمعية فعلاً وممارسة. بهذا اختلف التأثير الأمريكي في المخيّل العربي على الصعيد الفردي الخاص، عنه على الصعيد الجماعي العام».

إنما الدكتور هشام شرابي، لم يشأ أن يتوغل في مجاهل الصعيد (الجماعي العام) وآثر أن يقتصر على وصف علاقته هو شخصياً بأمريكا، لأنه، كما قال، أراد أن يبتعد (عن التجريدات المبتذلة والكليشيهات السطحية).

وحين نصل إلى نهاية العرض، سوف نرى، أن ذلك أيضاً، كان بوحي فلسفة ـ هل أقول براغماتية؟ ـ صبغت فكر هذا العالم الكبير في الآونة الأخيرة. وهي فلسفة قد يصفها البعض أنها Minimalist ـ ترنو إلى الحصول على الحدّ الأدنى.

ومهما يكن، فإنه حسناً فعل، فقد كان عرضه، لأجل ذلك، أكثر طرافة، وأكثر تحريكاً للذهن.

قال إنه تعلم اللغة الإنجليزية قبل أن يتعلم اللغة العربية، ثم التحق طالباً داخلياً في مدرسة أمريكية تديرها جمعية (الفرنْدز ـ الكويكَرْز)، حيث قضى ثلاث سنوات. ثم سافر إلى بيروت، فأتمَّ، دراسته الإعدادية في مدرسة (آي. سي) الأمريكية. بعدها دخل الجامعة الأمريكية ببيروت، فحصل منها على شهادة البكالوريوس في الفلسفة عام ١٩٤٧.

في ذلك العام سافر إلى أمريكا حيث نال شهادة الدكتوراه من جامعة شيكاغو، وظل ثمة إلى يومنا هذا. وهو الآن كما نعلم أستاذ يُشار إليه بالبنان في جامعة (جورج تاون) في واشنطن.

هذ السيرة، كما رواها الدكتور هشام شرابي في أصيلة، وقد رواها بالتفصيل في كتابه «الجمر والرّماد»، قد توحي أن صاحبها قد طوّحت به نوى الاغتراب بعيداً، واجتثّت جذوره اجتثاثاً. لذلك يسارع فيقول:

«لم تدفعني ثقافتي الأنجلو ـ أمريكية إلى الخروج عن هويتي وتراثي. لم أتمثل يوماً بالهوية الأمريكية، ولم يُنسني العيش في الولايات المتحدة شعبي وموطني».

نعم، نحن نقبل هذا القول دون أي شك. كان بوسع الدكتور هشام أن يدير ظهره للعالم العربي، ويخلد إلى العيش في موطن هجرته. لكننا نعلم أن فؤاده ظل معلقاً بمخالب فلسطين والعالم العربي، لا يستطيع منها فكاكاً. ظل منغمساً في العمل الفلسطيني، مهموماً بما يجري أو لا يجري، في ديار العروبة والإسلام، يكتب ويحاضر ويناظر، ويحل ويرحل.

ماذا وجد هشام شرابي في أمريكا؟ يقول:

«في المجتمع الأمريكي الذي انتقلت إليه وأقمت فيه إقامة دائمة بعد سقوط فلسطين، اكتشفت بالتجربة المباشرة، الفارق في العلاقات الاجتماعية بين الأبوية والسلطوية والديموقراطية المتساوية. ظهر لي (الآخر) لا على شكل ذات فوقية تسحقني، بل بصورة ذاتٍ حرة تعكس حريتي. استشرفْتُ ما يُدعى قيمة الفرد، واكتشفت أن المجتمع الذي وُلدتُ فيه، همُّه الأكبر لا حماية الفرد وقيمته، بل

إذابة الفرد وسحقه (وبخاصة إذا كان أُنثى) وتمجيد سلطة الأب وصورته».

هذه الفقرة، تُنبىء عن فكرة محورية في نظرة الدكتور هشام إلى المجتمعات العربية، توسع في بسطها في كتابه «النظام الأبوي وإشكالية التخلف في المجتمع العربي» الذي صدر باللغة الإنجليزية عن دار جامعة أكسفورد للنشر، عام ١٩٨٨.

ولا يخفى أن عبارة (السلطوية الأبوية) إنما هي ترجمة للعبارة الإنجليزية (Authoritarian Paternlism) وعبارة (تمجيد سلطة الأب) مأخوذة من العبارة الإنجليزية (Patriarchal) التي يترجمونها أحياناً (بطركي). ومعلوم أنهم في علم (الأنثروبولوجيا ـ علم الأجناس البشرية، مقوماتها وتطورها) يقسمون المجتمعات إلى (Patriarchal) قوامها سلطة الأب، و(Matriarchal) قوامها سلطة الأم.

ولكن الدكتور هشام يخبرنا هنا كما يبدو أنه وجد في أمريكا مجتمعاً لا يقوم على سلطة أب أو أم، وإنما يعتمد مبدأ المساواة بين أفراد أسرة كل فرد فيها يحترم الآخر، ولا يسعى إلى إذابته أو سحقه.

هذا وتجدر الإشارة على سبيل الإنصاف، أن الدكتور لم يُغفل تماماً ما أسماه (وجه أمريكا الآخر)، فأشار إشارة سريعة إلى وجه أمريكا (الرأسمالي الطبقي وعصبيتها العرقية وتفرقتها العنصرية).

ولكن يبقى الانطباع الأول غالباً. وهو انطباع قاده ـ كما يبدو لي

ـ إلى بلورة فلسفته عن المجتمعات العربية، أنها أبوية سلطوية، لا تسعى إلى حماية الفرد، بقدر ما تسعى إلى سحقه وإبهام (بالباء) سِمات تفرُّده.

■ ■ ■

في فقرة ذات دلالات عميقة في سياق عرضه القيّم، يقول الدكتور هشام شرابي، أن حياته في أمريكا علّمته ألّا ينجرف في تيار الثورة الشاملة أو إيديولوجية القيم المطلقة، ويضيف:

«وتعلّمت أيضاً بعد سقوط الثورة، أن الثورة الحقيقية هي الثورة الدائمة، الثورة التي ترفض طوباوية فلسفات التنوير وفكرة نهاية التاريخ، وتدرك أن المدينة الفاضلة ليست إلّا حلماً لا يمكن تحقيقه على الأرض، وإذا تحقق كما حدث في النصف الأول من القرن العشرين، فإنه لا يحقق المجتمع العدل الحرّ، بل يقيم المجتمع المكبوت والمكبّل».

نختلف مع الدكتور حول رأيه في صعوبة التغيير الجذري الثوري ضربة لازب. وقد نتفق معه في استحالة إقامة (المدينة الفاضلة) على الأرض. ولكن هل لأجل ذلك تتخلى الإنسانية عن مجرد (الحلم) بإقامة المدينة الفاضلة؟

لا يُنكَر، أنه حلُم، تسبّب، وما يزال، في ما لا حصر له من الكوارث، ولكنه في المقابل، كان طوال التاريخ، حافزاً للإنسانية على رفع أبصارها إلى آفاق أرحب، ومواصلة السير نحو غد أفضل. ونحن المسلمين، في ذاكرتنا (الجمعيّة)، أصداء (مدينة فاضلة)،

قامت بالفعل في حقبة من تاريخنا، فكيف نجتثُّ من ذاكرتنا أصداء تلك الأصوات؟

يزيدنا الدكتور هشام إيضاحاً، عن التحوّل الذي حدث له في أمريكا، فيقول:

«مع استيعابي لمعنى الحضارة وواقع التطور التاريخي، لم يعد بإمكاني التمسك بالفكر الثابت أو القيم الدائمة التي حددت تكويني الثقافي والنفسي في الحقبة الأولى من حياتي. أصبحت العادات والتقاليد التي ترعرعت عليها، والتي رست في أعماق نفسي، موضوع تساؤلات ونقد واع. أي أصبحت موضوع تجاوز ممكن».

فلْنقبلْ هذا الكلام على علاّته، فما كُنّا نتوقع، أن يتعرض عقلٌ متميّز مثل عقل الدكتور هشام، لذلك العلم كله، وتلك التجارب كلها، ويظل هو هو، ثابتاً لا يتغيّر.

أين يكون الخلاص إذاً في رأي الدكتور هشام شرابي؟

يقول بصراحة بالغة، وشجاعة نحمده عليها، حتى لو لم نتّفق معه في الرأي:

«.. إن التحرير الفكري لا يمكن أن يتم دون كسر القمع الجنسي، وإن المساواة الاجتماعية لا يمكن أن تتحقق دون الإطاحة بالسلطة البطركية، وإن ديموقراطية العائلة هي الشرط الرئيسي لديموقراطية المجتمع، والتحرر الجنسي هو شرط الانفتاح الفكري واكتشاف الذات والعالم».

يجب أن أنبّه هنا، إلى أن الدكتور لم يقصد بعبارة (التحرر الجنسي)، إطلاق العنان للملذات الجسدية كيفما اتفق، ولكنه قصد محض المساواة بين المرأة والرجل.

هذا، وقد أخذ الدكتور، بهذا التعبير، الأكثر رصانة، والأقل مدعاة للرَّيْب، في هذه الفقرة الحاسمة:

«... وتعلّمتُ كذلك أن الثورة الحقيقية لا تكمن في الكفاح المسلّح الذي يشكّل وسيلة من وسائل الثورة، بل في الصراع اليومي لتحقيق الجُزئي والممكن والقريب، تحقيق الحريات الديموقراطية وحماية حقوق الإنسان وتحقيق المساواة بين الرجل والمرأة، لا الركض المستحيل وراء الكلّي والشامل والبعيد».

هذه إذاً هي زُبْدةُ فلسفة هذا العالم المرموق، أو على الأقل موقفه الذي يقفه الآن في سياقِ تطوره الفكري... «الصراع اليومي لتحقيق الجزئي والممكن والقريب...».

إنما قبل ذلك، لا بد ـ حسب رأي الدكتور هشام ـ من الإطاحة بالسلطة الأبوية البطركية. وقد يقول قائل، إن ذلك مطلب، بل سراب، لا يقل مخادعة عن حلُم إقامة المدينة الفاضلة. لأن الإطاحة بالسلطة البطركية، في ما يتعلّق بنا، إنما هي في الحقيقة ثورة أيضاً. ثورة على تاريخ متجذر، وتراث ممتد، ونظرة إلى الأشياء، تكوّنت على امتداد حقب متطاولة لا يحصيها العد.

وهكذا نجد أن الدكتور هشام، لعلّه انتهى إلى حيث بدأ، وأنه ربما يكون قد قايض نظرة (شمولية) بنظرة شمولية أخرى.

في مسرحية (آنتجونا)، التي اقتبسها الكاتب الفرنسي (جان آنّوي) من مسرحية (سفوكليس) اليونانية القديمة ـ وقد كتبها أيام الاحتلال النازي لفرنسا ـ يقول (كريون):

«... هذه الدولة، تستحق اليوم ملكاً مثلي، ليس له ماض، وليست له أوهام، إنني أحمد الله أنني أحمل اسماً عادياً لا يدلّ على شيء... كريون، لا أكثر. ها أنا، أقف الآن، قدماي على أرض صلبة، ويداي في جيوبي... آليْتُ على نفسي، ما دمت حاكماً، أن أفرض ولو قليلاً من الاستقرار في هذه الدولة المضحكة... إذا كان ذلك ممكناً».

■ ■ ■

حين يخبرنا العالِم المرموق الدكتور هشام شرابي أنه اكتشف من حياته في أمريكا، الفارق في العلاقات الاجتماعية بين الأبوية السلطوية، والديموقراطية المتساوية، ويقول «ظهر لي (الآخر)، لا على شكل ذات فوقيّة تسحقني، بل بصورة ذات حُرّة تعكس حريتي» ـ حين يقول هذا، فعنْ أي أمريكا يتحدث؟

لا أشك أنه فعلاً وجد الأمر كما وصف. لكننا نعلم أن الدكتور هشام ليس شخصاً عادياً. ليس عاملاً في (قراج) في (ديترويت)، ولا صاحب محل بقالة في (شيكاغو)، ولا حارساً ليلياً في (نيويورك) ـ إنه من صفوة الصفوة. أستاذ جليل، في جامعة هي من كبرى الجامعات في أمريكا. ونحن لا ننكر الفضل لها، أن من إنجازاتها الباهرة، أنها أقامت دوراً للعلم تهيىء للدارس والباحث والأستاذ، فرصاً واسعة، كي ينمّي مواهبه ويعبر عن ذاته وأفكاره، دون قيد أو شرط.

في تلك المناخات العلمية، نعم، يجد الإنسان ذوات حرّة تعكس حريته.

إنما هل هذه كل أمريكا؟ لا أحسبني أحتاج أن أذكّر أستاذنا الجليل، أن في حي (جورج تاون) في واشنطن، غير بعيد من الجامعة ذائعة الصيت، يصدم الزائر مرأى عشرات المواطنين أغلبهم من السود، يقفون أو يجلسون على أفاريز الطرقات، بلا هدف، وعلى وجوههم سيماء بؤس مقيم، ويأس بعيد الصور. ولا أظن أنني رأيت من ألوان الشقاء والهوان الإنساني، ما رأيته وأنا أشق حي (هارلم) في نيويورك. لا يوجد في أي مدينة عربية، مهما بلغ بها الفقر، نظير ذلك البؤس.

بلى، إنها كذلك أيضاً، وهذا هو المحير في هذه الدولة العجيبة. الفقر الممض في (هارلم)، والمعمار الطريف في (مانهاتان)، وهما على مرمى حجر. الحدائق المونقة والساحات الواسعة في واشنطن. الاكتشافات العلمية المذهلة وملايين الأميين الذين لا يكتبون ولا يقرأون. الرجال والنساء الشرفاء الذين يحبون الحرية والكرامة لأنفسهم وللآخرين، واللصوص والأراذل والمجرمون. عصابات الـ (كوكلس كلان) التي تعلق المشانق للسود والمفكرون العاكفون على طرح الأسئلة النبيلة. المحلقون بين الكواكب، والفثاثات التي تمُجها على العالم، وسائل الإعلام والترفيه من نيويورك وهوليوود.

بلى، هذا الخليط المتناقض المحير هو كله أمريكا، وكأنها تلخص رحلة الإنسان عبر هذا الكوكب، بخيرها وشرها منذ بدء الخليقة. قامت على أنقاض أكبر عملية إبادة في التاريخ، وعلى أنبل المثل وأطيب المقاصد. مثل تمثال (المفكر) للنحات الفرنسي (رودان). مثل

رجل عملاق أقدامه مغروسة في الوحل ورأسه شامخ في السماء.

كل ذلك، ما كان يهمنا، أكثر مما تهمنا أحوال اليونان أو البرازيل، لولا أن أمريكا أصبحت الدولة العظمى، أصبحت (روما) هذا الزمان، تبسط ظلها على سكان المعمورة قاطبة، وتؤثر على مصائرهم، إن خيراً أو شراً. وقد جاء في الكتاب الرائع «الثقافة والإمبريالية» للعالِم النابغة برفسور إدوارد سعيد:

«تفرض الولايات المتحدة هيمنتها على العالم، بأنها هي التي تحدد قواعد النمو الاقتصادي ومدى القدرة العسكرية، في طول هذا الكوكب وعرضه (...) كذلك كانت روما في عهدها الأول، كما قال (ششرو)... الولايات المتحدة، التي جاد عليها الحظ بثروات لا مثيل لها، وتاريخ غير عادي تقف اليوم (فوق) النظام الدولي وليست خاضعة له. وكونها الأقوى بين الدول، فهي متحفزة على الدوام لفرض مشيئتها على الدول «كافة».

وتجدر الإشارة هنا، أن هذا العالِم الفذ، وهو أيضاً فلسطيني الأصل، قد سار المراحل نفسها التي قطعها بروفسور هشام شرابي في رحلته إلى أمريكا. وانتهى به المطاف، أنه صار هو الآخر أستاذاً مرموقاً في جامعة أمريكية عريقة. صار أستاذ الأدب الإنجليزي والأدب المقارن في جامعة (كولومبيا) في نيويورك. ورغم ذلك فقد وصل إلى نتائج مختلفة عن النتائج التي وصل إليها بروفسور هشام شرابي.

هذا المفكر الضخم، أحدث من التأثير في أمريكا والعالم، ما لم يستطعه إلّا القليلون، وكتابه «الاستشراق» صنع دوياً ما يزال يتردد

إلى اليوم. وكتابه هذا «الثقافة والإمبريالية» ـ وهو آخر كتبه ـ وصفه كاتب إنجليزي بأنه (مساهمة هامة من كاتب هو من أعظم النقاد في هذا العصر).

هذا ويقول الفيلسوف الإنجليزي الكبير (آر.جي كلنقود ـ R.G.Collingwood)، مؤكداً رأياً مماثلاً للفيلسوف الإيطالي الحجةّ (قيد ردريجو):

«الإنسان الحر ـ أي الإنسان الذكي القائم بذاته ـ هو وحده الذي يعترف بحق الآخرين في الحرية (...) الفرد لا يحقق اكتماله الروحي، بواسطة السيطرة على الآخرين وإخضاعهم لإرادته، بل، بواسطة تحرير الذات من الانفعالات السطحية، والقيود الخارجية. لكن هذا لا يعني أن الحرية هي إباحية وخضوع للهوى والنزوات، إذ إن ذلك لا يكون إلّا على حساب حقوق الآخرين. هذا يجب ألا يُسمح به، لأنه يلغي الاعتراف المتبادل بالحرية، ويؤدي إلى فساد الحياة العامة، حياة المجتمع ككل. على العكس من ذلك، الإنسان الحر حقيقة لا يتبع أي نمط من السلوك اعتباطاً فهذا يعني أنه إنسان عابث خائر العزيمة. الإنسان الحر حقيقة هو الذي يختار السلوك الذي يفرضه عليه مصيره الأخلاقي المحتوم. الحرية هي السلوك الذي لا يتعارض مع الواجب».

نعم، نحن نفهم هذا الكلام جيداً، فهو موجود عندنا في تراثنا العظيم، أفصح وأنصع بياناً. وقد قال رسولنا الأمين صلى الله عليه وسلم «جئتُ لأتمم مكارم الأخلاق». وبالتأكيد ليس ذلك هو التراث (الأبوي البطركي) الذي يهيب بنا صديقنا العالِم المرموق، أن نثور عليه.

إن (الاعتراف المتبادل بالحرية) ينطبق بطبيعة الحال، على الدول كما ينطبق على الأفراد. فإلى أي حد ينطبق الوصف على هذه الدولة الطريفة؟ وإلى أي حدّ أن المجتمعات العربية والإسلامية مجتمعات (بطركية) بالمعنى السيىء للكلمة؟ وهل أمريكا ليست مجتمعاً بطركياً؟

١٤

سرّني أن علمتُ أنّ مهرجان أصيلة اجتمع شمله عام ١٩٩٦. عام ١٩٩٥ كان عاماً ناقصاً لكلّ الذين تعوّدوا أن يرِدوا ذلك المنهل الثقافي العذب على ساحل الأطلسي في الصيف. لم يقم المهرجان لظروف اقتصادية صرف، إذ إن إخواننا في المغرب لا ينقصهم التصميم على استمراره ولا الاقتناع بجدواه. وقد ساورنا القلق أن يحدث له ما حدث لمشاريع ثقافية أخرى في العالم العربي، تنمو وتزدهر، حتى إذا استوت على ساقها واشتد عودها، إذا هي فجأة تذوي وتموت.

الحمد لله هذا لم يحدث لمهرجان أصيلة. هكذا أخبرني محمد بن عيسى، وزير الثقافة السابق وسفير المغرب في واشنطن. الرّجل الذي مهد الأرض وغرس الشجرة، وتعهدها ورعاها حتى فاءت ظلالها على الناس. وما كان لي أن أزور واشنطن ولا أعرّج عليه، فهو من

توقّد الذهن وعلوّ الهمة وسعة الأفق كما يعلم كل من عرفه. ولا شك أن الفضل يعود إليه بتصميمه ومثابرته أن المهرجان استمر طيلة سبعة عشر عاماً بلا توقف رغم موارد المغرب المحدودة والتزاماته الكثيرة.

ليس سهلاً أن تستضيف كذا مائة مدعوّ من مشارق الأرض ومغاربها، تدفع نفقات سفرهم وإقامتهم. وفي عام ١٩٩٥ بلغت الظروف الاقتصادية في المغرب (بسبب الجفاف وغيره) حدّاً جعل قيام المهرجان صعباً، بل غير ملائم أصلاً، نظراً لتلك الظروف. وقد أردنا، نحن أنصار مهرجان أصيلة ومحبيه، أن يذهب كلّ من يستطيع منا على نفقته الخاصة. أردنا أن يظل الضوء مشتعلاً. ولكن أريحيّة دولة المغرب وكرم طبعها، أبت علينا ذلك.

لعلّ أخواننا وأخواتنا في العالم العربي، ممن نعلم حرصهم على الثقافة العربية وعندهم القدرة المالية، يضعون مهرجان أصيلة في اعتبارهم.

إنه ـ كما هو واضح ـ بمثابة ضوء مشعٌّ في مغرب الأرض العربية، غدا الناس يرونه من أماكن بعيدة. وفي ذلك فوائد لا تقدر بمال للأمّة العربية والإسلامية.

في نطاق نشاطات المهرجان عام ١٩٩٦، عقدت جامعة المعتمد بن عبّاد الصيفيّة، ندوة حشد لها عدد من المفكرين والباحثين والإعلاميين من عرب وأمريكيين. وطرحت فيها هذه القضايا:

١ ـ العرب والإسلام والتطرّف ـ حقائق وأساطير.

٢ ـ الأمريكان والنفوذ والمواقف السياسية ـ المعاناة والانبهار.
٣ ـ النخبة العربية والنخبة الأمريكية والبحث عن حلّ للمعضلة.

ولا يخفى أن علاقة الولايات المتحدة بالعالم العربي والعالم الإسلامي علاقة محيرة، لنا ولهم، ولا يجدي أن نتغافل عنها كأنها علاقة لا تأثير لها ولا وزن في مجريات أمورنا. واضح أن أمريكا تحيط بنا من الجهات جميعها، ولا مفر منها ولا محيص عنها.

محمد بن عيسى واحد من الذين يؤمنون بجدوى الحوار مع الأمريكان على مستويات متعددة. وقد زاده عمله في واشنطن سفيراً للمغرب إيماناً. لا بد، كما يقول، أن نعرف عناصر تكوين أمريكا، وأنماط سلوكها، ودوافع سياساتها.

وإن كان من العرب من استطاعوا أن يصلوا إلى قريب من فهم ذلك العالم الواسع المعقد المحير، فإن محمد بن عيسى واحد منهم. لقد درس عندهم وعاش بينهم وذهب أبعد ما يستطيع عربي أن يصله في معرفتهم. ذلك مع شيء من الإعجاب، لا يخفيه، بديناميكيتهم وقدراتهم على الابتكار، وأنهم ليسوا مشدودين إلى الماضي ولكن إلى المستقبل.

مهما يكن الأمر، فإن جهداً مثل هذا حريٌّ بالدعم والتأييد على أوسع مدى. وهو واحد في سياق الجهود العقلانية القيّمة التي يضطلع بها مهرجان أصيلة. لقد بذل جهداً من قبل في مجال العلاقات العربية ـ الأفريقية، والعلاقات العربية ـ الأوروبية وعلاقات العرب مع أمريكا اللاتينية. وهي كلها قضايا ضخمة، لا بد للعرب والمسلمين، أن يفككوها الى أجزائها ويحيطوا بها، إذا كانوا يريدون

أن يعيشوا في المجتمع الإنساني، لا كمتفرجين وضحايا ولكن كمشاركين يؤثّرون ويتأثرون.

هذا، ويكفي مهرجان أصيلة فخراً، أنه منذ سنوات، خصص جائزة للشعر الأفريقي باسم الشاعر الكنغولي (شيكايا أوتامسي) مُنحت للشاعر الكبير أحمد عبد المعطي حجازي، وصحب ذلك ندوة عنوانها (أحمد عبد المعطي حجازي والحداثة الشعرية العربية).

تخيّل المغزى البعيد المرمى، أن تخصص في بلد عربي جائزة للشعر الأفريقي، وأن تُمنح الجائزة لشاعر عربي في سياق سلسلة من الشعراء الأفارقة السود، ونحن نعلم أن كثيرين من الأفارقة السود، يرفضون أن يعتبروا العرب أفارقة.

أليست هذه جرأة من المغرب تستحق الإعجاب؟ أليست هذه براعة من محمد بن عيسى تستحق الدعم والتأييد؟

١٥

بينما نحن في أصيلة نحتفل بفوز الشاعر الكبير أحمد عبد المعطي حجازي بجائزة شيكايا أوتامسي للشعر الأفريقي، إذا بنا نُفاجأ بنبأ رحيل بلند الحيدري، أحد الرواد المؤسسين لحركة الشعر العربي الحديث.

وكان من نصيبي أن أترأس الجلسة الافتتاحية، التي جرت فيها مراسيم منح الجائزة لأحمد عبد المعطي حجازي، وذلك في مساء اليوم نفسه الذي بلغنا فيه نبأ وفاة بلند الحيدري.

اختلط السرور بالحزن بطريقة محيّرة، كأن واقع الحياة تحوّل فجأة إلى قصيدة من قصائد الشاعر المُحتفى به والشاعر المأسوف على فراقه. وكل منهم طالما ناجى الموت واستنطقه وحدّق في وجهه.

لذلك لم يسعفني القول، وكانت كلمتي قصيرة كما يلي:

«عرفنا أصيلة منذ نحو عشرين عاماً ـ بلدة صغيرة كما عندنا في وادي النيل، وكما في أرياف بلاد الشام، والعراق وجزيرة العرب.

لم تكن ميّتة. لكنها لم تكن حيّة. مثل أُسْرة جار عليها الزمان. تطوي ضلوعها على أحزان وذكريات أمجاد غابرة.

ثم أتاح الله لها ابناً من أبنائها حرّكها ونفخ في روحها.

جاء إليها الحالمون، ملاعبو القوافي والأوتار والأخيلة الألوان. تجوّلوا في أسواقها، وجلسوا في مقاهيها، ومشوا على شاطئها، وسامروا لياليها.

ثم بدأوا يرحلون.
مات شيكايا أُوتامسي ويوسف إدريس ولحبابي وإميل حبيبي.

واليوم يموت بلند الحيدري.

لكن لا بأس. موت أمثال هؤلاء لا يكون نهاية أبداً. إنما طاقة تأخذ أشكالاً أخرى في دورة الزمان السرمدية.

وحسبنا أن أصيلة، بعد عشرة أعوام، أو عشرين عاماً، أو مائة عام، حين يداعب نسيم بحرها فروع أشجارها، لعلها تذكر هذه الأرواح التي طافت بها. وإذا لم تذكر، فلا بأس.

رحم الله بلند الحيدري، كان شاعراً كبيراً، وإنساناً كريماً، وصديقاً

وفياً، ومحبّاً عظيم الحب لأصيلة.

كأنه وجد فيها وطناً بديلاً. وجد الأمن والطمأنينة في لندن، ولم يفتأ يذكر بيروت ويحن إلى بغداد. أضناه الاغتراب، وهدّه الحنين إلى العراق، فوجد في أصيلة بعض السلوى وبعض العزاء.

إنما نحن لم نجتمع اليوم لنرثي بلند الحيدري. في الوقت متسع للرثاء، وأبو عمر يقدر ذلك، وكان يود أن يكون معنا هذا المساء.

جئنا لنحتفي بشاعر عظيم، نرجو له طول العمر ومزيداً من العطاء. ولا تثريب علينا أننا نفرح ونحزن في وقت واحد، هو وقت أصيلة المثلوجي.

البلاد تكون بالموت كما تكون بالحياة.
أحمد عبد المعطي حجازي أطال الله عمره، هو أيضاً يُقدر ذلك، لا ريب، لأنه في شعره، ككل الشعراء الكبار، لم يزل يغازل الموت.

ومن مثلُنا أدرى بامتزاج الأفراح والأحزان، وأن الحياة لا بد أن تستمر، وأن البلاد في أرضنا العبقرية، تزدهر بدماء الأبرار من أبنائها وبناتها. وإننا، نحن الحالمين ملاعبي القوافي والأوتار والألوان والأخْيلة، كيفما عشنا، وأينما متنا، فإنما نحن قرابين الفداء لهذه الأرض.

إذاً فلنحتفل بأخينا وصديقنا الشاعر الكبير أحمد عبد المعطي حجازي، أمدّ الله في عمره وزاد من عطائه. وإن كانت حلاوة احتفالنا به، يخالطها الحزن لغياب صديقنا بلند الحيدري ـ فلا بأس.

١٦

صحبْتهُ كثيراً في السنوات الأخيرة، وكنت قد لقيته أول مرة في بيروت، مطلع السبعينيات، في دار أدونيس. جلسنا الليل كله نتناشد أشعار المتنبي. ولا بد أننا أتينا على قصيدته التي يقول فيها:

غـــيـــر أن الـــفـــتـــى يـــلاقـــي المنـــايـــا
كـــالحاتِ ولا يـــلاقـــي الـــهـــوانـــا

كان بلند الحيدري، فتى كردياً عربياً، ولم يكن قبول الهوان في طبعه.

ثم التقينا في لندن بعد زمن.

أذكره في أصيله في المغرب. ثمة يكون على سجيّته. شيء ما في هواء أصيلة وبحرها، كان ينعش روحه. لعلّه ودّ لو يقيم فيها.

كان يحب لندن، وقد حدّثني مرة ونحن عائدان من القاهرة، أنه يحس بالسعادة حين تطأ قدماه أرض لندن، كأنه يعود إلى أهله. ربما لأنه وجد فيها الطمأنينة والأمن. وقد وجد في جواز السفر الإنجليزي الذي اضطرته الظروف إلى الحصول عليه، لا أقول هوية جديدة، بل نوعاً من الاعتراف بقيمته كإنسان. كان ينصحني أن أحذو حذوه. سوف أظل أقاوم، ولعلّني أستسلم في النهاية.

لكن مدينة أصيلة كانت شيئاً آخر. ربما وجد في مناخها وسُحن أهلها وجَلَبة أسواقها ونداءات مآذنها ومعمار بيوتها وانعكاسات الضوء على بحرها، شيئاً ذكّره بعالمه المفقود. كان عربياً قُحّاً رغم أنه كردي.

أذكره في أصيلة واقفاً وقفته النبيلة التي يخالطها شيء من الحياء يبعدها عن الخُيلاء، ينشد في تكريم سنغور وماسيسي كونيني وفي رثاء شيكايا أوتامسي. أولئك الشعراء السود الذين أحبّهم وآخاهم دون تكلّف. وما أكثر ما رثى الراحلين من الشعراء والكتّاب والرفاق والأصدقاء. ويمكن القول إن بضعة منه كانت ترحل مع كل قصيدة رثاء وكل كلمة وداع. ظل يناجي بغداد التي لم تُجزه حباً بحب وبيروت التي أضاعها وضاعَت عن نفسها.

في القاهرة كنا نجلس جنبَ جنب في مجلس أمناء مؤسسة سعاد الصباح. لم يكن يتكلم كثيراً، وحين يتكلّم دائماً يقول شيئاً ذا مغزى. وهنالك وجد حفاوة عظيمة، كما هي سجيّة القاهرة. في ندوات معرض الكتاب وفي أمسيات دار الأوبرا. وكان يسعده أن أغلب الجمهور من الشباب. وفي القاهرة، وجد الاعتراف به كرائد من الأوائل في حركة الشعر الحديث.

أذكره في الرياض أيام الجنادرية، في جلسات الصباح على الإفطار في الهوتيل، وفي دار الشيخ عبد العزيز التويجري. كان يقربه إليه ويجلسه بجواره.

منذ عامين سافرنا معاً من لندن إلى بروكسل. نزار قباني وهو وأنا، ووجدنا عبد الرحمن منيف قد وصل قبلنا من دمشق. كانت صحبة طيبة، خالية من التوتر الذي قد يكون بين الأدباء، والغيرة كما يحدث أحياناً بين الشعراء.

نزار قباني كان نجم تلك الأمسيات لا ريب. تقاطر عرب الشتات على بروكسل، من مدن بلجيكا وهولندا وفرنسا وبلاد إسكندنافيا، جذبهم ضوء نزار قباني في الغالب، لكن بلند الحيدري كان مُشعّاً أيضاً، على طريقته.

بقدر ما حرّك شعر نزار قبّاني حماستهم وحيويتهم، وأسعدهم وأجّج غضبهم، فإن شعر بلند الحيدري ساقهم إلى متاهات بعيدة في أعماق نفوسهم.

في كل صحبتي لبلند الحيدري، لا أذكر أنه قال إلّا خيراً عن أيٍّ من زملائه الشعراء. كان مُعتداً بتجربته الشعرية، لكن ذلك لم يمنعه من احترام تجارب غيره.

مرة واحدة فقط، ونحن جالسان على حافة بركة السباحة في هوتيل الخيمة في أصيلة أواخر المساء، شعرت بشيء من المرارة في حديثه. مرارة خفيفة جداً، كون النقّاد قلّلوا من دوره الريادي.

الآن وقد رحل بجسمه، فإنهم سوف يعيدون النظر، لا شك. لم تبق إلّا أصداء إنسانيته الشاملة، وصوته الشعري. وهو صوت سوف يزداد قوة واتساعاً عاماً بعد عام، كما يحدث للشعراء الكبار، حين لا يبقى منهم غير الصوت.

١٧

صور أحمد عبد المعطي حجازي الفائز بجائزة شيكايا أوتامسي للشعر الأفريقي، تملأ شوارع البلدة، وإعلانات عن الأمسيات الموسيقية لمنير بشير، وندوات الحوار العربي ـ الأمريكي.

وجوه الناس في أصيلة مستبشرة، تنمّ عن أنهم سعداء أن الموسم قد عاد، وأن روّاده قد عادوا في نزل الخيمة وفي الشوارع والمطاعم والمقاهي وفي مركز الحسن الثاني للمؤتمرات. ربما ساورهم القلق أنه لن يعود. الناس في بلادنا تعودوا أن تبدأ أشياء ثم تنتهي فجأة، دون سابق إنذار ودون مبرّرات يفهمونها.

يجعلونك تحسّ أنهم حقاً سعداء بعودتك إليهم، وأنهم افتقدوك حين لم يكن موسم. يعرفون الأدباء والشعراء والرسامين والموسيقيين، وينادونهم بأسمائهم. كل كاتب شهير في أصيلة، وكل شاعر نجم.

أغلبهم من الشباب دون الثلاثين، كبروا مع مواسم أصيلة منذ ثمانية عشر عاماً. كثيرون منهم تخرّجوا من الجامعات، ووجدوا أعمالاً في طنجة والرباط والدار البيضاء وفاس ومرّاكش. يعودون إلى أصيلة في المواسم، كما يفعل أفراد عائلة، لاستقبال ضيوفهم.

قليلون هم السعداء الذين وفّقهم الله لتأدية بعض الدَّين الذي في أعناقهم لأهليهم، في مهابط رؤوسهم.

محمد بن عيسى من هؤلاء الذين وفقهم الله، أحدث ثورة حقيقية في مهبط رأسه، ثورة ثقافية واجتماعية، دون أن يسمّيها أحد ثورة. وذلك ـ كما يجب أن يكون ـ نموذج فريد، كيف تحدث التنمية، وكيف تتواءم الثقافة مع متطلبات العيش.

لم يكن وحده لا شك، فلا أحد بمفرده يصنع ثورة. ولكن يحمد له أنه حرّك الهمم وشحذ العزائم، فصار الحلمُ مشتركاً بين أهل البلدة، وحتّى الغرباء الذين توافدوا عليها.

ليس فقط أن الذين مرّوا بهذه القرية المغربية على ساحل الأطلسي، من شعراء وكتّاب ومفكرين ومغنين وعازفين ورسّامين، حملوا ذكراها ونثروها في أطراف الدنيا، ولكنهم أيضاً تركوا في البلدة الصغيرة شيئاً من أنفسهم، فاتّسعت بذلك وصارت بلدة غير عادية.

ما كل طفل في كل بلدة عربيّة مثل أصيلة أتيح له أن يرى ويسمع سنغور وشيكايا وماسيسي كونيني. أن يرى ويسمع بلند الحيدري وأحمد عبد المعطي حجازي وفاروق شوشة وأدونيس. أو أتيح له أن يرى جداريات الفنان السوداني محمد عمر خليل، ويمشي في

شوارع صمّم بلاطها الفنان المغربي محمد المليحي، أو يستمع إلى الموسيقي العراقي منير بشير يعزف موسيقاه الساحرة.

لا بد أنها أشياء ترسخ في الذاكرة، وتُحدث أثراً ما. الإنسان العربي بذرة طيبة إذا وجدت الماء والهواء. إذا وجدت المناخ الصحيح. وفي أصيلة حدث شيء ذو قيمة. إنها من الأمثلة التي تدحض تشاؤم المتشائمين على مستقبل هذه الأمة.

كان (سلام) ـ مبروك البلدة وبَركتُها ـ أسعد الناس أن مواسم أصيلة قد عادت. نظيف الثياب متهلّل الوجه، يحيّي من حضر ويسأل عمن غاب، ودائماً يبحث عن محمد إبراهيم الشوش، صديقه الأثير.

يحضر الندوات كلها ويستمع مستغرقاً. حضر معنا ندوة الحوار العربي ـ الأمريكي من أوّلها إلى آخرها، رغم أن الكلام كان أغلبه باللغة الإنجليزية. سألته عن رأيه فقال:

«الأمريكان يقولون العرب يعملون إرهاب وهم الذين يعملون الإرهاب».

لو كنتُ من صنّاع السياسة الأمريكية، لأخذت قول (سلام)، مبروك أصيلة، بعين الاعتبار.

حين ينادي الأذان، يقوم ويذهب إلى المسجد قبالة (مركز الحسن الثاني للمؤتمرات)، يصلّي مع الجماعة ويعود.

كثيرون أمثال (سلام) في هذه الأرض الواسعة بين المحيط والمحيط. وربما من أجلهم، يفتح الله أبواب الرحمة، وينزّل الغيث، يمنع الأرض أن تميد بأهلها.

نشأ يتيماً ويسكن مع شقيقته، وبدا لي كأن البلدة كلها أهله. يستمع مستغرقاً ويضحك ويصفق، وإذا لم يعجبه ما يُقال، يقوم فجأة ويخرج.

هذا، وقد كان الهواء جميلاً كأنه قيس بميزان. لا أكثر ولا أقل. والكورنيش الواسع مزدحم بالخلق، والمقاهي والمطاعم والباحات والشوارع.

أصيلة ليست فردوساً. إنها مكان بعينه في الدنيا. إنما فيها روح يقوّي الإحساس أن المشاكل قابلة للحل، أو أن الصعاب يمكن أن تُحتمل.

عاد موسم أصيلة عوداً حميداً. بعد الحوارات المهمّة التي حدثت في المواسم الماضية ـ عن العلاقات بين العرب وأفريقيا، والعرب وأوروبا، والعرب وأمريكا اللاتينية ـ نظمت جامعة المعتمد بن عباد الصيفية حواراً عن العرب وأمريكا. كيف يرى العرب أمريكا، وكيف يرى الأمريكان العرب؟

لا يخفى أن موضوع أمريكا ـ إن لم نقل معضلة أمريكا ـ يحتاج من العرب إلى جهد مركّز على أمد طويل. وقد بُذل بعض الجهد بالفعل، ولكن بطريقة مبعثرة وعلى فترات متباعدة. وكان من فوائد ندوة أصيلة، أنها وضحت الهوة العظيمة التي تفصل بين العالم العربي وأمريكا، وجسامة العمل الذي لا بد أن يقوم به العرب لردم تلك الهوة.

لكن لماذا يطلب بذل الجهد من العرب وليس من الأمريكان؟

أمريكا في موازين القوى في العالم، كما لا يخفى، وفي سلوكها ـ ربما بسبب رجحان كفَّتها في ميزان القوة ـ أنها تريد أن تؤثر على مصائر الآخرين دون أن تتأثر بهم، وتستفيد منهم دون بذل أي جهد لفهمهم. ولو كان العرب يستطيعون أن يغلقوا أبوابهم دونها ويجازوها إهمالاً بإهمال، إذاً لهان الأمر. أما وأنهم لا يستطيعون، فلا مناص لهم من محاولة التأثير عليها بشتى السبل.

ومن أول ما يتبادر للذهن، العمل على اختراق السياج الكثيف من سوء الفهم والتشويه المتعمد في كثير من الأحيان، الذي أقامه الإعلام الأمريكي ضد العرب، في أذهان الأمريكان وأبعد منهم.

وقد قلنا لهم إنه لم يحدث في التاريخ، أن تعرضت أمة في وقت السلم لمثل الحملة الجائرة التي يشنّها الإعلام الأمريكي ضد الأمة العربية.

العرب ليسوا أعداء لأمريكا، وليسوا في حرب ضدها فلماذا السلوك الذي لا تسلكه الدول بعضها ضد بعض إلّا في أوقات الحرب، وفي هذا الصدد قال برفّسور هشام شرابي (من جامعة جورج تاون) في كلمة بليغة باللغة الإنجليزية إن الإعلام الأمريكي في معالجته للقضايا العربية والإسلامية، لا يهدف إلى تقصي الحقائق ولكن إلى تأكيد آراء مسبقة وهو يزيّف الحقيقة فيجعل الضحية هي المعتدي، ويظل يردد ذلك التزيّف كي يرسخ في الأذهان أنه حقيقة.

لماذا تفعل أمريكا ذلك، وما هي أهدافها؟ من حسن الحظ كان بين

المشاركين، عدد من الأمريكان من أصول عربية مثل برفسور هشام شرابي وبرفسور إبراهيم عويس وبرفسور أحمد الأمين البشير. وكل واحد منهم كافح كفاحاً عظيماً. وكان أغلب الأمريكان (البيض) من اليهود، وقد حمدنا لمحمد بن عيسى ذكاءه في اختيارهم، إذ لا يخفى أن اليهود الأمريكان ـ والأوروبيين ـ هم في نهاية الأمر، أكثر قدرة على التأثير في مجريات الأمور. أولاً لأنهم في موضوع اليهود وإسرائيل، أكثر مصداقية من الأمريكان الأقحاح والأوروبيين الأقحاح. وثانياً لأنهم يملكون بالفعل القدرة على التأثير.

كانوا صرحاء صراحة تدعو أحياناً للدهشة والإعجاب. وكان يبدو عليهم أنهم يبحثون بصدق عن مخرج لليهود من المأزق التاريخي الذي وجدوا أنفسهم فيه إزاء العرب. كانوا من العلم بأحداث التاريخ، تاريخ اليهود على الأقل، وحركة المدّ والجزر في مصائر الشعوب، بحيث لم يغب عنهم أن المأزق الحقيقي في نهاية الأمر، هو مأزق اليهود.

كان ذلك واضحاً في حديث مستر (ملْتُن فيورْست) وهو كاتب ومعلق سياسي معروف في واشنطن. استعرض في كلمته تاريخ العداء لليهود (اللاسامية) في التاريخ الأوروبي. وقال إن العداء لليهود والعداء للإسلام مصدرهما واحد، وأن كراهية اليهود أصبحت كما لو أنها أمر ضروري في مسيرة الحضارة الأوروبية.

وحين وصل إلى التاريخ الحديث، أقرَّ أن إحساس الأوروبيين بالذنب تجاه اليهود، تطابق مع أطماعهم في منطقة الشرق الأوسط، فاهتدوا إلى خلق دولة يهودية في فلسطين، تحل مشكلة اليهود، وفي الوقت نفسه تكون حارساً على المصالح الأوروبية في المنطقة. وقال إن

إسرائيل بعد إنشائها، عملت بمهارة خاصة في فترة الحرب الباردة، لتؤكد للأوروبيين والأمريكان أن لا غنى لهم عنها.

ثم تحدث بصراحة عظيمة علماً أنه يهودي، كيف أن إسرائيل نجحت في أن تجعل اليهود الأمريكان يلتفّون حولها، بحيث أصبحت قضية إسرائيل هي قضيتهم. في المقابل، فشل العرب أن ينشئوا أداة ضغط مماثلة تضمن لهم حصة في القوة التي تؤثر على صُناع القرار.

ثم قال بصوت خافت قولة بدت لي غاية في البلاغة:
«نحن ـ الأمريكان ـ نستجيب للقوة. والعرب ينشدون العدل».

لعل كلمة العالِم العربي الأمريكي المرموق، برفسور هشام شرابي في مستهل الندوة، كانت أنصع دليل على الإحساس المتزايد لدى العرب ـ وفيهم العرب الأمريكيون ـ بصعوبة الحوار مع أمريكا. وربما وجد بعض المشاركين في الندوة، شيئاً يقرب من القنوط في تلك الكلمة. وهو أمر يدعو إلى التأمل، إذ إن المتحدث عُرف بالرصانة والاعتدال والميل إلى إيجاد نقاط التقاء بين أمريكا والعالم العربي. وكان بعض الناس يرون في جوانب من فكره نزوحاً غير قليل نحو البراغماتية.

ذكر برفسور هشام شرابي في مطلع كلمته، أنه يلزم للحوار كي يصبح مجدياً، أن يكون بلغة يفهمها الطرفان المتحاوران، إضافة إلى الرغبة المخلصة من الطرفين في تقبل النقد الصريح بنيّة حسنة وصدر رحب.

وتجدر الإشارة إلى أن برفسور شرابي لم يقصد بـ «اللغة» كونها عربية أو إنجليزية ولكنه يقصد النوايا والرموز والإيحاءات، التي تكمن وراء الكلمات والجمل، فتعمي المعنى على الطرف الثاني في الحوار حتى لو كان يحسن لغة الطرف الأول. ويمضي برفسور هشام شرابي فيقول:

«هذا لا يؤدي فقط إلى الالتباس وسوء الفهم، ولكنه يجعل أحد الطرفين هو صاحب اليد العليا، بحيث يستطيع أن يسيّر الحوار على هواه، كيف شاء. وكونه صاحب اليد العليا، فهو المتحدي باستمرار. ويكون الطرف الآخر في وضع المدافع، يرد على الهجوم ويبرر مواقفه ويشرح مقاصده ويعتذر عن نفسه. إذا كانت هذه هي طبيعة الحوار، فكيف يكون حراً خالياً من القهر؟».

أوضح برفسور شرابي بعد ذلك، كيف أن الطرف الأقوى يكاد يحتكر أدوات بث رسالته، خاصة وسائل الاتصال الجماهيرية، من شبكات إذاعة وتلفزيون وصحافة وغيرها، الأمر الذي يمكّنه من تحديد مواضيع النقاش ووجوه طرحها، ثم قال:

«وعلى سبيل المثال، حين يتعلق الأمر بقضايا الإسلام والإرهاب والصراع العربي ـ الإسرائيلي، فإن المحاور (من الطرف الثاني) يضطر إلى الإذعان لافتراضات مسبقة، وتداعيات فكرية مضمّرة، وعليه أيضاً أن يرضخ لمعجم خطابي اختير بمهارة، بحيث تكون النتيجة، ليس إلى معرفة حقيقة القضية المطروحة، بل تأكيد نوايا مبيّتة، وتحقيق مصالح وأهداف حددت بدقة عظيمة».

وهكذا ـ كما يقول برفسور هشام شرابي ـ لا تكون الحقيقة كما

هي بالفعل، بل تشويهاً متعمداً لها. الضحايا يصيرون هم المعتدين، والمحاربون ضد الاحتلال، إرهابيين، والمعتدون يصبحون مدافعين محاصرين بالأعداء، ومجرمو الحرب، أبطالاً، وتظل وسائل الإعلام تكرر هذه الأكاذيب بلؤم لا هوادة فيه، حتى تبدو كأنها حقائق. ثم يقول:

«منذ نهاية الحرب الباردة، صار العالم العربي والإسلامي، الهدف الأول للمحاولات الأمريكية لإدخاله قسراً في ما يسمى بـ (النظام العالمي الجديد). وهو وضع أقامته أمريكا بدعم كامل من شريكتها الاستراتيجية، إسرائيل، القوة العظمى في المنطقة، إنه وضع يرتكز على عمودين أساسيين، أحدهما التدجين وثانيهما الاحتواء».

ويفسر هشام شرابي (التدجين) بأنه عملية من (الإغواء القسري Coercive Seduction)، تتم بواسطة اتفاقات عسكرية ثنائية واتفاقات فنية وغيرها.

أما (الاحتواء) فهو عملية من الضغط العدواني، ترمي إلى عزل الدول التي ترفض الانصياع للنظام العالمي الجديد وزعزعة استقرارها. وتتضمن التهديد باستعمال القوة، واستعمالها بالفعل في بعض الحالات. ويقول:

«هذا النظام، يعتمد أيضاً على إثارة الخلافات والانقسامات بين دول المنطقة التي تقسم إلى دول صديقة ودول معادية حسب رضوخها أو رفضها لمفاهيم النظام العالمي الجديد».

وفي ختام كلمته يقول برفسور هشام شرابي:

«إذا كان هذا هو السياق السياسي للحوار، فماذا بوسع المفكرين والكتّاب والصحافيين والأكاديميين أن يقولوه، بعضهم لبعض، حتى يمكن القفز فوق حواجز الشك وسوء الفهم، للتأثير على مسار العمل السياسي؟».

بروفسور إبراهيم عويس، أمريكي من أصل مصري، وهو أستاذ اقتصاد في جامعة (جورج تاون) بواشنطن، الجامعة العتيدة نفسها التي ينتمي إليها بروفسور هشام شرابي. وهو عالم يحظى بكثير من التقدير، ومفكر رصين أبعد ما يكون عن التطرّف. ورغم ذلك، ففي بعض ما ورد في كلمته في ندوة أصيلة، شيء من المرارة قريب مما ورد في كلمة الأستاذ هشام شرابي.

وأول ما لفت انتباهي، أن هذا العالِم الاقتصادي الوقور، بدأ كلمته بأبيات للشاعر الإنجليزي ـ الأميركي (تي. إس. إليوت)، من قصيدته (أنشودة جي. ألفرد. بروفرك للحب):

«يوجد متسع من الوقت لك ومتّسع من الوقت لي، ومتّسع من

الوقت لمئات الرُّؤى وإعادة الرُّؤى، قبل أن نشرب الشاي ونأكل الخبز المحمّص».

وهي أبيات لا أحسبه اختارها اعتباطاً، إذ إن السخرية لا تخفى في أن الشاعر وضع (الرؤى) و(إعادة الرؤى)، جنباً إلى جنب مع «الشاي والخبز المحمّص».

كأن بروفسور إبراهيم عويس تعمّد أن يضع عالَم الوفرة إلى جانب عالَم الفقراء، عالم الأقوياء إلى جانب عالم الضعفاء: الأمريكان بكل ما يظنون في أنفسهم من حول وطول وفي كفّة، والعرب ـ كما يبدون ـ بلا حول ولا طول في كفّة.

وقد ظلت روح الأبيات تسري في سائر الكلمة مثل موسيقى (خلفية)، تخلق تضارباً مع مناخ الندوة، وتبث إحساساً من السخرية من الوضع القائم برُمّته ـ أي الوضع الذي فرضته أمريكا.

مضى بروفسور عويس ليقول إنه لا بد من لقاءات كثيرة بين النّخب الأمريكية والنخب العربية، على غرار لقاء أصيلة قبل أن ينجلي الظلام الكثيف من الشك وقصور الفهم والأخطاء.

وقال إن على النُّخب من الفريقين، أن يعملوا بجد وإخلاص للتعرُّف على المصالح المشتركة، إذ إن الشعبين، العربي والأمريكي، لا غنى لأحدهما عن الآخر. فالعرب يملكون مخزوناً عظيماً من البترول وغيره من الثروات، وهي ثروات لا يمكن للعالم الصناعي، وخاصة الولايات المتحدة، أن يستغني عنها. ومن ناحية أخرى، فالولايات المتحدة تملك المؤسسات العلمية والتكنولوجيا المتقدمة

والعلوم والخبرة والمعدات والسّلع المصنّعة، وكل ذلك لا غنى للعالم العربي عنه.

ثم أضاف:
«حان الوقت كي تبدأ النُّخب الأمريكية والنّخب العربية في مداومة اللقاء والتواصل والتفكير الجاد لتصحيح المعتقدات الخاطئة والأفكار المشوّهة. وهي معتقدات وأفكار زُرعت ـ من الجانب الأمريكي ـ بتعمد ولؤم، وترسّخت في أذهان الأمريكيين بالإصرار عليها وتكرارها».

هذا، وقد قسّم برفسور عويس ما سماه بـ (النُّخب) إلى خمس، منها (النّخبة السياسية). وفي هذا الصدد لم يجد المتحدث أية بارقة أمل في أن تغير النخبة السياسية الأمريكية من سلوكها إزاء العالم العربي، وذلك بسبب انحياز أمريكا انحيازاً أعمى لإسرائيل، نتيجة لقوة نفوذ (اللوبي الإسرائيلي).

وفي ما يتعلق بالنشاط الاقتصادي، قال بروفسور عويس أنه يكاد يكون من جانب واحد، إذ إن تدفق المال العربي على أمريكا، لا يقابله أي تدفق في الاستثمارات الأمريكية على العالم العربي.

هذا، وقد كانت آراء الأستاذ إبراهيم عويس عن الإعلام الأمريكي ووسائل الاتصال، مطابقة مطابقةً كاملة لما ذكره الأستاذ هشام شرابي، من أنها متحيّزة ضد العرب والمسلمين، وأنها تلحُّ إلحاحاً (مرعباً)، في تقديم صورة مشوّهة للعالم العربي والعالم الإسلامي، أبعد ما تكون عن الحقيقة.

الأمل الوحيد في «كسر الحلقة الشيطانية» ـ كما قال برفسور عويس ـ وهو أن ينشىء العرب أنفسُهم وسائل اتصال عالية الكفاءة، تستطيع أن تنفذ إلى شبكات الاتصال العالمية خاصة الـ (إنترنت)، وتعمل على اختراق الحائط الإعلامي المضروب حول العالم العربي.

النشاط الذي وجد فيه برفسور عويس أكبر أمل في إحداث أي تأثير، هو النشاط الثقافي والفكري. وبعد أن ذكر أسماء بعض المفكرين العرب الذين أحدثوا أثراً في أمريكا ـ أمثال أمين الريحاني وجبران خليل جبران وفيليب حتّي وشارل عيساوي ونجيب محفوظ ـ قال الأستاذ إبراهيم عويس:

«هذا مجال أجد فيه أملاً في إحداث تحسُّن ما. وإذْ إن كل مفكر هو في الواقع مؤسسة مستقلة قائمة بذاتها، فإنني أقترح أن يجتمع مفكّرون أمريكيون ومفكرون عرب في لقاءات دورية صغيرة لتبادل الرأي. وقد تكون من ثمار هذه اللقاءات أعمال أدبية وفكرية، كإصدار روايات ومقالات وأشعار وغيرها... وهو مجال فيه احتمالات واسعة للعمل المشترك».

هذا، ولا أظنني بحاجة إلى أن ألفت انتباه القارئ، أن هذا العالِم المرموق، بعد أن فقد الأمل في الاقتصاد والسياسة والإعلام، لم يجد شيئاً يبعث الأمل، إلّا في الفكر والأدب والفن والثقافة عموماً... ولا أظنه ابتعد عن الصواب.

قال مستر (جوناثان برودَرْ) في كلمة صريحة متّزنة، أن السياسة الأمريكية سياسة معقدة وقد تبدو متناقضة أحياناً، وأن على العرب أن يفهموا هذا التعقيد و«يتعلموا أصول اللعب». وأضاف في صراحة لافتة «السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط لها هدفان: ضمان تدفق البترول، وضمان أمن إسرائيل، ولا يوجد أي احتمال في تغييرها».

إنه رئيس التحرير في الإذاعة القومية في واشنطن، وهو يهودي، شأنه في ذلك شأن (جودث كبَر) المديرة بالمشاركة لمركز الدراسات الاستراتيجية والدولية في واشنطن، و(توماس لبْمان) المراسل الدبلوماسي لصحيفة الـ «واشنطن بوست» والسفير المتقاعد (والتر كتْلر) رئيس مركز المريديان الدولي في واشنطن، و(هنري سقْمان) الزميل في معهد الشؤون الدولية في نيويورك، والسفير المتقاعد

(روسكو سودارْت) رئيس معهد الشرق الأوسط في واشنطن.

إننا بطبيعة الحال، لم نجد أي غضاضة أو غرابة، كونهم يهوداً، فقد تعلّمنا من شريعتنا السمحاء وحضارتنا المضيئة، أن نحترم عقائد الآخرين ونتفهّم اختلاف مذاهبهم في العيش ـ «لهم ما لنا وعليهم ما علينا». وإن كانت قلّة من المسلمين بسبب ضيق الأفق وسوء الفهم للدين يسلكون بخلاف ذلك، فإنه شذوذ عن القاعدة.

الأمر الثابت طوال التاريخ هو أن اليهود لم يجدوا أبداً مثل ما وجدوا في المجتمعات العربية والإسلامية، من طمأنينة وقبول وإتاحة فرص لمواهبهم كي تزدهر وتشارك في تطور حياة المجتمعات التي عاشوا فيها. كان منهم الوزراء والسفراء والفلاسفة والشعراء والأطباء والأدباء.

تلك التجربة الفريدة في التعايش الإنساني، كان حريّاً أن يُحتفى بها ويُضرب بها المثل. ولكن الحركة الصهيونية ـ كما نعلم ـ في محاولاتها اليائسة لإيجاد مبررات للاستيلاء على أرض فلسطين، تنكّرت لتلك التجربة، بل صوّرتها على عكس ما كانت عليه، تماماً.

ولا يخفى أن الحركة الصهيونية حين أحست أن حجة (أرض المعاد) لا تكفي لتبرير استيلائهم على فلسطين، أخذت تلجأ إلى ذرائع أخرى.

قالوا إن الأرض كانت (خالية). إنما تلك حجة كان من السهل دحضها، فقد كان واضحاً لكل ذي عينين أن الأرض كانت تموج

بالبشر الذين عاش أسلافهم فيها منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام. وكانت جلَبة النّضال الفلسطيني لصدّ الاستعمار الصهيوني، لا تترك مجالاً للشك أن الأرض لم تكن خالية. وحتى لورد كيرْزُن، لم يملك إلّا أن يقول في مجلس وزراء لويد جورج عام ١٩١٧، قُبيل صدور وعد بلفور لإقامة (وطن قومي) لليهود في فلسطين:

«أنتم تقصدون في الحقيقة إنشاء (دولة) لليهود في فلسطين.. والأرض ليست خالية».

لجأوا عندئذٍ إلى حُجة هي من أغرب الحُجج في التاريخ. قالوا إن عرب فلسطين (لا يستحقون الأرض)، لأنهم في زعمهم شعب خامل همجي بهيمي الطباع غدار منكر للجميل متعصّب كاره للحضارة الأوروبية، وأن اليهود أحق منهم بأرض فلسطين، بسبب فضائلهم التي هي نقائض لكل تلك الرذائل العربية.

ثم انطلقوا فعمموا ذلك البُهتان على العرب قاطبة على أنه عنصر بشري منحط، وعلى الحضارة العربية الإسلامية بحسبانها شيئاً مَسْخاً لا يرقى إلى مرتبة الحضارة.

ترسيخ هذه المزاعم، هو الهدف وراء كل ما يسمعه العرب والمسلمون، ويقرأونه ويشاهدونه من تزييف في وسائل الاتصال الأوروبية والأمريكية. ولا بد من الاعتراف أن الحماقات التي يجترحها بعض العرب ـ أفراداً ودولاً ـ تُستغل استغلالاً ماهراً، لإضافة بشاعة على بشاعة.

في المقابل، فإن فكرة أن اليهود أحق بالأرض، هي وراء كل المزاعم

الصهيونية، أنهم حوّلوا الصحراء إلى جنّة، وأنهم أقاموا دولة ديموقراطية متحضرة في محيط من الرّعاع والهمج والتخلف والاستبداد.

وقد نجحوا في دعايتهم نجاحاً منقطع النظير، بحيث استطاعوا أو كادوا، أن يحوّلوا شعوباً بأكملها وحضارة برُمتها، إلى شيء تافه لا يُؤبه له ولا يُحسب حسابه.

هذا النجاح بعينه، أخذ فيما يبدو يزعج عقلاء اليهود ـ وكل اليهود الموجودين معنا في أصيلة من العقلاء ـ لأنهم بدأوا يدركون أن ذلك التصوّر للعرب والمسلمين، إن لم يتغير ويوضع حدّ لانتشاره، فسوف يحول دون قيام سلام حقيقي. وهؤلاء العقلاء يفهمون أن اليهود الإسرائيليين في نهاية الأمر، محكوم عليهم بالعيش وسط أولئك الأقوام، وهم يزدادون عدّاً وعتاداً يوماً بعد يوم.

ربما ذلك القلق من عقلاء اليهود الأمريكيين على مصير بني قومهم في فلسطين، هو الذي يفسّر إلحاح أغلبهم في ندوة أصيلة ـ صراحة وتضميناً ـ أن يفعل العرب شيئاً يوقف ذلك الطّوفان. ولم يكن مستر (جوناثان برودر) شاذاً عنهم. شرح بإسهاب كيف تعمل الدعاية الإسرائيلية في أمريكا، وطلب من العرب أن يفعلوا مثلهم، وقال:
«العرب انسحبوا من الميدان وتركوه مفتوحاً للطرف الآخر».

٢٢

برفسور أحمد الأمين البشير سوداني الأصل ويحمل الجنسية الأمريكية، وقد عمل في عدد من الجامعات منها جامعة «موارد» المعروفة، وهي أعرق جامعة للأفرو ـ أمريكيين. وهو الآن أستاذ تاريخ الحضارات في جامعة «جورج واشنطن» في مدينة واشنطن.

أضاف بعداً مهماً في الندوة بحديثه عن الأمريكيين السود. استعرض تاريخ الرقّ في أمريكا، وقال إن أعداداً ليست قليلة من الأفريقيين الذين جلبوا قسراً إلى أمريكا كانوا مسلمين، الأمر الذي يعني أن علاقة السود الأميركيين بالإسلام، علاقة قديمة.

وكان واضحاً من حديث الأستاذ أحمد البشير، أن تركيبة المجتمع الأمريكي آخذة في التحول، وأن احتكار المنتصر (الأبيض) من أصول أنجلوسكسونية للسلطة لن يستمر.

وقال الأستاذ البشير أيضاً أن من أسباب صعوبة الحوار بين العرب والأمريكان، كون أمريكا دولة تمتاز بالتعدد والتنوع، وأن ذلك التنوع لا يقابله تنوع في الدول العربية. ففي أمريكا يوجد عدد من مراكز النفوذ التي تؤثر على صنع القرار، وهذا ليس له نظير في العالم العربي.

هذه الفكرة ترددت كثيراً في الندوة، وقد أسماها بعضهم (غياب الديموقراطية) ووصفها بعض الأمريكان المشاركين بـ «غياب الحرية». واقترح الدكتور الحسن بوقنطار أستاذ العلاقات الدولية في جامعة الملك محمد الخامس في الرباط، أن يتعامل العرب مع أمريكا ليس بوصفها شيئاً واحداً، ولكن بوصفها مجتمعاً متنوع الأعراق والميول والاتجاهات. ولاحظ بهذا الصدد أن الجاليات العربية في أمريكا، يمكن أن تقوم بدور أكثر فعالية مما تقوم به الآن، في إطار ذلك التعدد.

بالإضافة إلى موضوع التنوع العظيم في المجتمع الأمريكي وأن التأثير عليه لا يكون فقط بواسطة السياسيين في واشنطن، تطرق الأستاذ عبد الرحمن الراشد رئيس تحرير مجلة «المجلة» إلى التفاوت العظيم بين وسائل الاتصال الأمريكية ووسائل الاتصال العربية من حيث الكفاءة والاستعداد التقني. وهو، مثل عدد من المتحدثين، اهتم بالجانب المهني، وبقدر ما حمّل الأمريكان مسؤولية جهلهم بالعالم العربي، وتشويههم لصورته، فقد حمّل العرب مسؤولية التصدي لكل ذلك والعمل على تغييره.

وقال الأستاذ عودة أبو ردين، وهو رجل أعمال، إن السياسة الأمريكية سياسة تعنى بالمصلحة بينما تتذرع السياسات العربية بالمثل

والأخلاق، وأن كلاً من الاتجاهين خاطىء. وأضاف أن تصور العرب لأمريكا، تصور سطحي وضحل. وأكد هو أيضاً أن دور العرب الأمريكيين في التأثير على السياسة الأمريكية دور ضعيف وهامشي. وفي رأيه أن مسؤولية التواصل مع أمريكا، هي مسؤولية عربية في المقام الأول.

وذكر الأستاذ محمد العربي المساري من أسرة تحرير صحيفة «العلم» بالرباط، أن من أهم الأسباب التي تجعل الحوار بين العرب والأمريكان أمراً صعباً هو أن «الحمولة الثقافية عند العرب مختلفة عن الحمولة الثقافية عند الأمريكان». وقال إن العرب شاهدوا بدهشة عظيمة كيف أن خطاب رئيس وزراء إسرائيل في الكونجرس الأمريكي، قوطع بالتصفيق أربع عشرة مرة، رغم الماضي السياسي المعروف للمتحدث، ورغم تطرفه وعرقلته مسيرة السلام منذ توليه الحكم.

وقال الدكتور صالح المانع رئيس قسم العلوم السياسية بجامعة الملك سعود بالرياض، إن الولايات المتحدة بددت الرصيد الكبير من الصداقة الذي كسبته في المنطقة نتيجة دورها في تحرير الكويت، وذلك لأنها سرعان ما بدت كأنها تريد أن تتقاضى الثمن على ذلك الدور بالحصول على مكاسب استراتيجية واقتصادية. وبعد انتخاب «كلنتون» أخذت تطبق دبلوماسية نشطة هي «دبلوماسية التجارة».

ويقول الدكتور صالح المانع إن ذلك السعي العنيف وراء المصلحة أثار توترات وحساسيات، وجعل الناس في المنطقة ينظرون إلى سياسات الولايات المتحدة نظرة مختلفة. وفي رأيه أن أية مكاسب اقتصادية حققتها أمريكا، تمت نظير خسائر سياسية.

ظل الأمريكان طوال الندوة، يلحوّن على قضية التطرف والإرهاب في العالم العربي والإسلامي، فعلى سبيل المثال قال السفير مستر (والتر كتلر):

«الرأي العام في أمريكا مهووس بموضوع الإرهاب.. أعمال العنف التي تصدر عن بعض الجماعات في منطقة الشرق الأوسط تؤكد الانطباع الذي يحمله الأمريكيون بأنها منطقة غريبة لا تخضع لأعراف السلوك المتحضر، وأنها ضد الديموقراطية ومعادية للحضارة الغربية».

تصدى عدد من العرب والعرب الأمريكيين لهذا الزعم، وبيّنوا أنه زعم خاطىء ينبع عن احتقار لطموحات الشعوب في المنطقة، وعن تعريف فضفاض لمعنى الإرهاب. وبالإضافة لما ذكره كل من الأستاذ

هشام شرابي والأستاذ إبراهيم عويس بهذا الصدد، قالت الدكتورة منى مكرم عبيد أستاذة العلوم السياسية في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، أن الأمريكيين لا يهتمون بالتيارات السياسية المخلصة التي تتحرك في المنطقة، ولا يضعون أي وزن للرأي العام في العالم العربي.

وأشار الدكتور محمد إبراهيم الشوش إلى أن وسائل الاتصال الأمريكية، تستغل حوادث عنف فردية في العالم العربي والإسلامي لترسخ الانطباع بأنه عالم همجي خارج دائرة الشعوب المتحضرة. وقال إن الهدف هو تصوير العربي على أنه (لا إنسان) وذلك لتبرير العدوان عليه واغتصاب أرضه.

وقالت الدكتورة منار الشوربجي، وهي باحثة مصرية متخصصة في الشؤون الأمريكية، إن وسائل الاتصال الأمريكية تتعمد أن تصور أي اختلاف مع السياسة الأمريكية مهما كان مخلصاً على أنه ينطوي على نوايا عدوانية ضد أمريكا. وفي المقابل، ينظر الإعلام الأمريكي إلى أعمال الإرهاب والعنف التي تمارسها إسرائيل ضد العرب، بأنها حق مشروع في الدفاع عن النفس. ونوهت أن العدوان الإسرائيلي الغاشم على (قانا) في جنوب لبنان، لم يبعث على أي استنكار أو تنديد من قبل أمريكا ووسائل اتصالها.

ورغم كل هذه الحجج، لم يكفّ الأمريكان عن الإلحاح على قضية الإرهاب، وربطها بموضوع أمن إسرائيل. وتساءل كل من (والتر كتلر) ومسز (جودث كبر)، لماذا لا ترتفع أصوات المثقفين العرب في مقاومة التطرف وإدانته؟

وقد لفت عدد من المتحدثين أنظارهم إلى أن المثقفين العرب لم

يكفوا أبداً عن التصدي للتطرف والإرهاب، بألسنتهم وأقلامهم، وأن عدداً كبيراً منهم كانوا ضحايا وشهداء في تلك المعركة. ولكن الأمريكان لا يسمعون ولا يقرأون، لأنهم أقاموا حاجزاً كثيفاً بينهم وبين النشاط الفكري في العالم العربي ومنعوه أن يصل إليهم.

وكما كان متوقعاً فقد أثاروا قضية الكاتب الإنجليزي الهندي سلمان رشدي، وعبروا عن دهشتهم أن الكتّاب والمفكرين في العالم العربي لم يهبّوا لمناصرته والدفاع عن حقه في التعبير. ومعلوم أن الأمريكان والأوروبيين، جعلوا من هذه القضية (Cause - Celebre)، مثل قضية (درايفوس) في فرنسا في القرن التاسع عشر، وأصبحوا يعتبرونها دليلاً آخر على تحجر العالم الإسلامي وتخلفه الفكري.

مرة أخرى لفت المتحدثون العرب أنظارهم أن الأمر بخلاف ما يزعمون، فقد اعترض عدد من رجال الدين والأدباء والمفكرين على إهدار دم الكاتب، وساهم أكثر من مائة كاتب عربي ومسلم في كتاب عن قضية سلمان رشدي صدر بعدة لغات، من بينها الفرنسية والإنجليزية.

ولكن أغلب المساهمين، مع اعتراضهم على إهدار دم الكاتب، فإنهم في الوقت نفسه رفضوا رفضاً قاطعاً أسلوبه في السخرية من الإسلام والاستهتار بمقدساته. وقال أحد المتحدثين:

«نحن نناقش قضايا التطرف والإرهاب وحرية التعبير في منطقتنا، بلغتنا وفي سياق مصالح قومنا وأهدافهم، ولا نتحدث أو نكتب كما تريد منا أميركا والغرب. وبطبيعة الحال، فإن هذا لا يرضي الأوروبيين، ولا يرضي الأمريكان خصوصاً».

على مدى نحو أسبوع، عاش أولئك الأمريكان في مناخ عربي إسلامي، وبعضهم لأول مرة. كان ذلك في حد ذاته أمراً غاية في الأهمية، خاصة بالنسبة لليهود منهم. جلسوا في المقاهي وتجوّلوا في الأسواق ودخلوا في الزحام مع الناس في شوارع المدينة وكورنيشها الواسع. رأوا بشراً عاديين مثل سائر خلق الله. لم يسىء إليهم أحد، ولم يتحرّش بهم أحد. ولعلّهم على العكس، وجدوا دفئاً في المعاملة وسماحة قلّ أن عرفوا مثلها.

وفي الأمسيات الجميلة في دار محمد بن عيسى في الجزء القديم من المدينة، اختلطوا بالمشاركين في الندوة عن قرب واكتشفوا، لا شك، أشياء مشتركة ونقاط التقاء فكرية كثيرة.

كان الهدف هو خلق جو من الألفة، وإزالة التوتر الذي قد يحسّه

اليهودي الذي يدخل في مناخ عربي لأول مرة. الله أعلم ماذا حملوا معهم من مخاوف وأوهام. والعرب مهما قلت عنهم، فإن فيهم هذا الدفء الإنساني الغامر، فلا ريب أن الأمريكان ـ واليهود خاصة ـ سرعان ما وجدوا أنفسهم في محيط إنساني خال من التوتر والعدوانية.

وقد قُيِّض لي أن أتحدّث مطولاً مع مستر (ملتن فيورست). كان حديثه في الندوة قد لفت انتباهي. أعجبني تحليله المُنصف، وحسّه التاريخي الشامل. وخيّل إليَّ وأنا أستمع إليه، أنه يعترف ضمناً بأن خطأ تاريخياً فادحاً قد ارتُكب بإنشاء دولة إسرائيل في فلسطين، لكنه أيضاً يقول إن الأمر قد وقع ولا حيلة لأحد في تغييره. واستمعت بدهشة إلى قوله «نحن نستجيب للقوة، والعرب ينشدون العدل».

لم يكن بطبيعة الحال يطلب من العرب أن يستعملوا القوة، إنما كان فقط يهيب بهم أن يكونوا أقوياء.

أليس عجيباً أن يطلب يهودي من العرب أن يكونوا أقوياء؟ إننا نفترض أن اليهودي مهما بلغ به الإنصاف والتجرد، فإن عواطفه لا بد أن تكون في نهاية الأمر مع بني قومه في إسرائيل، فلماذا يطلب مستر (ملتن فيورست) من العرب أن يكونوا أقوياء؟

لعله ـ إذا صدق ظنّي ـ يقصد أنه في مناخ سياسي مثل أمريكا يؤمن بمبدأ (توازن القوى)، فإن صُنّاع القرار في أمريكا لن ينْشَطوا في الضغط على إسرائيل للتوصل إلى تسوية مع العرب تكون أقرب إلى العدل وقابلة للاستمرار ـ ذلك لن يحدث ما دام العرب ضعفاء ـ ومستر (ملتن فيورست)، لا بد أنه يفكر في مصلحة إسرائيل في

نهاية الأمر، لأنه يدرك بحسّه التاريخي العميق، أن عدم تحقيق هذه التسوية العادلة الدائمة، من شأنه أن يؤدي إلى كارثة، يكون اليهود أكثر من العرب، هم ضحيّتها.

فكرة (الضحية)، عبّر عنها مستر (هنري سِقْمان) - وهو إنسان بالغ الرّصانة - في جملة بدت لي بعيدة المرمى. قال: «كون الإنسان ضحيّة، فإن ذلك لا يحميه من الوقوع تحت سيطرة خداع النفس».

كلمة (ضحية) - كما نعلم - لها وقع خاص لدى اليهود، فهم، بسبب تاريخهم المأساوي، يعتبرون أنفسهم (الضحية الكبرى) في التاريخ، الضحية Par Excellence. ولا بدّ أنهم يدركون أيضاً، أنهم بإقامة دولتهم في فلسطين، بمساعدة القوى التي كانت ضالعة في مأساتهم، فإنهم خَلَقوا (ضحية) جديدة، هم الشعب الفلسطيني. الحلم الصهيوني تحوّل إلى كابوس، فمن هي في هذه الحالة إذاً (الضحية الواقعة تحت سيطرة خداع النفس)؟

إنه وضع إنساني معقّد كما في مسرحيات (سوفوكليس). وقد أحسست من محادثاتي مع (هنري سقمان)، أنه يدرك فداحة (المأزق التاريخي) الذي وجد اليهود أنفسهم فيه إزاء العرب، والعرب أيضاً إزاء اليهود.

ولعلّني لا أكون مخطئاً إذا قلت، إن مستر (سقمان) يدرك أيضاً أن تلك العقدة التاريخية لن تُحل بالأسلوب السطحي الذي تتّبعه الولايات المتحدة، بتأييد إسرائيل تأييداً أعمى بلا قيد ولا شرط. إنه نوع مرعب من الحب أقرب ما يكون إلى الكراهية.

ثم حضروا معنا في مركز الحسن الثاني، أمسية موسيقية للفنان العراقي العالمي الشهرة منير بشير، فحلّق كعادته في أجواء عالية، وجال بعوده السحري جولات عبقرية، طاف فيها ببغداد ودمشق والقاهرة والأندلس. وفي الهواء الطلق عند سفح القلعة على البحر، شاهدوا عروضاً غنائية متنوّعة من الرقص الشعبي المغربي الجذّاب، والغناء الحديث من الفنان الشاب عبدو شريف، الذي ربما ذكّرتهم حيويته وتأثيره على الجمهور الضخم من الشباب، بمغنّيهم النجم (مايكل جاكسون).

هذا، وقد كانت أهم فكرة خرجت عن الندوة، اقتراح لإنشاء معهد للدراسات الأميركية في أصيلة، يعمل على ملء الفراغ الذي اتضح في الندوة. وقد أشار عدد من المتحدثين، خاصة الأمريكان، أنه إذ توجد أقسام للدراسات العربية في عدد من الجامعات الأمريكية، فإنه لا يوجد ما يوازيها في الجامعات العربية.

تضمنت البرقية التي أرسلها المشاركون في الندوة في نهاية اجتماعاتهم إلى العاهل المغربي الملك الحسن الثاني هذا الاقتراح بإنشاء المعهد، فسارع إلى مباركته وأعرب عن تأييده الكامل له.

إنه مشروع هام أرجو أن تتضافر الجهود على إنجازه، وربما يكون ذلك في نطاق مشروع أوسع، وهو أن تتحول جامعة المعتمد بن عبّاد الصيفية إلى جامعة ثابتة، تُعنى بدراسة العلاقات العربية مع أفريقيا وأوروبا وأمريكا. ومدينة أصيلة التي كانت رائدة في هذه المجالات الحيوية لصالح كل العرب، جديرة بأن تكون مقراً لتلك المؤسسة.

٢٥

فاز الشاعر الكبير، صاحب العطاء الشعري المتفرّد، أحمد عبد المعطي حجازي بجائزة (شيكايا أوتامسي) للشعر الأفريقي لعام ١٩٩٦. وهي جائزة تُمنح كل عامين. وحجازي هو أول عربي ينالها، فمنذ أن قرّر المنتدى العربي الأفريقي بأصيلة إنشاءها عام ١٩٨٨ تخليداً لذكرى الشاعر الكنغولي، كان كل الذين فازوا بها من الأفارقة من جنوب الصحراء باستثناء واحد هو (رينيه دبستر) من هايتي، الذي اعتبرته لجنة التحكيم، كما هو يعتبر نفسه أفريقياً. ومن الذين فازوا بالجائزة أيضاً (ماسيسي كونيني) من جنوب أفريقيا، و(إدوار مونيك) من موريشس.

إنه إذاً حدث فريد هذا العام، إذْ إنه لا يخفى أن منح الجائزة لشاعر عربي ينطوي على عدة دلالات، لعل أهمها تذكير العرب والأفارقة على السواء، أن غالبية الشعوب العربية تعيش في أفريقيا. وهم ليسوا

دخلاء على القارة، كما يزعم بعض المتطرفين من الأفريقيين جنوب الصحراء، ولكنهم قُطّان أصليون منذ أقدم العصور.

يرتبط بذلك، التنويه بعمق الصلات التي تربط أفريقيا بالعالم العربي، وهو إخاء عريق لم يزل يشيد به أولئك الشعراء العظماء أمثال ليوبولد سنغور وماسيسي كونيني. وقد كان الشاعر الذي سُميت الجائزة باسمه، محبّاً للعرب، شديد الإحساس بوحدة المصير العربي ـ الأفريقي.

بدأ الاحتفال عصر الثلاثاء السادس من شهر آب/ أغسطس، بوقفة قصيرة لأعضاء لجنة التحكيم، أمام النُّصب التذكاري الذي أقيم لـ (شيكايا أوتامسي) في الحديقة الأنيقة التي سُميت باسمه.

وفي المساء جرت مراسم تسليم الجائزة في مركز الحسن الثاني للمؤتمرات، بحضور حشد ضخْم من الشعراء والأدباء والجمهور المغربي.

كان أول المتحدثين السفير محمد بن عيسى الأمين العام للمنتدى العربي ـ الأفريقي، وهو وزير سابق للثقافة، ويشغل حالياً منصب السفير للمملكة المغربية في واشنطن. وفي كلمة قصيرة بليغة أشاد بأحمد عبد المعطي حجازي، وبتجربته الشعرية الغزيرة التي بوَّأته مكانة بارزة في طليعة الشعراء العرب المعاصرين. وتلاه (هنري لوبين) رئيس لجنة التحكيم، وهو روائي معروف يكتب باللغة الفرنسية، ويعمل الآن مساعداً للمدير العام لمنظمة اليونسكو، وكان من قبل رئيساً للوزراء في الكنغو ـ برازافيل.

وأعقبه في تقريظ الشاعر المُحتفى به، كل من أعضاء لجنة التحكيم، وهم الأستاذ طاهر بكري الشاعر والأكاديمي التونسي، و(كايا ماكيلي) الروائي والشاعر الكنغولي، والسفير والكاتب (نوريني تيجاني سيربوس) المندوب الدائم لدولة بنين في منظمة اليونسكو ورئيس المجلس التنفيذي للمنظمة، والطيب صالح.

وانتهى الحفل بتسليم الجائزة، ووضْع الشاعر المُحتفى به بصماته على لوحة للرسامة الأصيليّة وفاء الهُضيبي.

ثم عُقدت ندوة استمرت يومين بعنوان (حجازي والحداثة الشعرية العربية)، تحدث فيها جمع من الأكاديميين والشعراء وأصدقاء الشاعر ومحبّي شعره. وكلّها دراسات قيّمة لعلها تُنشر قريباً.

لكنني أكتفي بالإشارة إلى المحاضرة الرائعة التي قدّمها الشاعر الكبير فاروق شوشة. ذلك لأنه وحجازي تزاملا طويلاً في رحلة الحياة والشعر، فهو من أقرب الناس إليه وأعرفهم بشعره.

وفاروق شوشة نفسه، صاحب تجربة شعريّة ضخمة وصوت شعري مميّز. وهو مثل حجازي عميق الإحساس بعبقرية اللغة العربية، عليم بتدفق بيانها وفصاحتها، مجدد جريء التجديد، ولكن حداثته متأصلة في امتداد التراث الشعري العربي العظيم. كانت كلمته المؤثرة، مزيجاً من الحب للشاعر وشعره، ونظرات ثاقبة في طبيعة الحداثة الشعرية. وقد جاء فيها:

«ترجع قيمة الإنجاز الشعري للشاعر الكبير أحمد عبد المعطي حجازي في ديوان شعر الحداثة، إلى قدرته الفذّة على إقامة جدليّة

حيّة مع الموروث الشعبي من ناحية، والانفتاح المستمر على آفاق المغامرة والتجاوز من ناحية أخرى.

هذه الجدلية الحيّة مع الموروث الشعريّ تتنامى وتتعاظم في مشروع حجازي الشعري كلما تقدمت به الخطى، وعمُق المسار، واكتملت ملامح الإنجاز. عندئذٍ تكتسب لغته الشعرية ولَع الافتتان بمنازلة الأقران السابقين من فرسان الشعر العربي، وزهو المصاولة تعبيراً عن الذات وإثباتاً للقدرة على التجاوز والاختلاف. وهي لغة تكشف عن روح وموقف، وتتجاوز الدلالة الخارجية لمفهوم الصياغة الشعرية، بحيث تصبح روحاً شعريّة عارمة دانت لها الأداة، واكتملت عناصر النضج والخبرة، وتفجّر الوعي الجديد بالحياة وبالشعر...».

٢٦

أصيلة ـ تلك البلدة المغربية المرابطة ـ التي شهدنا بدايات صحوتها وانطلاقتها، دخلت في موسم مهرجانها التاسع عشر مرحلة جديدة. أوشكت أن تصبح مدينة. قامت فيها مشاريع سكنيّة وصناعات خفيفة، ومشروع لتصريف مياه الاستهلاك ومياه الأمطار. وأضيئت مساجدها وحدائقها وشواطئها وآثارها التاريخية بمصابيح كهربائية من نوع جديد صمّمته شركة (فليبس) خصيصاً وأسمته (مصباح أصيلة).

ما أبعد كل ذلك من أصيلة قبل تسعة عشر عاماً، حين كانت طرقاتها مُتْرَبة، وشاطئها وعْراً، ومياهها شحيحة، ومصابيحها مُطفأة.

إنها مرحلة مشرقة مليئة بالاحتمالات، وأيضاً محفوفة بالمخاطر. ذلك لأن هذه البلدة منذ أن بدأت تتحرك، لم تكن كبقية البلدان.

كانت تسعى إلى تحقيق حلم صعب. تريد أن تُحدث تنمية عمادها الفن والأدب والشعر والثقافة. أن تكبر وتتسع دون أن تطغى نوازع التجارة والربح والمادة، على متطلبات العقل والروح. أن تكون مدينة دون أن تفقد طابع القرية. كانت أصيلة تتطلع إلى أن تصبح نموذجاً من هذه النماذج التي يضرب بها المثل، كيف تتطور المجتمعات دون أن تفقد هويتها وتنقطع عن جذورها.

وكذلك سارت الأمور سنوات عدداً، بريادة ابنها البار محمد بن عيسى. إنه لا ريب الإنسان الذي حرّك سواكنها منذ البداية، ومغامرتُه كلُّها، قوامها العودة إلى الجذور.

ثم في الأعوام الأخيرة، ربما بسبب غياب محمد بن عيسى سفيراً للمغرب في واشنطن، بدا كما لو أن تلك الموازين الدقيقة بدأت تختلّ، وأن الألَق الذي اكتسبته البلدة، جذب إليها أفواجاً من المستثمرين والمقاولين ونهّازي الفرص، أرادوا أن يجعلوا منها مدينة بلا روح ولا طابع مثل عشرات المدن في العالم، التي قامت خبط عشواء.

لما عدنا إليها في عام ستة وتسعين بعد انقطاع عامين بسبب توقّف الموسم عام خمسة وتسعين، وجدنا مظاهر لذلك الغزو، وكان أبرزها مبنى ضخم بشع في منتصف تمامة أقيم على الكورنيش قريباً من القلعة التاريخية، التي هي مركز الثقل في البلدة. وعلمنا أن الغرض منه أن يكون (مارينا) ومُنتجعاً لأصحاب اليخوت الأثرياء الذين يريدون جذبهم من نواحي المغرب وأوروبا.

بجرّة قلم، أفسدوا جمال الكورنيش الواسع، وحجبوا جمال البحر وكتموا أنفاس البلدة. كذلك خلقوا ـ كما علمنا ـ مشاكل بيئية،

منها أنهم غيّروا تحركات البحر في مدّه وجزره، فهجرت الأسماك ساحل أصيلة وأصبح الصيادون يلاحقونها إلى مسافات بعيدة.

من حسن الحظ أن محمد بن عيسى قد عاد إلى منصبه القديم رئيساً لبلدية أصيلة ـ بالإضافة إلى عمله سفيراً. ويبدو أن البلدة سوف تمضي على رسلها، وتواصل متابعة حلمها الصّعب الذي حقّقت منه جزءاً كبيراً.

هذا، وقد قيّض الله لأصيلة في موسمها ذاك، رجلاً كريماً ماجداً هو الأمير بندر بن سلطان بن عبد العزيز، فتبرع بسخاء عظيم لإنشاء (معهد أصيلة للدراسات الأمريكية). وقد وضع الأمير حجر الأساس للمعهد في افتتاح الموسم التاسع عشر.

كانت فكرة إنشاء المعهد قد طُرحت في ندوة الحوار بين الأمريكيين والعرب. وقد أحسّ المشاركون يومئذٍ، أن الهوة الواسعة بين العرب وأمريكا من الشك وسوء الظن وسوء الإدراك المتبادل، تقتضي قيام مؤسسة ثابتة، تُعنى بدراسة تلك الأمور وتعمل على نشر الوعي وبناء جسور التفاهم. وأقترح أن تكون أصيلة مقرّاً للمؤسسة. وقد وجدت الفكرة تأييداً من الملك الحسن الثاني ملك المغرب.

وهكذا، في خلال عام واحد، تحوّلت تلك الفكرة الطموح إلى واقع محسوس، وذلك بفضل أريحية هذا الأمير المقدام. وجديرٌ بالذكر أن الأمير بندر تعهد أيضاً بتمويل مشروع إنشاء مكتبة عامة في أصيلة تتوفّر فيها الوسائل التقنية المتاحة في أحدث المكتبات في العالم.

كل ذلك يشرح الصدر ويدعو للإعجاب ويفرض الاحترام.

تحت مظلة جامعة المعتمد بن عبّاد الصيفية في أصيلة، انعقدت ندوة عنوانها «العرب والأمريكيون في الإعلام العربي والأمريكي». وقد كانت امتداداً لندوة سابقة عن العرب والأمريكيين، كلٌّ في مرآة الآخر. وكانت بعض الشخصيات التي ساهمت في الحوار السابق من الأمريكان، موجودة في ندوة الحوار اللاحق.

ذلك ولا شك من حسن التوفيق وذكاء التنظيم، وهو أمر تميزت به أصيلة. ولا يخفى أن قضايا مستعصية معقدة مثل علاقة العرب بأمريكا، لا يُجدى أن تُخدَش خدْشاً على السطح، إنما لا بُد من ملاحقتها وسبر غورها والوصول بها إلى مُستقر.

وكما ذكرتُ سابقاً، فإن موضوع العرب والأمريكان، قد قفز قفزة

هائلة من نطاق الحلم إلى حيّز التنفيذ بوضع حجر الأساس لمبنى (معهد أصيلة للدراسات الأمريكية).

في تلك الندوة، انصبّ الحديث في معظمه على آثام الإعلام الأمريكي في حق العرب، إذ إن الأمريكيين رغم محاولاتهم اليائسة، لم يجدوا إلّا القليل الذي يقولونه ضد الإعلام العربي.

لا غرو، فإن وسائل الاتصال العربية من صحافة وإذاعة وتلفزيون، هي كما نعلم، إما خاضعة خضوعاً مباشراً لسيطرة الحكومات، أو أنها تعمل ضمن حدود ترسمها لها تلك الحكومات. ومن السياسات الثابتة للحكومات العربية ـ إلّا في حالات شاذة ـ أنها لا تسمح بالهجوم على الدول الأخرى، ولا تُتيح نشر أو إذاعة أي شيء يمكن أن يسيء إلى قادة تلك الدول.

العجيب في الأمر أن الأمريكان ـ والأوروبيين ـ بدل أن يحمدوا ذلك للحكومات العربية، فإنهم لا يملّون من السخرية من وسائل الاتصال العربية، واعتبارها محض أبواق للحكومات. ولعلها كذلك، إنما لو كانت وسائل الاتصال العربية (حرّة) بمعنى حرية وسائل الاتصال الأمريكية ـ والأوروبية ـ إذاً لربما وجد الأمريكان والأوروبيون أعاجيب من ألوان التشهير بهم والإساءة إليهم. كما يفعلون هم مع العرب، علماً بأنهم ليسوا مبرّئين من العيوب.

بدأت تظهر بوادر من الغيظ المكتوم لدى العرب في بعض القنوات الفضائية، مثل الحملة التي يقودها الإعلامي الكبير الأستاذ حمدي قنديل في برنامجه الشهير، ضد أمريكا، ومناداته بمقاطعة السجائر الأمريكية. وأقول ـ عرضاً ـ إنها حملة لن يُقدّر لها النجاح على

الأرجح، فالعرب يمنعهم الحياء وحسن الخلق أن يفعلوا مثل هذه الأمور، فلتقر أعين الأمريكان!

كم مرة احتج مسؤول عربي لدى الحكومة الأمريكية عن بذاءة من البذاءات التي يرتكبها الإعلام الأمريكي في حق العرب - وما يصدق على أمريكا يصدق على أوروبا - فقيل له، نحن آسفون يا سيدي، ولكن وسائل الاتصال في بلادنا (حُرّة) ولا سلطان للحكومة عليها! وذلك لعمري، عذر ينطوي على إساءتين. الإساءة التي حدثت بالفعل من الصحيفة أو محطة التلفزيون، ثم الإساءة المتضمنة في تذكير المسؤول العربي أن وسائل الاتصال في بلاده ليست حرة.

هل وسائل الاتصال الأمريكي حرة فعلاً؟

ظاهر الأمر أن الصحافة والإذاعة والتلفزيون عندهم، عبارة عن مؤسسات تجارية مستقلة، هدفها - ليس الوصول إلى الحقيقة - وإنما تحقيق أكبر قدر من الربح. وهي لذلك تخضع لمنطق مغاير تماماً للمنطق الذي يحكم وسائل الاتصال العربية.

وسائل الاتصال العربية تخضع - وقد يبدو ذلك غريباً - لوازع (أخلاقي)، مهما كان هذا الوازع ملتوياً أو منحرفاً. بمعنى أنه يوجد باطل وحق، حتى لو كان (الحق) هو سياسة الحكومة!

في المقابل، وسائل الاتصال الأمريكية، لا تعتدُّ بأي وازع خلقي، ولكنها تسير على هذْي ما وصف برفسور هشام شرابي بـ «البراقماتية السياسية والربح التجاري». الحق في هذه الحالة، هو تحقيق الهدف

السياسي، والحصول على أكبر قدر من الربح.

ومن ناحية أخرى، اعترف عدد من المشاركين بوجود علاقة بين الحكومة ووسائل الاتصال في أمريكا. ووصفها الأستاذ هشام ملحم بأنها علاقة Symbiotic - أي أنها علاقة فيها أخذ وعطاء من الجانبين، وتأثير متبادل.

ونحن نعلم أن الدولة في أمريكا، متمثلة في البيت الأبيض ومجلس الكنغرس بشقيه، لها تأثير هائل على مجريات الأمور. ولكنه تأثير لا يتحقق بواسطة التدخل المباشر، ولكن بوسائل عميقة ذكية من الضغط والترغيب والترهيب. ولا يخفى أن الدولة استطاعت بتلك الوسائل أن تفرض أحياناً حظراً على أخبار اعتبرت أن نشرها يضرّ بالمصلحة القومية.

إذاً لماذا لم تفعل الدولة في أمريكا شيئاً إزاء الحملة المبيّتة المركزة ضد العرب، حكومات وشعوباً وتاريخاً وحضارة ومعتقدات؟

إنها حملة لا مثيل لضراوتها. والهدف منها، كما وصف برفسور محمد إبراهيم الشوش، هو أن يستقر في الأذهان أن العربي (لا إنسان). وأنه خارج حظيرة الأخلاقِ والأعراف والقوانين. وحينئذٍ يمكن إلحاق الأذى به دون أي إحساس بالذنب.

ألم تدرك الحكومة الأمريكية بعد، أن هذه الخطة التي لا يقبلها عقل ولا منطق، سوف تضر بمصالحها القومية، إن لم يكن على المدى القصير، فلا ريب في غد أو بعد غد؟

لا بد أن يعترف الإنسان لهؤلاء الأمريكان، الذين جاؤوا إلى أصيلة، بالإخلاص والرغبة الصادقة لمعرفة وجهات النظر الأخرى، وأيضاً الصراحة.

كان أغلبهم من اليهود، كما في السابق، وذلك كما أقول من حسن التدبير، ولا يخفى أن اليهود المخلصين بحكم ظروفهم وحساسيتهم الخاصة، لعلهم أقدر من غيرهم في إحداث تفاهم أفضل بين الأمريكان والعرب في نهاية الأمر.

كان بينهم (هنري بيغمان)، الذي شارك في الندوة السابقة أيضاً. إنه ـ كما بدا في مساهماته سابقاً، ثم في هذه الندوة ـ من هؤلاء اليهود المنصفين الحكماء، الذين يحاولون مخلصين إيجاد مخرج من (المأزق التاريخي) بين العرب واليهود.

وكذلك (والتر كتلر)، وهو سفير سابق لأمريكا في عدد من الدول العربية. و(جوناثان برودر) المعلق الصحافي. ومن الوجوه الجديدة (رتشارد ميرفي) الذي كان مساعداً لوزير الخارجية، ويحسن اللغة العربية. وكان من الإضافات المفيدة، وجود عدد من الأمريكيين من أصول أفريقية. وهؤلاء كما نعلم، لهم إدراك خاص بحكم مسيرة نضالهم الطويلة في أمريكا، وآراؤهم لها وقع مختلف.

من المساهمات التي جذبت انتباهي منذ البداية، مساهمة مستر (آلان قيرسن Allen Gerson) وهو مدير المكتب الأمريكي المغربي للتجارة والاستثمار في واشنطن. قصَّ علينا كيف أنه حاول أن يرتب لقاء بين رجل أعمال مغربي ومدير شركة أمريكية، بهدف التباحث حول مشاريع مشتركة لفائدة الطرفين.

قال مستر (قيرسن) إنه ووجه بستار كثيف من الرفض، حتى مجرد المقابلة لم يوافقوا عليها. قالوا له «نحن لا نتعامل إلّا مع إسرائيل وتركيا في منطقة الشرق الأوسط».

لكن مستر (قيرسن) لم يستسلم، بعد محاولات عدة وعقبات كثيرة نجح هو وصديقه المغربي في مقابلة رئيس الشركة الأمريكية، وانتهت المباحثات بالنجاح.

النتيجة التي توصل إليها مستر (قيرسن) هي أن على العرب ألا ييأسوا بل يثابروا لتغيير الانطباعات الخاطئة التي وقرت في أذهان رجال الأعمال الأمريكيين عن العرب. وقال «عليهم أن يجعلوا رجال الأعمال الأمريكان يحسّون بالطمأنينة والارتياح».

وخطر لي أن أستمع إلى مستر (قيرسن) أنه إذا كان هذا هو الحال مع رجال الأعمال، حيث يفترض أن يكون الحافز في الربح هو أكبر مسبب (للطمأنينة والارتياح)، فما بالك بالقضايا الأخرى؟

وتحدث مستر (وليم راسبري)، وهو أمريكي من أصول أفريقية ومن مراسلي صحيفة الـ «واشنطن بوست» عما أسماه «العودة إلى نقطة الصفر».

قال إن الجهد الإعلامي العربي في أمريكا، كله موجّه لتفنيد حجج أو الرد على هجمات الآخرين. وذلك معناه أنه لا يوجد شيء إيجابي، وأن نتيجة الجهد العربي على أحسن الفروض هي «العودة إلى نقطة الصفر».

إذاً ما العمل؟ نصيحة مستر (راسبري) هي ألا يحصر الكُتاب العرب أنفسهم في الموضوع السياسي وحده، بل يكتبوا في الأمور الكثيرة التي تهم الشعب الأمريكي. وقال «اكتبوا أكثر، واكتبوا في كل شيء».

ربما تكون هذه نصيحة مفيدة، ولكن هل يضمن الكتّاب العرب أن يجدوا الأبواب مفتوحة في وسائل الاتصال الأمريكية؟

بعضهم كما نعلم حاولوا دون جدوى، إلّا في حالات نادرة، مثل حالة (برفسور إدوارد سعيد). وهذا فرض نفسه فرضاً على هذه الوسائل، بمحض نبوغه وتفرده الذي لا ينكر. هذا، وقد كانت إحدى أكثر المساهمات تأثيراً، مساهمة المخرج السينمائي الأمريكي مستر (دُن رنق ـ Don Ring).

قدم مستر (رنق) الذي قال منذ البداية أنه يهودي، مقتطفات من أربعة أفلام واسعة الانتشار أنتجتها هوليوود في السنوات الأخيرة، أحد هذه الأفلام، فيلم كرتون موجّه للأطفال، وهو فيلم رائج جداً واسمه (علاء الدين)، وبينها فيلم رائج آخر اسمه (أبو العروس).

في المقتطفات كلها، كانت تتكرر الصور النمطية البشعة المعهودة في وسائل الاتصال الأمريكية عن العربي. إنه إنسان مخادع ماكر قاسي الطبع، إرهابي شرير، أبطره المال الذي هبط عليه دون وجه حق، وهو ينفقه في الملذات والترهات بلا حساب، إلى غير ذلك.

لا توجد صورة واحدة فيها قبس من الإيجابية. وهي صور لشدة المبالغة في بشاعتها، تحولت إلى شيء يبعث على السخرية والضحك.

إنه أسلوب بدائي، لا يخلّ فقط بأصول الذوق، بل يجافي أبسط قواعد الإعلام والدعاية. ولو كان المشاهد يستغل أدنى قسط من حاسته النقدية، لأدرك دون جهد أن تلك الصور محض أكاذيب، لأنه لا يعقل أن يوجد إنسان تحت قبة السماء بتلك البشاعة. قال مستر (رنق) ـ «لو كانت هذه الأفلام عن اليهود لقامت القيامة». ثم تساءل «لماذا هذه الحملة المركزة على العرب وحدهم؟».

وأجاب عن سؤاله بقوله:
«لأنهم صيد سهل!».

صراحة الأمريكان واستعدادهم لتقبل النقد، وقد كان موجعاً أحياناً، قابلته صراحة مماثلة من العرب أيضاً. اعترف عدد منهم أن التقصير ليس من جانب الأمريكان وحدهم، وإنما العرب مسؤولون كذلك عن سوء تصوير الإعلام الأمريكي لهم ولقضاياهم.

بل إن بعضهم مثل الدكتور محمد الرميحي، رئيس تحرير «العربي» الكويتية، كاد يضع اللوم كله على أكتاف العرب. ومن بعض ما قاله «علينا أن نصلح من أنفسنا أولاً قبل أن نطالب الآخرين بتفهم قضايانا ومواقفنا».

وإلى قريب من هذا ذهب الدكتور سعد الدين إبراهيم، الأستاذ في الجامعة الأمريكية في القاهرة. في رأيه أن عدم الفهم، والتشويه، يحدث من الجانبين، وأن الإعلام العربي ليس خالياً من المفاهيم

الخاطئة عن أمريكا. وضرب مثلاً على ذلك بمسرحية تعرض في القاهرة اسمها (ماما أمريكا).

وقال الدكتور سعد الدين إبراهيم، إن بعض الأفكار التي يحملها العرب عن أمريكا، أفكار خاطئة. من ذلك أنهم يظنون أن أمريكا تخطط لتحطيم العالم، وأن ثمة نيّة أمريكية مبيّتة للافتراء على الإسلام وتشويه صورته. وفي رأيه، أن هذه الأفكار البعيدة عن الحقيقة، تصدر عن مخاوف أمة مهزومة ضعيفة. وفي تصوره أن العرب يجب أن يكونوا أكثر إيجابية، ويعملوا على فهم أمريكا والتعامل معها كما هي في الواقع.

ورغم أن المفكر المصري المعروف الدكتور محمد سيد أحمد لم يرفض مسؤولية العرب عما لا يلاقونه من الإعلام الأمريكي، ولكنه أكد أن أغلب الذنب يقع على عاتق أمريكا. وقال إن أمريكا لا ترى في العالم كله إلّا إسرائيل، وأنها تقسم العرب إلى أخيار وأشرار، ولكنها لا ترى أشراراً في إسرائيل.

هذا، وقد عزا برفسور هشام شرابي عدم الوضوح في نظرة العرب إلى الإعلام الأمريكي، إلى أنهم لا يقدرون تقديراً كافياً أن بنية الإعلام الأمريكي تختلف اختلافاً جذرياً عن بنية الإعلام العربي. وقال إن من بعض معوقات الإعلام العربي أنه يخضع لرقابة الحكومات، وأنه بطيء الاستجابة للأحداث، وأنه بالقياس إلى الإعلام الأمريكي، متخلف تخلفاً كبيراً تقنياً ومهنياً. وفي رأيه أن الإعلام العربي لكي يستطيع أن يتصدى للإعلام الأمريكي، عليه أن يتطور أكثر، ولا يعتمد فقط على الكلمة والصورة.

هذه النظرة، هي بطبيعة الحال، نظرة لها وزن. وهي تتصل بقضية (الوعاء) الذي يحمل الرسالة الإعلامية، فإذا كان (الوعاء) ضعيفاً، فلا يجدي أن الرسالة الإعلامية مهمة في حد ذاتها.

وكان مستر (جوناثان برودر) المراسل الصحافي في واشنطن، قد لمّح إلى شيء قريب من هذا، حين قال إن (حدة العاطفة) لا تساعد بالضرورة على الفهم، ووصف هذا النوع من الإعلام، بأنه يحتوي على «حمولة ثقيلة من العاطفة».

الأستاذ عثمان العمير رئيس تحرير صحيفة «الشرق الأوسط»، هو أيضاً ركّز على الجانب التقني المهني، وعلى تخلف الإعلام العربي من هذه الناحية. وقال «لا بد للإعلام العربي أن يجاري العصر ويكون جديراً بالاحترام».

اعترف الدكتور حليم بركات الأستاذ في جامعة (جورج تاون) في واشنطن، أن الإعلام العربي، والعرب بوجه عام، يتحملون جزءاً من المسؤولية، ولكنه يعتقد أن المسؤولية تقع في معظمها على عاتق أمريكا والإعلام الأمريكي.

ولعل المتحدث الذي ذهب أبعد من غيره في تحميل العرب مسؤولية التشويه الذي يتعرضون له في أمريكا، كان الأستاذ خير الله خير الله من هيئة تحرير صحيفة «الحياة».

قال إن العرب لا يتعاملون مع أمريكا كما هي في الواقع، ولكن بوحي تصورات خاطئة، وأن الإعلام العربي يروّج لهذه التصورات إرضاء لعواطف الجمهور. وذكر أنه لا يوجد إلّا عدد قليل جداً من

الإعلاميين والكتّاب العرب، الذين يحاولون أن يشرحوا للجمهور، ما هي أمريكا. وقال «علينا ألا نغرق الجمهور العربي في الأوهام».

وفي رأيه، أن «على العرب، أن يصلحوا من صورتهم داخل العالم العربي أولاً، قبل أن يطلبوا إصلاحها من الآخرين».

كان لا بد أن تبرز في هذا الاجتماع تلك القضية، قضية ما يُسمى بـ «التآمر الصهيوني» ضد العرب في أمريكا. وهي عقيدة رسخت كما نعلم في عقول آلاف، إن لم يكن ملايين العرب، لأنهم لا يجدون تفسيراً منطقياً لظاهرة يرونها شاذة لا يقبلها عقل ولا منطق.

من الذين أعربوا عن تلك القناعة، الممثل السينمائي المصري الشهير والمخرجَ، الأستاذ حسين فهمي، تحدث بلغة إنجليزية فصيحة وجرأة عظيمة عما سماه (سيطرة اليهود على صناعة السينما في أمريكا) وأنهم يستغلون نفوذهم الهائل في الدسّ للعرب وتلطيخ سمعتهم.

ولا بد لي من القول، أنني شخصياً ومن حيث المبدأ، لا أومن بنظرية التآمر في التاريخ، وأميل إلى مدرسة المؤرخ الإنجليزي الكبير

(أي.جي.بي. تيلر A.J.P. Taylor) الذي يرى أن الغباء أحياناً يبدو كأنه تآمر.

رغم ذلك استمعت إلى الأستاذ حسين فهمي ببعض الدهشة وكثير من الإعجاب. أعجبتني فصاحته وجرأته. وبعض التطرّف الفكري لا يضرّ في مثل هذه الاجتماعات، ويطرد السآمة والملل.

الدكتور فهد العرابي الحارثي، عضو مجلس الشورى السعودي، عبّر هو أيضاً في كلمة مُتْقَنة رصينة، عن آراء بصدد النفوذ اليهودي في وسائل الاتصال الأمريكية، تجعل ذلك النفوذ يبدو أقرب إلى المؤامرة.

كذلك الأستاذ صالح سعود الأطلسي رئيس تحرير (السياسة الجديدة) المغربية. هو أيضاً كان قريباً من قبول فكرة المؤامرة الصهيونية ومن بعض ما قاله «إن القوى نفسها المؤثرة على الصحافة، هي القوى المؤثرة على القرار السياسي».

أما الأستاذ هشام ملحم، مدير مكتب صحيفة «السفير» اللبنانية، فقد كان أكثر صراحة بالتنديد بالنفوذ اليهودي، ورغم أنه ذكر أن تحسنّاً نسبياً قد حدث، ولكنه ضرب أمثلة على التحيّز ضد العرب، الأمر الذي لا يمكن أن يفهم إلّا أنه يصدر عن نيّة مبيتة.

وفي كلمة عميقة بعيدة المرمى، قال الدكتور أحمد الربعي، إن أمريكا تعتبر قضية إسرائيل (قضية أمريكية محلية) ـ بمعنى أنها تعتبر أن إسرائيل امتداد لها، وليست دولة عادية كبقية الدول. وقال إن سياسة أمريكا في منطقة الشرق الأوسط، يجب أن تقوم على أساس

مصالحها فقط. وهذا بالطبع هو مربط الفرس الذّي دونه خَرْط القَتاد. إنما العرب ما أكثر ما خرطت القتاد حين حزَبها الأمر. وأيُّ حزابة (بضم الحاء المهملة وفتح الزّاي) أحْزَب من حُزابة الإسرائيليين زائداً الإمريكان!؟

ويمكن أن يضيف المرء، أن أمريكا لو فعلت ما اقترحه عليها الدكتور الربعي، فإنها سوف تضمن أيضاً مصلحة اليهود في فلسطين، لأن تأييدها الأعمى لسياسات الحكومة الإسرائيلية، حتى المتطرفة منها، قد يؤدي إلى كارثة لليهود الإسرائيليين في نهاية الأمر، وهذا هو رأي اليهود الأمريكان العقلاء.

تلك الآراء وغيرها، جعلت مستر (هنري سقمان ـ Henry Sigman) ـ وهو كما قلت يهودي مُنْصف يؤمن بحتمية قيام دولة فلسطينية ـ يقول بشيء من نفاد الصبر، أن فكرة وجود مؤامرة يهودية في أمريكا فكرة بعيدة عن الواقع تماماً، وقال إنه يعرف المنظمات اليهودية جيداً، ويستطيع أن يقول بلا تردّد، أنه لا أساس بتاتاً للزعم بوجود نفوذ يهودي (شيطاني) في أمريكا، وقال إن اليهود الأمريكان أبعد ما يكونون عن الإجماع على تأييد سياسة رئيس وزراء إسرائيل الحالي.

هذا، وقد فسّر عدد من الأمريكان ـ وبعض العرب ـ ميل كثير من الناس في العالم العربي إلى قبول فكرة (التآمر الصهيوني) أن ذلك بسبب كفاءة الإعلام الإسرائيلي وعجز الإعلام العربي.

وقد وصف الأمير بندر بن سلطان بن عبد العزيز سفير المملكة العربية السعودية في واشنطن، في كلمته البليغة الضافية التي ألقاها

في افتتاح المؤتمر، الجهد الضخم الذي يتحتم على العرب أن يبذلوه إذا أرادوا إحداث تغيير في سياسة الولايات المتحدة تجاههم.

وكذلك الأستاذ محمد بن عيسى سفير المغرب في واشنطن، الذي قال إن واشنطن ليست هي أمريكا، وأن الصحف الأمريكية الكبرى ليست هي وحدها الإعلام الأمريكي. وضرب مثلاً على التقصير العربي، أن العرب ليس لهم حتى الآن مركز ثقافي في أمريكا.

هذان الرجلان العاليا الهمة بمساهمتهما الفعّالة في قيام (مركز الدراسات الأمريكية) في أصيلة، قد فتحا طريقاً ما أجْدر به أن يُطرق، وضربا مثلاً ما أجدر به أن يُحتذى.

٣١

هكذا وصف الدكتور جابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة، الرواية العربية. آثر أن يقول إنها (ملحمة العرب)، بدلاً من التعبير الذي يروّج له البعض، أن الرواية هي (ديوان العرب) في هذا العصر. والرواية، رغم أهميتها، ليست ديوان العرب. ذلكم هو الشعر. وسوف يظل الأمر كذلك ما بقي على وجه الأرض ناطقون باللغة العربية الشريفة.

قال ذلك في كلمته الناصعة التي ألقاها في افتتاح مؤتمر الرواية العربية الأول في القاهرة. وقد استمر من ٢٢ إلى ٢٦ شباط/ فبراير. وكان موضوعه (خصوصية الرواية العربية).

تعرفت إلى الدكتور جابر عصفور منذ وقت قريب. كنت ألقاه في المؤتمرات الثقافية منذ زمن. وكما يحدث في زحام هذه التجمعات،

فإنك نادراً ما تستطيع أن تعرف أحداً معرفة حقيقية.

ولكن حتى في تلك اللقاءات العابرة، كان يجذب انتباهي بوضوح فكره، وخلو لغته من العبارات الجاهزة الممجوجة والأفكار الشائعة المكررة. كان دائماً ـ حتى لو اختلفت معه ـ يقول شيئاً طريفاً يعلق بالذاكرة.

أضف إلى كل ذلك روح الدعابة التي تميّز بها المصريون أكثر من بقية الشعوب العربية. وهي ميزة تنقذ الإنسان مهما بلغ من العلم، من أن يأخذ نفسه مأخذ الجد، ويحسب أن ما يقوله هو الحقيقة النهائية المطلقة.

ثم أتيح لي أن أتعرف إليه أكثر أثناء مؤتمر الشعر (١٩٩٧). لمست فيه بالإضافة إلى ما ذكرت خصلتين أحبهما: البساطة التي تشربّها من أصوله الريفية وعمّقها باتساع المعرفة. كذلك وجدت فيه صفة تعجبني في الإنسان المسؤول، وهي صفة التحرر من القيود البيروقراطية. رأيته يصرّف شؤون المجلس الأعلى للثقافة بحزم، ولكن بروح من الإدارة الخلّاقة.

مفهوم (الإدارة الخلّاقة Creative Management) هو بالطبع منهج مُعترف به في فنون الإدارة، ولعله الآن المنهج المفضّل. بل إن الأمريكيين والأوروبيين ابتدعوا مفهوماً أسموه (الفوضى الخلّاقة ـ Creative Chaos). أحياناً يكون ذلك أدعى إلى تحقيق الهدف من الوسائل البيروقراطية المعهودة.

تلك أساليب مشروعة وضرورية في بعض الحالات، ولكنها كما

نعلم وسائل حذرة، تراعي الشكليات أكثر مما تراعي تحقيق الهدف المنشود. وأنا كلّما أجد مسؤولاً، خاصة في المؤسسات الثقافية والإعلامية وما شابهها، يطلب من الموظفين التوقيع على سجل لساعات الوصول والخروج، أعلم أنه لن ينجز إلّا القليل. ولا يخفى أن الموظف قد يصل إلى مكتبه في الساعة المحددة ويخرج في الساعة المحددة ولا يفعل شيئاً.

من حسن حظ الدكتور جابر عصفور أنه يعمل مع وزير هو في الأصل فنان مبدع، وهو الأستاذ فاروق حسني. إنه أيضاً ـ كما يلاحظ الإنسان ـ يتبع أسلوباً بعيداً عن النهج البيروقراطي.

الجناح الآخر لوزارة الثقافة المصرية، أعني الهيئة العامة للكتاب، يرأسه رجل من هذا الطراز هو الدكتور سمير سرحان. هو أيضاً يقوم بجهد كبير في خدمة الثقافة وتأكيد دور مصر الرائد. وقد انتهى منذ أيام معرض القاهرة الدولي للكتاب، وهو يُعَدّ ثاني أكبر معرض من نوعه في العالم. وقد زرته ورأيت اتساع رقعته وغزارة معروضاته وتنوعها، ومدى إقبال الجمهور عليه.

كان المعرض حقاً، سوقاً للفكر والثقافة، تُذكّر بأسواق العرب القديمة مثل عكاظ والمربد. تجد فيه الشعراء والخطباء والمتكلمين في ندوات الجدل والحوار. هذا إلى جانب الكتب والمقاهي والمطاعم.

في اليوم الذي زرت فيه المعرض، كان الزحام عظيماً بحيث تصعب الحركة. وكان الناس يقبلون على شراء الكتب من كل الأنواع. كتب الدين والتاريخ والرواية والشعر والعلوم. وهو أمر يُسعد الإنسان، ويدحض الرأي الذي يقول إن الناس قد انصرفوا عن

القراءة إلى التلفزيون وغيره من وسائل الترفيه الحديثة.

لا عجب إذاً أن الحركة الثقافية في مصر، تشهد اليوم نهضة لم تشهد مثلها منذ أن كان الدكتور ثروت عكاشة وزيراً للثقافة. مصر الآن، كما يحب العرب أن تكون مصر. والقاهرة كما يحب العرب أن تكون القاهرة.

لا أظن أن أحداً يُنكر أن الوجدان العربي في أساسه، وجدان شعري. ليس مثل العرب حُبّاً للشعر. وقد مرّ عليهم زمان حتى في هذا العصر المتبلّد الإحساس، وكانت القصيدة تطلع في القاهرة أو دمشق أو بغداد أو بيروت، فلا تلبث أن تطير بجناحين، ويسير بها الركبان، وتتجاوب أصداؤها في جنبات العالم العربي من مشارقه إلى مغاربه.

كان الأمر بحق كما وصف حافظ، شاعر النيل رحمه الله:

إذا ألمَّت بوادي النيل نازلةٌ

باتت لها راسيات الشّام تضطرب

كان الشعر هو الذي يحفز ذلك. وحتى في يومنا هذا، حين تعدّدت الوسائل، وكثرت المشاغل، وتبعثرت الاهتمامات، وقست

القلوب، ما يزال يوجد شعراء يملكون القدرة على تحريك العواطف، وهزّ الوجدان.

هذا لا تستطيع الرواية أن تفعله، ولا تطمح أن تفعله. ورغم ذلك فلا يُنكر، أن الرواية العربية في عمرها القصير الذي لا يكاد يتجاوز قرناً من الزمان، قد رادت تخوماً لم يستطع الشعر أن يرتادها.

من أهم ما أنجزته الرواية في تقديري، هو أنها رسمت خريطة فنية للعالم العربي. أدخلت أقاليم برُمّتها، كانت قبلاً مجهولة، إلى دائرة الوعي الفردي والجمْعي. أصبح بمقدور القارئ العربي، أن يتخيّل الأرض والبشر والحياة في تقلباتها في كل زاوية من زوايا الدنيا العربية على اتساعها وتنوعها. حتى السينما والتلفزيون لم يستطيعا أن يفعلا ذلك إلّا في نطاق محدود جداً.

والشعر العربي رغم روعته وتنوعه لم يفعل هذا. فعل أشياء أخرى عظيمة. ولكن القصيدة بحكم طبيعتها لا تملك إلّا أن تقدِّم للقارئ أو السامع، عالماً مكثّفاً مركّزاً ينظر إليه الشاعر من زاوية واحدة في الغالب، فهو لا يكترث بالتفاصيل وتعدّد زوايا الرؤية ـ كما تصنع الرواية.

وهذا أعظم شاعر في اللغة العربية بحق، ومن عمالقة الشعراء في تراث الإنسانية. عاش في الكوفة وفي بغداد وفي حلب وفي الفسطاط. الأماكن عبارة عن مكان واحد، والبشر والحياة من حوله لا وجود لهم. هو هو نفسه دائماً. وحده دائماً. في مكان واحد أو لا مكان.

قليلون جداً من الشعراء الكلاسيكيين اقتربوا مما تصنعه الرواية العربية في هذا الزمان. أذكر منهم الشاعر العبقري ذا الرّمة، الذي أعتبره ظاهرة فريدة في الشعر العربي لهذا السبب. انكبّ على نجد، ورسم صورة فنيّة دقيقة للأرض بكثبانها ووديانها ورياحها وأمطارها وشجرها ووحشها وناسها. ويمكن القول أن شعر ذي الرّمة عبارة عن رواية شاسعة، بل هي رواية متقدمة جداً بمعايير الفن الروائي.

ربما أيضاً الحسن بن هانئ - مهما كان رأيك فيه وفي شعره. هو أيضاً ترك صورة واضحة لبغداد، بألَقِها وانحلالها وتنوّعها وحاناتها ومباذلها.

ومن الشعراء المعاصرين يخطر على بالي - دون تفكير عميق، وعلى سبيل المثال لا الحصر - الشاعر الموهوب محمود درويش. ولعل كونه فلسطينياً، فرض عليه أن يجعل شعره سجلاً - وإذا شئت بديلاً - للعالم الفلسطيني المفقود، وأن يكون تاريخاً فنياً لمأساة الشعب الفلسطيني.

هذا، وقد لخّص الدكتور جابر عصفور في فقرة من خطبته البليغة في افتتاح مؤتمر الرواية العربية الذي انعقد في القاهرة مؤخراً، العبء الذي تنهض به الرواية العربية خير تلخيص، حين قال:

«.. وظلّت الرواية العربية.. تسعى في إصرار لا يلين إلى أن تكون مرآة المجتمع المدني الصاعد، وسلاحه الإبداعي في مواجهة نقائصه التي لا تزال إلى اليوم، مقترنة بتخلف التعصّب والتسلّط والتطرّف، متواصلة مع تراثها السرديّ العربي في أبعاده المناقضة للاتّباع والنقل، محاورة غيرها من روايات الدنيا العريضة التي قاسمتها الهموم نفسها.

ولم تعرف الرواية العربية منذ مخاضها العسير المهادنة في تحرير نوعها من هيمنة النوع الأدبي، الوحيد أو التقنيات الثابتة، ولم تتوقف عن تجديد نفسها أو تحرير مبدعها من سطوة كل سلطة، فكرية أو فنية، تمارس القمع باسم الدين والسياسة أو الأخلاق، أو التقاليد الأدبية، ولم تكفّ قط عن مناوشة المرَدة بحيَل السّرد، أو ترويض الجبابرة العماليق، كي تدخلهم إلى قمقم الحكايات، أو مواجهة القمع بما يحول بينه وبين القضاء على وعود المستقبل وأحلامه..».

بلغ مهرجان أصيلة الفني والثقافي عامه العشرين، وهو أمر يدعو إلى السرور، خاصة لدى الذين شهدوا بداياته وواكبوا نموه وازدهاره.

ولا يخفى، أن قصة المهرجان، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقصة أصيلة نفسها. فعلى مدى أكثر من عشرين عاماً، نما المهرجان ونمت البلدة، نمواً متئداً ولكنه متصل ثابت الخطى. التطور الثقافي يسير جنباً إلى جنب مع التطور الاقتصادي والاجتماعي. كل منهما يسند الآخر ويكمّله.

تغيب عاماً عن أصيلة ثم تعود إليها، فتجد أنها قد زادت قليلاً أو كثيراً، تجد عمارات ارتفعت. شوارع تمَّ رصفها. مباني كانت توشك على الانهيار قد رمّمت. ميادين مظلمة قد أُضيئت. أطفالاً

صاروا شباباً. شباناً وشابات تخرجوا من المعاهد والجامعات ووجدوا أعمالاً وكوّنوا أسراً.

ذلك كله يتمّ دون قفزات طائشة، أو مبالغات متهوّرة. وكما قلت من قبل في سياقات أخرى، فلا شك أن هذه البلدة على ساحل المحيط الأطلسي في أقصى بلاد المغرب العربي، تقدم نموذجاً يُمكن أن يحتذى، كيف تكون التنمية المتوازنة، وكيف يحدث ذلك بمشاركة المواطنين أنفسهم، دون الإخلال بالتوازن الطبيعي في البيئة.

أصيلة في طريقها إلى أن تصبح مدينة، بالمعنى الحقيقي للمدينة. تنظر إليها، فتدرك لأول وهلة، أنها مدينة عربية مسلمة، ولكن صلاتها تمتد وراء حدود المغرب شرقاً. وكان للمهرجان تأثير في تنوع تلك الصلات. وذلك كما جاء في كلمة للملك الحسن الثاني يصف فيها المغرب:

«المغرب يشبه شجرة تمتد جذورها المغذّية امتداداً عميقاً في التراب الأفريقي، وتتنفّس بفضل أوراقها التي يقوّيها النسيم الأوروبي... بيد أن حياة المغرب ليست عمودية الامتداد فحسب، بل هي تمتد كذلك امتداداً أفقياً نحو الشرق الذي نحن مرتبطون معه بالتالد والطريف من الصلات الثقافية.. إنها روابط الدم والروح التي بقيت حيّة راسخة عبر القرون».

هذا، وليس في أصيلة ـ إلى الآن على أي حال ـ عمارات متطاولة من الإسمنت والزجاج، ذلك الإغراء الفادح الذي قلّ أن نجت منه مدينة عربية. ليست فيها زحمة سيارات ولا تلوث هواء، ولا

مطاعم (هامبيرقر) ولا محلات (دسكو)، ولا زعيق موسيقى يخرق طبول الآذان.

تسمع أمواج البحر وضحكات الأطفال، وأناشيد غناء تصلك من بعيد، من وقت إلى آخر. الكورنيش الواسع يزدحم بالمصطافين ورواد المهرجان في الأماسي، والمقاهي والمطاعم لوحات جدارية بألوان ناصعة على الحيطان وإعلانات المهرجان، ومعارض فنية وكُتب على أرصفة الشوارع.

أهل أصيلة يحسّون بالفخر، لأنهم يدركون أنهم شاركوا في النهضة التي تشهدها مدينتهم. ويعبّر عنهم (سلاّم)، ضمير أصيلة وبركتُها في ثيابه النظيفة وابتسامته الطيبة المضيئة. يجوب الشوارع يستقبل الزائرين، وينادي كثيراً منهم بأسمائهم ويقول لكل منهم «مرحباً بك في أصيلة».

العام الماضي، شعرنا لوهلة بالقلق، وخفنا أن يختل التوازن الجميل الذي تحقق في المدينة. وجدنا بناء ضخماً يرتفع على الشاطىء قريباً من القلعة، لا صلة له بما حوله. وكان واضحاً لنا، نحن محبّي أصيلة، أن الذين أقاموه، إما أنهم لم يدركوا المغزى الرمزي لهذه المدينة الصغيرة النائية، أو أنهم لم يكترثوا بذلك المغزى وهو أن أصيلة أصبحت ترمز لشيء أكبر من حجمها، وأن المغرب يحق له أن يفخر بذلك ويحرص عليه.

إنما لحسن الحظ، وجدنا هذا العام، أن البناء النشاز ـ رغم أنه كان قد قارب تمامه ـ قد أُزيل، وأن وجه البحر الجميل قد أسفر وابتسم من جديد.

فإلى السلطة التي أمرت بمحو تلك البشاعة ـ ولا بد أن تكون سلطة عليا ـ الشكر والتقدير من كل عشاق هذا البلد المغربي، الذي أصبح رمزاً عالمياً، ونموذجاً يمكن أن يُصنع على نمطه، خاصة في العالم العربي.

كل موسم يجد الزائر مفاجأة سارة، ومفاجأة هذا الموسم في أصيلة، كانت عندي أكثرها مدعاة للسرور.

ذلك أن الأمير بندر بن سلطان بن عبد العزيز، لم يكتفِ بأنه غمر المهرجان والمدينة بأياديه البيضاء، ولكنه اصطحب معه إلى أصيلة هذا العام، فناناً شامخاً طالما أحببتُ غناءه وتشوقتُ إلى معرفته. وشأني في ذلك، شأن مئات الآلاف من العرب. أعني المغني الموهوب، صاحب الصوت المليء بالجاذبية، محمد عبده.

قال الأمير في كلمته في افتتاح المهرجان، أنه أحضر معه إلى أصيلة هدية ثمينة وقد صدق.

حين غنّى محمد عبده في مساء اليوم التالي لافتتاح المهرجان، في

مركز الحسن الثاني، نظرت إلى زملائنا وزميلاتنا من الأكاديميين والكتّاب والشعراء من أقطار أفريقيا جنوب الصحراء وقد استخفّهم الطرب. انخرطوا مع الجمهور المغربي، الذي غلب عليه الشباب. كانوا يحفظون أغاني محمد عبده ويرددونها وراءه. كان حدثاً رائعاً في التواصل العربي ـ العربي، والتواصل العربي ـ الأفريقي.

قالت سيدة وقور من الكنغو تعمل أستاذة في جامعة أمريكية، وقد أخرجها الطرب عن وقارها، إنها لم تكن تتصور أن الغناء العربي يمكن أن يؤثر عليها كل ذلك التأثير.

في ندوة الحوار العربي ـ الأفريقي، كنا نحاول أن نُحيي الروابط الأزلية التي جمعت بين العالم العربي وأفريقيا. نحاول أن نعيد بناء الجسور القديمة التي تداعت وتهدّمت بسبب الإهمال وقلّة الاكتراث. حدثت محاولات فاترة متباعدة من قبل، ولكن أبداً لم يجتمع، كما يجتمع الآن، قرابة سبعين كاتباً وشاعراً ومفكراً، من مختلف أقطار العالم العربي وأفريقيا، لينظر بعضهم في وجوه بعض، ويستمع بعضهم إلى أفكار بعض، وتدارس تلك العلاقة المصيرية بحق، بين العرب والأفريقيين جنوب الصحراء.

وقد أغنانا صوت محمد عبده وغناؤه الجميل عن آلاف الكلمات.

كان أكثر أخواننا من بلاد أفريقيا جنوب الصحراء، يزورون بلداً عربياً لأول مرة في حياتهم، ويسمعون غناء عربياً لأول مرة.

في مركز الحسن الثاني ذلك المساء، وحّدت ألحان محمد عبده وصوته بين الأفارقة من أقطار جنوب الصحراء والأفارقة العرب في

شمال القارة والعرب في الجزيرة العربية وما وراءها شرقاً وشمالاً. كذلك يفعل الفن العظيم دائماً. وذلك تأثير لا تستطيع أن تحدثه الخطب السياسية ولا المؤتمرات الدبلوماسية.

أفريقيا في واقع الأمر، عربية أكثر مما يدرك أو يعترف ـ معظم الأفارقة. والعالم العربي، أفريقي أكثر مما يدرك ـ أو يعترف ـ معظم العرب. بقي أن تُجلى هذه الحقيقة البسيطة، حتى تصبح واقعاً معاشاً.

في بداية الموسم، افتتح الأمير بندر وهو رئيس مجلس أمناء مؤسسة منتدى أصيلة ـ افتتح قصر الثقافة بعد أن تمَّ ترميمه وتوسعته، ليكون مقرّاً للمؤسسة، فأصبح تحفة فنية حقاً، ومعلماً بارزاً على ساحل البحر من معالم المدينة.

ويُذكر لهذا الأمير الكريم، أنه تبرّع بكافة نفقات ترميم القصر وإضافة مبان جديدة إليه، وهي منّة سخيّة سوف تذكرها أجيال متعاقبة من رواد أصيلة. وجدير بالذكر أن القصر، أصبح الآن يضم غرفاً لإقامة المبدعين، من كتّاب وشعراء ورسّامين وموسيقيين، لمواصلة أعمالهم في هدوء.

كذلك وضع الأمير بندر حجر الأساس لمكتبة أصيلة الكبرى، وهو مشروع ثقافي ضخم تكفّل الأمير بنفقاته كلها. سوف تقوم المكتبة على مساحة هكتار من الأرض تبرع بها مجلس بلدية أصيلة، وسوف تكون على أحدث طراز شاملة لآلاف الكتب والمراجع والوثائق، وكل التقنيات الحديثة التي تعين الدّارسين. ولا شك أنها سوف تصبح مركزاً آخر للإشعاع الثقافي في هذه المدينة الجميلة.

هذه الأشياء الرائعة كلها، التي حدثت وتحدث في مدينة أصيلة، تنطوي على معان عدة، منها أن عمل الخير حين يبدأ، فلا بد أن يجد أناساً خيّرين يدعمونه. وهذا الأمير الأريحي، بندر بن سلطان ابن عبد العزيز، من هؤلاء الرجال الجديرين بالاحترام والتقدير.

بالتعاون مع منظمة اليونسكو، ودار ثقافات العالم العربي في باريس، واتحاد كتّاب آسيا وأفريقيا، افتتح مهرجان أصيلة نشاطه هذا الصيف، بعقد ما سُمي «المؤتمر الأول للكتّاب الأفارقة». وهو أكبر اجتماع من نوعه، ينعقد في أي مكان في العالم العربي، وربما في أي مكان من العالم، فقد حُشد له زهاء سبعين كاتباً وشاعراً وأكاديمياً، من مختلف أقطار أفريقيا، شمالاً وجنوباً، وشرقاً وغرباً.

ولا يخفى أن موضوع العلاقات العربية ـ الأفريقية موضوع عظيم الخطر فيما يخص العرب. وقد ظل معلّقاً أمداً طويلاً ينتظر جهة عربية ما، دولة أو مؤسسة، تواجهه مواجهة، وتمحّصه تمحيصاً... إلى أن قيّض الله له محمد بن عيسى، في أصيلة بالمغرب وهو إنسان تميّز ببعد النظر، وحبّ المواجهة والمغامرة.

معلوم أن أفريقيا والعالم العربي، ارتبطا ارتباطاً حيوياً لا فكاك منه، منذ ما قبل التاريخ المُدوّن. عبَر العرب إلى أفريقيا. وعبر الأفارقة إلى الجزيرة العربية وبلاد الرافدين وأبعد.

المحن التي حلّت بالأفارقة حلّ مثلها بالعرب. والمظالم التي حاقت بهم حاق مثلُها بالعرب. صار مصيرهما مشتركاً، ووجدانهما لا يختلف كثيراً أحدهما عن الآخر، وقد عبّر الشاعر السوداني محمد المكي إبراهيم عن هذا أجمل تعبير في قصيدته الرائعة (بعض الرحيق أنا والبرتقالةُ أنت)، حين قال مخاطباً أفريقيا:

من اشتراك اشترى
فوْحَ القُرُنفل من أفواه أُمْسيَه
أو السواحلَ من خَصْر الجَزيرة
أو خصر الجزيرة من موج المحيط
وأحضان الصّباحيّه.
من اشتراك اشترى
للجرح غمداً وللأحزان مرثيّه
من اشتراك اشترى
مني ومنكَ تواريخَ البكاءِ
وأجيالَ العبوديّه.
من اشتراك اشتراني يا خُلاسيّه.

لماذا إذاً، أصبح بعض الأفارقة في الآونة المتأخرة، ينظرون إلى العرب بريبة وحذر، بل بحقد وكراهية في بعض الأحيان؟

نحن في السودان قد خبرنا هذه الأحقاد القديمة عن كثب، الحوار

مع إخواننا في الجنوب صار عسيراً، بسبب أخطاء الماضي، وهي من جانبنا في الغالب، والآثام، بل الجرائم، التي اجترحتها الحكومات الشمالية في حق الجنوب، الآن، وفي الماضي القريب.

إنّما أيضاً بسبب النّفور وسوء الظن الذي يحسّه الأفارقة نحو العرب إطلاقاً. وهو إحساس لا يستند إلى أية حقائق تاريخية مؤكدة.

من ذلك إلقاء مسؤولية تجارة الرقيق في أفريقيا كلها على العرب.

لا يُنكر أن العرب لم يسلموا تماماً من عار تجارة الرقيق. إنما هل كانوا هم المسؤولين عنها بالدرجة الأولى؟ ماذا كان الدور الأوروبي في تجارة الرقيق؟ بل ماذا كان الدور (الأفريقي) في تجارة الرقيق؟

هذا، وقد اتسعت الهوة إلى حدّ أن بعض الأفارقة (جنوب الصحراء) أخذوا يقولون أن العرب الموجودين في أفريقيا ـ وهم أكثر من ثلثي العرب كافة ـ دخلاء على القاهرة وأنهم ليسوا أفارقة. كلمة (أفريقي) عندهم، تعني الأفارقة السود وحسب.

من سوء الحظ أن كثيرين من العرب قبلوا هذا الافتراض. هؤلاء بطبيعة وضعهم الجغرافي وملابسات ظروفهم التاريخية، اتجهوا نحو أوروبا عبر المتوسط، وأداروا ظهورهم لأفريقيا. كثيرون منهم يتحدّثون عن أفريقيا كأنهم ليسوا جزءاً منها.

كأن أفريقيا مكان آخر وكأنهم ليسوا أفريقيين. قبلوا المعنى الأوروبي الاستعماري لكلمة (أفريقي) بحيث أصبحت تعني (أسود) أو (زنجياً).

واقع الأمر، أن غالبية الأفارقة اليوم ـ كما يقول المؤرخون وعلماء الأجناس ـ ليسوا سوداً صُراحاً ولا زنجاً صُراحاً. منذ أقدم العصور، اختلطت الدماء والأعراق والأجناس، مكوّنة شعوباً (هجينة)، أو شعوباً (خلاسيّة) كما وصف الشاعر السفير محمد المكي إبراهيم.

لم يعُد العرب محض عرب لا الزنج محْض زنج. الهُجنة هي قابلةُ التاريخ. التأكيد على نقاء العرق، سواء صدر عن العرب أو الأفارقة أو الأوروبيين، دعوة عنصرية تنطوي دائماً على رغبة في السيطرة والاستعلاء. ويشهد التاريخ للعرب أنهم أبداً لم يترفعوا عن الاختلاط والتزاوج في الشعوب التي أقاموا بينها.

(هنري لوبيز)، الذي أُوكل إليه تنظيم مؤتمر (الحوار العربي الأفريقي) في أصيلة يمثل هو نفسه في شخصه ذلك التعدد العرقي الذي أشرت إليه من قبل. تلك (الهُجْنة)، التي لا يشك المنصفون في أنها هي طابع أفريقيا ومفتاح مستقبلها. وهي هُجنة ثقافية أيضاً.

إنه أفريقي من الكنغو (برازافيل). كان إلى ما قبل بضعة أشهر مساعداً للمدير العام لمنظمة اليونسكو، حتى وصل سن التقاعد. ومن قبل كان وزيراً لخارجية الكنغو (برازافيل).

أفريقي لا يشك أحد في أفريقيته. ومع ذلك فهو ليس أسود اللون، بل أسمر حنطي البشرة. يمكن أن يكون عربياً، من شمال السودان أو المغرب أو صعيد مصر. أو أوروبياً من جنوب إسبانيا.

ذلك لأنه ليس زنجياً قحّاً، بل هو خليط من أعراق مختلفة. فيه دم زنجي ودم أوروبي وربما دماء أخرى.

تميّزت حياته كلها بثنائية لعلها كانت من عوامل نبوغه، فإلى جانب أنه وصل إلى أعلى مناصب الدولة في وطنه، فهو من كبار الروائيين الأفارقة الذين يكتبون باللغة الفرنسية.

ولد في عهد الاستعمار البلجيكي في ليوبولدفيل التي صارت (كنشاسا) بعد الاستقلال. وهو يقول عن نفسه بشيء من الفخر، أن أسرته كانت (هجينة) فيها دماء مختلطة.

قضى شطراً من طفولته في (برازافيل)، على الضفة الأخرى من نهر الكنغو. وقد ترك ذلك أثراً عظيماً في نفسه كما يمكن أن يتخيّل المرء، نظراً للظروف التي أحاطت بالكنغو خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها. ويجد القارئ ذلك واضحاً في أعماله الروائية، حيث استغل الكاتب ببراعة، المفهوم الرمزي لـ(الضفة الأخرى)، وأنه منذ طفولته لم يحس بالانتماء إلى مكان بعينه.

ثم قضى الشطر الآخر من طفولته وصباه في فرنسا، على ضفاف نهر أوروبي هو نهر الـ (لوار) العتيد. وتعمّقت تلك الثنائية ـ ولا أقول الانفصام ـ أنه نشأ يتحدث لغتين يعتبر كلاًّ منهما أنها (لغته الأم). لغة الـ (لنْقالا)، وهي من اللغات المحلية الغالبة في الكنغو، واللغة الفرنسية.

يقول بسخرية ـ ليست فيها مرارة ـ أن من بعض ما تعلمه في المدرسة الفرنسية، شيئاً من اللغة اللاتينية، حتى يستطيع أن يتكلم

لغة الـ (لنقالا)، على نحو أفضل!

هناك أيضاً ـ كما وصف ـ اكتشف أنه أفريقي وأدرك أبعاد ذلك الاكتشاف. كان باستطاعته لو أراد، نظراً لمظهره الجسماني، أن يتنكر لإرثه الزنجي. ولكن ـ ربما لأنه كاتب روائي أكثر من أي شيء آخر ـ أدرك بحدسه الفني أن ميزته الكبرى هي أنه (هجين). إنه هذا وذاك، وفي الوقت نفسه إنه لا هذا ولا ذاك!

أكمل تعليمه في جامعة السوربون في باريس، حيث كوّن صداقات ـ كما يصف ـ مع أشخاص من مختلف الألوان والأجناس، وحصّن نفسه تحصيناً تاماً «ضد أمراض العنصرية والتعصّب». وكما هو متوقع من طالب جامعي أواخر الخمسينيات، وأوائل الستينيات، خاصة في فرنسا، وخاصة في السوربون، فقد انغمس في الحركات اليسارية السائدة. كان ضد الحرب الأمريكية في فيتنام، والحرب الفرنسية في الجزائر. وكان من أنصار لومُمبا.

بعد تخرجه، عاد إلى الكنغو (برازافيل) وعمل في التعليم. ثم، كما حدث لكثيرين مثله في شتى أقطار أفريقيا، لم يستطع أن يصمد طويلاً لإغراء السياسة والسلطة. أو كما وصف: «تركت نفسي أُنجرُّ وراء سراب السياسة الخادع».

ظل يجري وراء سراب السياسة، إلى أن أصبح وزيراً للخارجية. وفي عام ١٩٨٠، ترك كل ذلك والتحق بمنظمة اليونسكو في باريس، حيث تزاملنا فترة من الزمن.

التقينا مراراً في تلك الأيام. كان في بداية عهده أحد مساعدي

المدير العام المسؤولين عن مختلف نشاطات المنظمة. وكان هو مسؤولاً عن النشاط الثقافي.

كان قريباً من المدير العام أحمد مختار أمبو، كما كنتُ أنا بدرجة أقل. كان واضحاً لي من أول وهلة، أن (هنري لوبيز)، من هؤلاء الإداريين ـ وهم أفضل الإداريين في نظري ـ الذين لديهم (بُعدٌ آخر). بُعد أدبي أو إنساني. أمبو نفسه كان من ذلك الطراز.

في الاجتماعات والمؤتمرات، كان يراقب أحدُنا الآخر. ينظر إليَّ من وقت إلى آخر، وأنا أيضاً، لأنه كان يعلم، أنني مثله. مشارك في تلك (اللعبة)، لكنني لست جزءاً منها. كان (مراقباً) مثلي، لأن الهدف في نهاية الأمر، هو (الفن) ـ القصيدة، أو العمل الروائي.

انتهى به الأمر، أنه صار الرجل الثاني في المنظمة بعد المدير العام، إلى أن وصل سنّ التقاعد منذ أشهر.

لكنه طوال عمله لم يتوقف عن الكتابة. وفي عام ١٩٧٢ نال الجائزة الكبرى لأدب أفريقيا السوداء على روايته (قبليّات) ـ نسبة إلى (قبيلة). وفي عام ١٩٩٣، منحته الأكاديمية الفرنسية جائزة الفرنكفونية الكبرى على مجموع أعماله.

كاتب مهم، وسوف يصير أكثر أهمية ولا شك، لأنه الآن وهو في قمة حيويته الفعلية قد «كرّس» نفسه تماماً ـ على حد قوله ـ لرسالته الأصل ـ ألا وهي الكتابة.

هل توجد حديقة باسم شاعر عربي في أي عاصمة عربية؟ إن كانت توجد بالفعل فإنني لم أرها، وقد زرت العواصم العربية كلها دون استثناء.

هل توجد في القاهرة، مركز الإشعاع الثقافي العربي، حديقة باسم الشاعر الضخم أحمد شوقي، دعك عن بقية الشعراء؟ إن كانت موجودة فإنني لم أرها، ولا بد أن تكون مطمورة في حي قصي من أحياء المدينة الكبيرة.

قرأت في مكان ما اقتراحاً موجهاً للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وهي المؤسسة التي عليها المعوّل في حشد الطاقات لعمل نهضة ثقافية. يهيب صاحب الاقتراح بالمنظمة أن توجه اهتمامها إلى مثل هذه الأشياء البسيطة، وهي

ليست بسيطة في الواقع، بل هي الأشياء التي تبقى.

يا ليت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وعلى رأسها صديقنا المهذّب المتحضّر محمد الميلي، تقبل الفكرة وتنفّذ الاقتراح. ليتها تحذو حذو المؤسسة الثقافية اليابانية العملاقة، التي تهدي إلى الدول والمؤسسات، أشجار الكرز في المناسبات!

لو كانت المؤتمرات والدراسات والاستراتيجيات تجدي نفعاً، لأثمرت الجهود المضنية التي بذلها المدير العام السابق للمنظمة الأستاذ الجليل الدكتور محيي الدين صابر. بذل طاقة هائلة وإخلاصاً وحماسة تفتّت الصخر. ظل مسافراً يطوّف بالعالم العربي من أقصاه إلى أقصاه، يستنهض الهمم يحاول تفجير نهضة ثقافية عربية كبرى. وكان حرياً بتلك النهضة أن تنطلق.

إنما، لعل هذا الزمان، أو بالأحرى هذا الزمان العربي، ليس زمان نهضات كبرى. لعل التركيز على الأشياء البسيطة ـ الآن ـ أنفع وأجدى. ربما الأشياء الصغيرة تتجمع وتكون شيئاً كبيراً مدهشاً لم يكن في الحسبان.

بلى، إنني أضم صوتي إلى أصوات كل الذين يطلبون من المنظمة العربية أن تنصرف عن الأفكار الكبيرة وتركّز على الأشياء الصغيرة. وهي على أي حال لا تملك المال الذي يلزم لقيام المشاريع الضخمة. الدول العربية قلّصت دعمها، ولولا الحياء لأغلقتها.

نعم، عليها أن تكف بتاتاً عن عقد المؤتمرات والندوات وعمل الدراسات والاستراتيجيات، وتنفق المال القليل الذي يمنح لها، في

عمل ما يمكن عمله. تعيد طبع كتاب هنا. تكرّم كاتباً أو شاعراً هناك. تقيم معرضاً فنياً. حفلاً موسيقياً. وأيضاً تتعاون مع الحكومة في إنشاء الحدائق في العواصم العربية تحمل أسماء الكتّاب والشعراء والفنانين.

إذا صدق ظني، فإن الحكومات سوف تستجيب لمشروع كهذا. لن يكلّفها كثيراً، وهو شيء محسوس ماثل للعيان بخلاف الدراسات والمؤتمرات. أضف إلى ذلك أنه يتمشى مع الدعوة إلى تحسين البيئة وتزيين المدن. ولعل الأثرياء من الخيّرين لا يقفون مكتوفي الأيدي.

ذكّرني بكل ذلك، وقوفي في أصيلة هذا الصيف، في الحديقة الجميلة التي تحمل اسم الشاعر الكنغولي (شكايا أوتامسي). وسط البلدة عند القلعة قريباً من المحيط.

النخل والأشجار التي زُرعت منذ نحو عشر سنوات، قد كبرت وفاءت واتّسعت ظلالها. العشب مخضر شديد الاخضرار. الزهور في أحواضها بمختلف ألوانها وعطورها. في جنبات الحديقة مقاعد حجرية يجلس عليها أهل أصيلة وروادها يطل عليهم النّصب الرخامي الذي أقيم تخليداً لذكرى (شكايا)، الذي أحبّ البلدة وتغنّى بحبها. أليس ذلك شيئاً جميلاً؟

وقفنا جميعاً في تلك الحديقة قُبيل الغروب، في احتفال بسيط لإعلان اسم الفائز بجائزة شكايا أوتامسي للشعر الأفريقي.

تحدّث (هنري لوبيز) رئيس لجنة التحكيم معلناً اسم الفائز. وتلاه محمد بن عيسى بوصفه الأمين العام لمؤسسة منتدى أصيلة، فذكّر

الجمهور الكبير الذي تجمع لحضور الاحتفال، بالشاعر النبيل الذي سُميّت الجائزة باسمه، صديقه وصديقنا (شكايا أوتامسي). ثم نوّه بالفائز وذكر الأسباب التي جعلت اللجنة تمنحه الجائزة. واختُتم الاحتفال بكلمة من الفائز. اسمه (جان باتيست تاتي لوتار) من جمهورية الكنغو ـ برازافيل. وهو ـ قد يبدو ذلك عجيباً ـ وزير الطاقة في الحكومة.

قضى معظم عمره في التعليم. عمل مديراً للمدرسة العليا للآداب ومديراً لمعهد التعليم العالي وأستاذاً للآداب في جامعة (برازافيل). كذلك كان وزيراً للتعليم العالي ووزيراً للثقافة.

يكتب باللغة الفرنسية، والشعر هو عماد إنتاجه الأدبي، ولكنه يكتب أيضاً القصة القصيرة والرواية والنقد.

نال عدة جوائز كبيرة، منها جائزة رابطة كتّاب اللغة الفرنسية، والجائزة الكبرى للذين يساهمون في انتشار اللغة الفرنسية.

من حسن الحظ أن المؤتمر خلا تماماً من التوتر والاتهامات المتبادلة التي قد تحدث في مثل تلك اللقاءات. القضايا مثار الخلاف بين الأفارقة (جنوب الصحراء) والأفارقة العرب، لم تنجم في ذلك اللقاء في أصيلة.

وودتُ لو أن بعض إخواننا من جنوب السودان حضروا المؤتمر، إذاً لوجدوا أنفسهم في إطار أفريقي واسع، وربما كانت الأمور تبدو لهم على وجه مختلف.

قضية اللغة مثلاً. المتعلّمون الجنوبيون يقاومون انتشار اللغة العربية في جنوب السودان، ويعتبرونها لغة أجنبية دخيلة على أفريقيا، وأداة من أدوات القهر والهيمنة. يقولون ذلك بينما لغة التخاطب بينهم هي اللغة الإنجليزية.

وربما يشفع لهم أن حُكّام السودان الآن، من بعض فلسفاتهم، أن الجنوب إذا صار ناطقاً باللغة العربية ـ ويا حبّذا مسلماً أيضاً ـ فسوف ينتهي الصراع مع الشمال، وتحل قضية الجنوب إلى الأبد.

في الماضي، انتشرت اللغة العربية والإسلام بدرجة أقل، في ظروف السلم وليس الحرب. حدث ذلك دون أي جهد من الدولة، بل بواسطة التجار الشماليين. كانوا يأخذون من الجنوبيين لغاتهم المحلية، ويعطونهم اللغة العربية، والإسلام أحياناً، في المقابل.

تمَّ ذلك بالتراضي في عملية تواصل إنساني طبيعية، كل يأخذ من الآخر على هواه. وقد أخذ الجنوبيون من الشماليين، بالإضافة إلى لغتهم، بعض أساليب عيشهم في الطعام واللباس والسلوك.

ولم يكن التأثر من جانب واحد، فقد تأثر بعض الشماليين بأنماط الحياة في الجنوب، كما عبَّر عن ذلك الشاعر الفحل محمد المهدي المجذوب:

فـلـيْـتـي فـي الـزّنـوج ولـي رَبـابٌ
تمـيـل بـه خُـطـايَ وتـسـتـقـيـمُ
أُجَـمِّـشُـه فـيـجْـفـل وهـو يـشـكـو
كـمَـا يـشـكـو مـن الـحِـمّـة الـسَّـقـيـمُ
وفـي حِـقـويَّ مـن خـرَز حـزامٌ
وفـي صَـدْغَـيّ مـن ودَعٍ نـظـيـمُ
طـلـيـقٌ لا تُـقـيّـدني قـريـشٌ
بـأحـسـاب الـكـرام ولا تمـيـمُ

تدريجياً أصبحت اللغة العربية هي لغة التخاطب بين قبائل الجنوب

المتعددة اللغات. لغة عامة الناس الذين لم يدخلوا المدارس ولم يتعلموا اللغة الإنجليزية.

ثم ساءت الأحوال، وفارت الأحقاد، وأحرقت الحروب المتواصلة الإنجازات كلها التي تحقّقت في أوقات السلم، وبدا للمثقفين الجنوبيين، لأسباب بعضها حق وبعضها باطل، أن اللغة العربية والإسلام إنما هما طلائع غزو استعماري جديد. وقادهم ذلك إلى رفض الثقافة العربية جملة وتفصيلاً.

ومن الأمور المحيِّرة في سياسة الحكومة الماثلة أنها، بينما هي تسعى لفرض اللغة العربية على الجنوب، وتعتبر ذلك أمراً طبيعياً، فهي في الوقت نفسه تعمل جهدها لإضعاف اللغة الإنجليزية في الشمال، بحسبان أنها لغة الاستعمار. وهي بذلك ـ كما هو واضح ـ تفقد لغة مشتركة مع الجنوبيِين المتعلّمين، وتضيّع ميزة ورثها السودان عن الاستعمار البريطاني، أنه تملّك لغة عالمية الانتشار.

اللغة وسيلة ـ الإنسان هو الذي يستغلها للخير أو للشر. المشاركون في المؤتمر من أقطار أفريقيا جنوب الصحراء، كلهم دون استثناء، يكتبون ويعبّرون عن أفكارهم، إما باللغة الإنجليزية وإما باللغة الفرنسية، بل إن بعض الكتّاب العرب من المغرب والجزائر وتونس، يكتبون باللغة الفرنسية.

لم يُنكر أحدٌ عليهم ذلك. وغلَب الرأي، بعد شيء من الجدل، أنّ هاتين اللغتين ـ وهما أداتا تعبير لجمهرة الناس في القارّة ـ يمكن اعتبارهما لغتين أفريقيّتين.

إذاً كيف تكون اللغة العربية لغة دخيلة على أفريقيا؟ إنها موجودة في القارة منذ نحو عشرين قرناً على أقل تقدير، بينما اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية ليس لهما في أفريقيا سوى قرنين من الزمان على أكثر تقدير.

اللغة أداة تواصل، قد تخلق تعاطفاً عاماً مع ثقافة أهلها. لكنها لا تخلق بالضرورة تبعية أو ذاتية مضادة للذات القومية. والأدلة على ذلك لا تُحصى. الذين قاوموا الاستعمار الفرنسي في الجزائر، كانوا كلهم ناطقين باللغة الفرنسية، وبعضهم لم تكن له لغة غيرها.

ثم عندك ذلك الدليل الناصع والحجة البالغة، المفكّر النابغة الدكتور إدوارد سعيد. أليس هو أستاذ اللغة الإنجليزية في جامعة أمريكية؟ أليس هو يحاضر ويكتب باللغة الإنجليزية التي تكاد تكون لغته الأولى؟

هل ذلك كله أضعف من اندفاعه القومي أو هدّأ من عنفوانه العربي؟ وكم يوجد مثل إدوارد سعيد، حتى من الذين يتحدثون ويحاضرون ويكتبون باللغة العربية المحْض؟

لفتت نظري كاتبة اسمها - إذا لم تخنّي الذاكرة - (إمّا أَتا أييدو).

ولم أكن وحدي الذي انتبه إليها. كانت متوقدة الجمال، فاتنة، وصغيرة السن. في منتصف العشرين ربما. لونها مثل القهوة بالحليب، إنما عندها القهوة أكثر من الحليب.

لم أتأكد من أي بلد أفريقي هي، ولكنها تتحدث وتكتب بالفرنسية. علمت أنها فازت بجائزة كبرى في باريس على رواية لها.

كانت تزهو بجمالها وتتيه بشهرتها. تتدخل في الحوار في المؤتمر، بتهوّر و ..غنجْ.

قالت إن العالم الأفريقي المُتخيّل ـ أي العالم الذي يصنعه الروائيون والشعراء ـ لا علاقة له بالواقع، ويجب ألا تكون له علاقة بالواقع. تُسمي ذلك «الكتابة تحت الكتابة». وفي نظرها، فإن قضية (الهويّة) في الأدب، إنما هي «مصْيدة للكاتب».

ومع مرور الوقت، صارت آراؤها تزداد تطرّفاً وتدخلاتها تزداد تهوراً. تتكلم أنّى شاءت، حين يحلو لها، دون إذن من رئيس الجلسة.

كما يكتشف الممثل المحترف، اكتشفت تأثير حضورها على المشاهدين. ومثل الممثل أو المغني، صارت حماسة الجمهور تزيدها حيوية، وإعجابهم يزيدها تألقاً.

لكن بعض الكاتبات المشاركات، اغتظن من أسلوبها الاستعراضي. قالت لي إحداهن باحتقار «هذه البنت من هؤلاء الكتّاب الأفارقة الذين يقدمون للأوروربيين أدباً عجائبياً يستهويهم. وهو أدب لا قيمة له». إنما الرجال فقد كان شأنهم مختلفاً. كان واضحاً أنهم سُرّوا بتلك الكاتبة الحسناء سروراً عظيماً. أول ما تفتح فمها تشرق الوجوه وتتّسع حدق العيون، ننظر إلى وجهها البديع ونستمع إلى صوتها العذب يفيض بلغة فرنسية كأنها هديل اليمام، ونسامحها على رعونتها وضحالة أفكارها.

وكما يفعل المشاهدون في المسرح، نصفق لها، ليس لعُمق أفكارها، ولكن لجودة تمثيلها.

فرنسية تماماً ـ رغم لونها ـ في حركاتها ولفتاتها وروحها وذلك اللعب الأنثوي الذي حوله الفرنسيون إلى فن ويسمونه

Coquetterie وعند أشياخنا أنه (الغُنج) كما قال الشارع «الغُنج في الجارية، تكسُّرٌ وتدلل».

لم أسْعَ، رغم كل ما ذكرت، إلى التعرف بها، فما لي ولذلك؟ وأنا بعدُ كما وصف محمد سعيد العباسي رحمه الله:

وقد نفضتُ الهوى عنّي فما أنا في
أسار سُعْدى ولا أجفانها السُّود

وهو القائل أيضاً:
يا بنتَ عشرين والأيامُ مقبلةٌ
ماذا تريدين من موعود خمسينا؟

وها نحن قد جاوزنا الخمسين بمراحل
يا أمّ عمرو!

وقبلاً قال ابن دُريدْ:
تالله ما أبشعَ هاتا خُلّةً
أطَرباً بعد المشين والجَلا؟

(الجلا) كما وصفوا، هو انحسار مقدّم الرأس، وقد يُعمّم على الصَّلَع إطلاقاً. وفي (اللّسان) في تعزيز ذلك:

قالت سُليْمى إنني لا أبغيهْ
أراه شيخاً ذرئتْ مجاليهْ

يقلي الغوانيَ والغواني تقليهْ

وقبلهما، قال أبو عبادة البحتري أعَظِمْ به من شاعر:

ظباءٌ ثناها الشيبُ وحشاً وقد تُرى
لريَع الشباب وهي جدٌّ أوانِس
صددن بصحراء الأريك وربما
وصّلْن بأحْناء الدّخول فراكس

انظر كيف جعل موضع الصّدود (صحراء)، وجعل موضع الوصال (أحناء). وهذه فيها صدى من الحنين والحنو والحنان، فلله درّه ثم لله دره.

على النقيض تماماً من تلك الحسناء، كان الكاتب والمخرج السينمائي السنغالي (سمباني عثمان). ذلك لعمري إنسان يستحق أن يُسعى إليه ويُتعرف به. شيخ أشيب، ربما في منتصف السبعين من العمر. من أئمة الفن في أفريقيا. وليس من المبالغة القول إنه صاحب الفضل الأكبر في وضع الفن السينمائي الأفريقي (جنوب الصحراء) على خارطة الفن العالمي.

شاعر وكاتب روائي وموسيقي ومخرج سينمائي. ذلك هو (سمباني عثمان). فنان شامل متنوع المواهب. يعتبر أهم مخرج سينمائي أفريقي من بلاد جنوب الصحراء، وأعماله السينمائية اكتسبت شهرة وتقديراً على نطاق واسع في العالم.

لا يبالي أن يؤكد أنه (ملتزم)، وأنه يستمد فنه من الواقع وأن له رسالة يحاول أن يبلّغها في كتاباته وفي أفلامه. وقد كانت هذه المفاهيم مثاراً للجدل في ندوة للحوار العربي الأفريقي في أصيلة. أغلب الكتّاب الذين يكتبون باللغة الفرنسية خاصة، رفضوا فكرة الالتزام وأن الأدب والفن عموماً له رسالة أو أي وظيفة اجتماعية.

إنما (سمباني عثمان) كان له من حياته مبرّر للتمسك بتلك المفاهيم، لقد عاش حياة صعبة مليئة بالكفاح. وُلد في قرية من قرى شمال

السنغال في أسرة مسلمة، في أوائل العشرينيات. ويقول إنه كان يوجد بين أفراد عشيرته الكبيرة، كاثوليك ووثنيون، لذلك عاش في بيئة يسودها التسامح الديني.

حفظ القرآن في صباه، ولما بلغ الثالثة عشرة، دخل المدرسة الفرنسية، لكنه لم يمكث فيها طويلاً فقد طُرد منها لأنه صفع مدير المدرسة على مرأى من التلاميذ. ويقول عن ذلك:

«جاء شيوخ عائلتي بلحاهم البيضاء المتدلية على صدورهم وتوسّلوا للمدير أن يسامحني ويعيدني إلى المدرسة. لكنه رفض رفضاً باتاً. في ذلك الزمان قبل الحرب العالمية الثانية، لم يكن أحد من الأهالي يجرؤ أن يرفع يده في وجه رجل أبيض. كانت تلك جريمة عقابها السجن، أقصى ما فعله استجابة لتوسلات أقاربي أنه اكتفى بطردي من المدرسة».

يقول (سمباني) إن أباه لم يهتم بما حدث وقال له ضاحكاً:

«تعلُّم اللغة الفرنسية ليس هو كل شيء كونك لن تتعلّمها، هذه ليست نهاية الحياة، انظر إليَّ أنا لم أتعلم اللغة الفرنسية ولم أعمل أبداً مع رجل أبيض. لكنني حرّ طريق أصيد السمك، تعال واعمل معي في البحر».

عمل فترة صياد سمك مع أبيه. ويقول إنه تعلّم من ذلك، حب البحر، وتقدير والده الذي علّمه أشياء كثيرة دون حاجة إلى الكلام.

لم يطل عمله في صيد السمك فقد عَنَّ له أن يلحق بأهل أمه في العاصمة (دكار). كانت الحياة قاسية في المدينة الكبيرة، وكانت الحرب العالمية الثانية قد شبّت في أوروبا. عمل في كراج لإصلاح السيارات، ميكانيكياً متدرباً. يقول عن ذلك:

«في تقاليدنا أن الصبي حين يُختَن يصبح رجلاً مسؤولاً. كان لا بد أن أعمل لأكسب عيشي. عملت بهمة لا تعرف الكلل. الرجل يجب أن يعمل، أي عمل، حتى لا يضطر إلى التسول ليأكل».

وحين انتهت الحرب، سافر إلى فرنسا، السفر إلى فرنسا كان هو الحلم الذي يسيطر على الشباب في سنه. يصف (سمباني) ذلك بقوله:

«انتهت الحرب العرقيّة بين قبائل البيض. كانت الحرب مثل موجة عاتية قادمة من مكان بعيد. من مركز القرارات الخطيرة التي تؤثر على مصائرنا ولا يدَ لنا فيها... حملتني وسائر أبناء جيلي وطرحت بنا في دروب شتى.

وجدت نفسي أعمل حمّالاً في ميناء مرسيليا. ماذا كان بوسعي أن أعمل؟ لا أعرف اللغة الفرنسية ولا أحمل شهادة. ورغم ذلك أقبلت على التعلّم. أعمل في الميناء ثم أسهر في غرفتي المتواضعة لأُلِمَّ بكل ما أستطيع الإلمام به من نُتَف المعرفة.

في تلك الفترة بدأت أكتب. كان الفجر بضوئه الباهت تحت تلك السماء الباردة في ليالي الشتاء، يفاجئني وأنا مكبّ على كرّاستي..

أكتب عن بلادي الدافئة. عن أهلي الجميلين. أكتب دون نظام... دون تمييز... دون معرفة بأصول الكتابة...».

تلك الكتابات لم تلبث أن لفتت إليه الأنظار. ولا بد أن بعض الخيّرين من الفرنسيين انتبهوا إلى موهبته، إذ سرعان ما اتخذت حياته منعطفاً كان له أعظم الأثر على مستقبله. ذلك أنه التحق بمدرسة تابعة لاتحاد نقابات العمال.

وجد فيها ـ كما يصف ـ أساتذة أخذوا بيده وساعدوه على أن يجد طريقه «في متاهات الثقافة الأوروبية» وجد أيضاً المكتبات العامرة بالكتب، واكتشف السينما والمسرح والأوبرا.

يقول (سمباني):
«أثناء تقلبات حياتي كلها، كنت أحسّ بتململ داخلي.. تلك الرغبة الملحة في التعبير عن النفس. التجارب والأفكار تتفاعل وتختلط.. أنا الأفريقي المستعمَر المُستلَب.... المواطن الوطنيّ الإنسان.. شيء ما يتحرك في قاع وجداني مثل الرغبة في الغناء تتجلجل في صدر العندليب...».

بصرف النظر عن أية مميزات أخرى تجمع بينهم، وسواء وُجد (أدب أفريقي) له سمات تميّزه عن بقية الآداب، فقد خطر لي أن ثمة صفة واضحة تشمل الكتّاب والكاتبات المجتمعين في أصيلة. ذلك أن أغلبهم يعيشون في الاغتراب أو المنفى. ما معنى ذلك؟ وهل توجد قارة أخرى غير أفريقيا معظم كتّابها يعيشون خارج أوطانهم؟

سوف أعرض بعض الأمثلة، لنأخذ الكاتب المغربي فؤاد العروي. إنه شاب لافت للنظر، لنصاعة بيانه (باللغة الفرنسية)، ولعمق إدراكه لمشكلة التعبير وعذاب الاغتراب.

ولد في وُجده عام ١٩٥٨، وأتمّ مراحل دراسته كلّها في مدارس فرنسية. حصل على دبلوم في الهندسة من باريس، وعاد إلى المغرب

فعمل مهندساً ولكنه لم يمكث طويلاً. عاد إلى باريس لمواصلة الدراسة، وتنقل بينها وبين (أمستردام) في هولنده و(يورك) في بريطانيا. تحول إلى دراسة الاقتصاد وحصل على دكتوراه في الاقتصاد من جامعة (أمستردام). وهو يقيم الآن في هولنده ويعمل محاضراً في الاقتصاد في جامعة (أمستردام).

ظل أثناء ذلك يكتب الشعر والقصة والرواية (باللغة الفرنسية). وفي عام ١٩٩٦، نشرت له دار (جُويّار) في باريس رواية قال إنه أرسلها لهم بالبريد دون سابق معرفة فلم يتردّدوا في نشرها.

يكتب ـ كما وصف ـ ليعبر عن سخطه إزاء الأوضاع الخاطئة ويكشف «الغباء والقسوة والتعصب في جميع صورها»، بالإضافة إلى أنه يريد أن يمد جسور التواصل «مع آلاف الأصدقاء في العالم الذين لا أعرفهم».

رغم أنه لا يُنكر أنه مغربيّ وأفريقي، لكنه يميل إلى الموقف الذي يعتبر الكاتب «عالماً قائماً بذاته». وقد برر أنه يكتب باللغة الفرنسية بقوله «جيمس جويس لم يكتب باللغة الإنجليزية. كان يكتب بلغته الخاصة، اللغة (الجويسية). الكاتب حين يموت، تموت معه لغته الخاصة وهي أيضاً «لغة أم». الكاتب الجزائري الأصل، عزّوز بكاك، أيضاً يكتب باللغة الفرنسية، ولكن موقفه يختلف عن موقف العروي، ويطابق موقف الكاتب السنغالي (سمباني عثمان). وُلد في فرنسا لأبويْن مهاجرين أمّيين، لا يقرآن ولا يكتبان. عاش في ظروف عسيرة، حال العمال العرب المهاجرين. وقد حثّه أبواه على الدراسة للخروج من (مأزق الفقر). يقول:

«كنت أضغط على نفسي. أحاول أن أنسى (مدينة الأكواخ القذرة) التي نسكنها، نحن وأمثالنا من المهاجرين. أتحمل البرد والبؤس والذل، أنصرف بكل طاقتي إلى الدراسة».

درس حتى أكمل الجامعة واختار أن يكون كاتباً. وحين أخبر والدته، قالت له بحسرة (مكتوب!).

يعيش في فرنسا ويكتب باللغة الفرنسية لكنه مثل (سمباني عثمان) يكتب عن العالم المفقود على الضفة الأخرى للمتوسط، العالم الذي هاجر منه أبواه، بحثاً عن حياة أفضل. يؤمن بـ (الالتزام) وأن الكاتب وظيفة اجتماعية. وهو بالإضافة إلى الكتابة، يعمل في ميدان تعليم الكبار بين المهاجرين إلى فرنسا من بلدان المغرب العربي.

أما الكاتبة والشاعرة (مرياما أندوي) فهي سنغالية ولكنها تعيش في ساحل العاج. قالت إنها تعلّمت في مدرسة كاثوليكية رغم أنها مسلمة. ثم التحقت بجامعة السوربون في باريس حيث حصلت على الدكتوراه في الأدب المقارن.

تقلّبت بها الأحوال في باريس، عملت بائعة في محل تجاري، ومعلّمة، وممثلة، وعارضة أزياء تقول: «رغم أنني طويلة جداً ـ طولي متر وسبعة وسبعون سنتمتراً ـ فإنني إلى الآن لم أحصل على أي جائزة!».

هذا ولعلّ الكاتب (أحمد كوروما) يمثل أكثر من غيره حالة القلق

وعدم الاستقرار التي يعاني منها أغلب الكتّاب في أفريقيا. وُلد في ساحل العاج في عهد الاستعمار الفرنسي وأكمل تعليمه الابتدائي والثانوي في ساحل العاج وفي مالي. ثم اضطرته السلطات الفرنسية إلى السفر للقتال في الهند الصينية في صفوف القوات السنغالية المجنّدين تجنيداً إجبارياً.

حين عاد من الهند الصينية، واصل دراسته، فالتحق بجامعة (ليون) في فرنسا، حيث حصل على الدبلوم العالي في شؤون التأمين، عاد إلى وطنه ساحل العاج فعمل في التأمين، ولكنه كان في الوقت نفسه يكتب قصصاً ومسرحيات يسخر فيها من الحكومة. لذلك أُدخل السجن ثم نُفي إلى الجزائر. هناك كتب أول رواية له وهي (شموس الاستقلال). قال إنه ألّفها ليلفت النظر إلى أوضاع أصدقائه في ساحل العاج، الذين كانوا يعانون من القهر والسجن والتعذيب. وقد نالت الرواية شهرة واسعة في فرنسا وحصلت على جائزة الأكاديمية الفرنسية.

عاد إلى ساحل العاج عام ١٩٧٤، لكنه لم يلبث أن نُفي مرة أخرى، بسبب مسرحية ينتقد فيها الأوضاع السياسية. وهو نفيٌ استمر عشرين عاماً. ظل متنقلاً في تلك الفترة بين مالي وتوغو وفرنسا والكمرون. وفي عام ١٩٩٤ عاد إلى وطنه ساحل العاج على أمل أن يستقر به المقام.

أما الكاتب (أمانيؤل دُنْقالا)، فقد وُلد في أفريقيا الاستوائية الفرنسية من أب كنغولي مجنّد في الجيش الفرنسي. تعلّم في المدارس الفرنسية. نشر ثلاث روايات نالت شهرة واسعة وترجمت إلى عدد من اللغات، إحداها «الجاز وخمر النخيل» ذائعة الصيت وقد حازت

على الجائزة الكبرى لأدب أفريقيا السوداء وجائزة مؤسسة فرنسا. يعيش في أمريكا، ويقول:

«ماذا تظنّون أنني أعمل لأكسب عيشي؟ لا تضحكوا، فأنا في الواقع أعلِّم أولاد الأمريكان الرياضة البدنيّة!».